

جمال الدين الأفغانى

المئوية الأولى

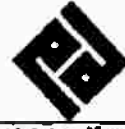
1897-1997

دكتور

حسن حنفى



المكتبة المصرية للطباعة



المكتبة المصرية للطباعة

الكتاب : جمال الدين الأفغانى

المؤلف : حسن حنفى

طبعة : ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٠٤٣٦

الرقيم الدولى : ٨-٠٥١-٤٠٧-٩٧٧

تصميم الغلاف : جمال خليفة

رئيس مجلس الإدارة

محمد حامد راضي

العنوان

١٢٢ أ شارع جسر السويس

امام عمارات الميرلاند ناصية

شارع نصوح - القاهرة

التليفون

٢٢٥٩٥٨٤٥

٢٢٥٩٥٨٤٦

مفتاح الدولى : ٠٠٢٠٢

البريد الإلكتروني

mohamed_radi 2000@yahoo.com

almasrymarwan@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى أنصار الإسلام النورى.

الخطاب الثالث الغائب.

فى عصر الاستقطاب الفكرى.

حسن حنفى

مدينة نصر، نوفمبر ٢٠٠٧

مقدمة

لم أنشأ أن تمر الذكرى المئوية الأولى لجمال الدين الأفغانى (١٨٩٧-١٩٩٧) دون أن أحيتها بكتيب حماسى بالرغم من معاناتى من الانشائية السائدة فى خطاب مشروع "التراث والتجديد" والذي لم يستطع المحافظة على القول البرهانى في "من العقيدة إلى الثورة"، وبالرغم من وجود منابر خطابية له فى "الدين والثورة فى مصر" و"اليسار الإسلامى"^(١).

ومع ذلك، رأيت أنه من النفع العام تخصيص جزء من العمر، وترك الصياغة الأخيرة من "من النقل إلى الإبداع" الذى بدأت فيه منذ أكتوبر ١٩٨٤ ولم يصدر حتى الآن نظراً لاشتغالى من جديد بالحياة الثقافية فى عصر تفكك الوطن والاستقطاب الثقافى بين الخطاب السلفى والخطاب العلمانى^(٢)، لإحياء الذكرى المئوية الأولى لجمال الدين الأفغانى رائد الحركة الإصلاحية الحديثة ومؤسس

^(١) الدين والثورة فى مصر (١٩٥٢-١٩٨٨) ثمانية أجزاء ١- الدين والثقافة الوطنية ٢- الدين والتحرر الثقافى ٣- الدين والنضال الوطنى ٤- الدين والتنمية القومية ٥- الحركات الإسلامية المعاصرة ٦- الأصولية الإسلامية ٧- اليمين واليسار فى الفكر الدينى ٨- اليسار الإسلامى والوحدة الوطنية، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩.

اليسار الإسلامى، كتابات فى النهضة الإسلامية أو العروة الوثقى الجديدة. المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠.

^(٢) فى هذه الأثناء صدر لى :

١- حوار المشرق والمغرب مع الصديق محمد عابد الجابرى، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٠، مدبولى ١٩٩١.

٢- مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١.

٣- الإسلام فى العصر الحديث (جزءان) الأول "الدين والأيدىولوجية والتنمية"، والثانى، "التراث والثورة والثقافة"، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٩٥ (بالانجليزية).

٤- هموم الفكر والوطن (جزءان) ، الأول "التراث والحداثة والعصر"، والثانى "الفكر العربى المعاصر"، دار قباء للطباعة، القاهرة ١٩٩٨.

٥- حوار الأجيال، القاهرة، دار قباء للطباعة، القاهرة ١٩٩٨.

المدرسة المصرية بعد أن كبت حركة الإصلاح جيلا وراء جيل، من الأفغانى إلى محمد عبده بسبب فشل الثورة العربية، ومن محمد عبده إلى رشيد رضا بسبب نجاح الثورة الكمالية فى ١٩٢٣ وإلغاء الخلافة، ومن رشيد رضا إلى حسن البنا واعتياله فى ١٩٤٩ والصدام بين الإخوان والثورة فى ١٩٥٤ وتحول سيد قطب من "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" و "معركة الإسلام والرأسمالية" و "السلام العالمى والإسلام" إلى "معالم فى الطريق"، وانتهاء الحركة الاصلاحية إلى الحركات الاسلامية المعاصرة مثل جماعة الجهاد وكتابات محمد عبد السلام فرج وعمر عبد الرحمن، وضعف الإسلام المستنير وعدم قدرته على تكوين تيار مستقل أو جناح ليبرالى فى حركة الإخوان المسلمين بالرغم من وجود بعض الأقسام المتميزة وعلى ما بينها من تنوع واختلاف^(١).

وقد يكون هذا آخر عهذى بالكتابات الشعبية بعد أن تضخمت على حساب كتاباتى العلمية. وقد أزمعت، وأرجو أن تساعد الظروف، ظروف مصر والعالم العربى، على أن أخصص مابقى من عمر لاتمام باقى أجزاء مشروع "التراث والتجديد" بجبهاته الثلاث. وأرجو أن تكون دار قباء للطباعة والنشر خير ختام لتعدد الناشرين ويسر التعامل معهم.

حسن حنفى

مدينة نصر، نوفمبر ١٩٩٧

(١) مثل د. كمال أبو المجد، د. محمد أحمد خلف الله، د. محمد عمارة، المنشار طارق البشرى، الاستاذ فهمى هويدى، د. محمد سليم العوا، والمجموعة المؤسمة لحزب الوسط (تحت التأسيس) وغيرهم داخل مصر وخارجها فى تونس ولبنان وشبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا والاردن، خاصة مجموعة "المسلم المعاصر" ومجموعة ٢١/١٥، حساعة الإسلاميين التقدميين فى تونس.

الفصل الأول

الموضوع والمنهج

١- دلالة الأفغانى

جمال الدين الأفغانى هو رائد الحركة الإصلاحية، وباعث النهضة الإسلامية كما هو مسطور على شأهده فى كابول. وهو أول من صاغ المشروع الإصلاحى الحديث فى النصف الثانى من القرن الماضى، الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل. وبفضل تعاليمه اندلعت الثورة العربية وعبرت بلسان عربى أمام الخديوى توفيق فى ساحة قصر عابدين "أن الله خلقنا أحراراً ولم يخلقنا عقاراً، والله لا نورث بعد اليوم". وهو رافع شعار "مصر للمصريين"، فكان الأب الروحى للحزب الوطنى المصرى والأذى كتب برنامجه تلميذه محمد عبده. وهو وأول من صاغ مفاهيم الوحدة فى العصر الحديث وبورثتها مصر، الدولة - القاعدة. مصر وجنوبها، مصر والسودان، وحدة وادى النيل. مصر وغربها، وحدة المغرب العربى. مصر وشمالها، وحدة مصر وسوريا، مصر والشام. مصر وشرقها، وحدة مصر وشبه الجزيرة العربية. مصر ومحيطها، الوحدة العربية. مصر وجذاتها الشرقى فى الجامعة الشرقية. مصر كعبة الإسلام ومنازة الأزهر الشريف فى الوحدة الإسلامية الشاملة. ولما أعادت الصحوة الإسلامية الحالية للإسلام حيويته من جديد، وأعادت الحركة الإصلاحية، الإسلام الثورى، فعاليتها فى المقاومة الإسلامية فى فلسطين وجنوب لبنان وأفغانستان قبل أن تتحول المقاومة الأفغانية ضد الاحتلال السوفيتى إلى حرب أهلية ومقاومة البوسنة والهرسك العدوان الصربى ظهرت دلالة الأفغانى فى ذكراه المائوية الأولى، لحاقاً به بعد أن كانت النتائج تتناقض مع المقدمات، وأصبح الجيل السادس من الاصلاحيين على طرف نقيض من جيل الرواد الأوائل، وبعد أن كان يطويه النسيان لأنه لم يعد موضوع اهتمام فى عصر الاستقطاب فى الخطاب السياسى

الحالى بين السافيين والعلمانيين، صراعاً على السلطة وليس تأسيساً للفكر حتى انقسمت الأمة إلى فريقين متقاتلين متخاصمين، يتبادلان تهم التكفير والتخوين، والعدو يحاصر من على الأبواب، ويحكم الحصار يوماً وراء يوم.

من الأفغانى تبدأ كبة الإصلاح. فبعد أن أسس حركة إسلامية ثورية لتحرير العالم الإسلامى وتوحيد به شعار بسيط وواضح، الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والآخر فى الداخل وانتشرت تعاليمه عند بعض رجال الدين وضباط الجيش والأدباء والمفكرين المهاجرين من الشام اندلعت الثورة العربية فى مصر للمطالبة بالحرية والدستور والمساواة بين الوطنيين والأجانب. واستمرت روحها عند عبد الله النديم. خطيب الثورة، متخفياً عشرات السنين^(١).

ولما فشلت الثورة العربية واحتلت مصر، ونفى عرابى ورفاقه إلى سرنديب فى المحيط الهندى ارتد تلميذه محمد عبده، وندم على اشتراكه فى هوجة عرابى وفتنة العربيين^(٢). ونفى إلى بيروت استاذاً فى جمعية المقاصد الإسلامية معززاً مكرماً. فقد كان صديقاً للورد كرومر. وأثر محمد عبده التحول من السياسة إلى التربية، ومن الثورة السياسية إلى التغيير الاجتماعى، ومن النفس القصير إلى النفس الطويل ابتداء من إصلاح اللغة العربية والمحاكم الشرعية والتحول بالوقائع المصرية من ثبت للقوانين إلى مقالات نقدية إصلاحية. ومع ذلك قامت ثورة ١٩١٩ بفضل تلميذه مثل سعد زغلول، وبدأت حركة تحرير المرأة المصرية بفضل قاسم أمين، وبداية الليبرالية السياسية بفضل على عبد الرزاق، والنقد الجديد بفضل طه حسين والعودة إلى التراث الفيلسفى بفضل مصطفى عبد الرزاق.

(١) انظر دراستنا : كبة الإصلاح فى "دراسات فلسفية"، الانحلو مصر القاهرة ١٩٨٧ ص ١٧٧-١٩٠.

(٢) يقول الأفغانى عن محمد عبده "ثم كان ما كان من الثورة العربية فبذل جهده فى اقتناع أهلها بسوء عاقبتها حتى هموا كثيراً بقتله "العروة الوثقى"، باريس ١٢ مارس ١٨٨٤-١٩ أكتوبر ١٨٨٤، حزنه فى محله واحد، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٤ ص ١٠٠.

ولما قامت الثورة الكمالية في تركيا، وانتصرت القومية الطورانية على الجامعة الإسلامية، وحزب الاتحاد والترقي على حزب الاصلاحيين، وتركيا الفتاة على الخلافة حدث رد فعلي سلفى عند رشيد رضا تلميذ محمد عبده خوفاً من تكرار التجربة التركية في باقى أرجاء العالم الاسلامى. فدافع عن الامامة أو الخلافة العظمى ضد العلمانية التركية، ودافع عن الوحي المحمدى ضد العقلانية العلمية الغربية، وحاجج الاسلام ضد شبهات النصارى . فارتدت الحركة الاصلاحية مرة ثانية من السلفية المجاهدة عند الأفغانى إلى السلفية المحافظة عند محمد بن عبد الوهاب الذى رده إلى ابن تيمية الذى رده بدوره إلى أحمد بن حنبل باسم النص. وتحولت الدولة - القاعدة من مصر إلى السعودية، ومن الدستور والبرلمان إلى القبلة والاسرة.

ولما أراد حسن الننا تلميذ رشيد رضا فى دار العلوم العودة إلى تعاليم الرائد الأول، الإسلام المجاهد، وتحقيق حلمه لتأسيس حزب اسلامى ثورى يقوم بتحقيق الأيديولوجية الاسلامية الثورية أسس "الإخوان المسلمين" فى الإسماعيلية وعلى ضفاف القناة وأمام جنود الاحتلال الإنجليزى فى الشرقية، وقيادتها فى التل الكبير. وأصبحت الجماعة بعد الوفد أكبر تنظيم سياسى شعبى فى الاربعينات قبل الثورة المصرية وبعدها بسنين. ولما اغتيل حسن البنا فى ١٩٤٩ وبداية تكوين التنظيم السرى، وبعد تصادم بين قيادة الإخوان والضباط الأحرار فى ١٩٥٤ واستشهاد بعض قياداتهم ونزول الإخوان تحت الأرض وتعذيبهم فى السجون نشأ جيل جديد منهم رافض غاضب. يود الانتقام من المجتمع والثأر من النظم العلمانية الليبرالية والقومية والماركسية خاصة بعد أن تحول سيد قطب فى السجن وتحت أهوال التعذيب من "العدالة الاجتماعية فى الاسلام" و"معركة الاسلام والرأسمالية" و"السلام العالمى والإسلام" إلى "معالم فى الطريق" الذى يكفر المجتمع ويقسمه إلى إيمان وكفر، اسلام وجاهلية، إيمان وطاغوت. ويدعو إلى حاكمية الله ضد حاكمية البشر تحت تأثير المودودى وكأنهما متناقضان. ولا علاقة بين الاثنين إلا بقضاء

أدّهما على الآخر. ولا يقضى على الكفر والجاهلية والطاغوت إلا جيل قرآنى فريد تحت شعار "لا إله إلا الله". فارتدت الحركة الإصلاحية مرة ثالثة لتكوّن جيل الجماعات الإسلامية الحالية. تمارس العنف، وتحمل السلاح، وتكفر حتى الخارجين عليها. فالحق المطلق لا يقبل المساومة أو الحوار^(١).

وإلى الأفغانى تعود الفعالية للحركة الإسلامية المعاصرة فى أفغانستان أثناء حرب الاستقلال ضد الغزو السوفيتى قبل أن تتحول إلى حرب أهلية بين الفرق، كل منها يظن أنه الفرقة الناجية، وفى البوسنة والهرسك بالرغم من عجز المسلمين على مدى ثلاث سنوات وانتظار القطب الأوحى فى العالم لإنهاء الصراع على حساب المسلمين، وفى لبنان وفلسطين ضد الاحتلال الإسرائيلى دون استئارة الأفغانى وإبرار اليته ودعوته إلى حرية الفكر والنظم البرلمانية والدستور. فقد بعدت المسافة بين ليبرالية القرن الماضى وأوائل القرن، منذ ثورة ١٨٨٢ حتى ثورة ١٩١٩ وبين هذا الجيل بعد أن قضت الثورات العربية الأخيرة منذ أوائل الخمسينات على النظم الليبرالية العربية، وغابت عن النظم الملكية الوراثية التى ترسخت بعد انحسار المد الثورى العربى، وبالرغم من أشكال الديمقراطية فى مجالس الشورى والشعب والأمة والبرلمان والتعددية الحزبية فى بعض الأنظمة.

ويبدو أن طول اضطهاد الحركة الإسلامية واستبعادها من العمل الوطنى على مدى نصف قرن حولها إلى حركة مناهضة تقابل الإقصاء بالإقصاء، والرفض بالرفض، والاستبعاد بالاستبعاد، وتواجه العنف بالعنف، والسلاح بالسلاح. لا تفرق بين العدو الخارجى، الاستعمار والصهيونية، وبين العدو الداخلى، الملكية والعسكرية. ولا تفرق بين المرحلتين التاريخيتين، مرحلة التحرر الوطنى ضد الاستعمار، ومرحلة التحرر الاجتماعى ضد التخلف وبعد استقلال الدول. بل يعطى النبض الأولوية للنضال ضد الداخلى على النضال ضد الخارج ولتحرير الأنظمة

^(١) انظر دراستنا "أثر أبى الأعلى المودودى على الجماعات الدينية المعاصرة" و "أثر الإمام الشهيد سيد قطب على الحركات الدينية المعاصرة" فى "الدين والثورة فى مصر" جـ د "الحركات الإسلامية المعاصرة"، مذبولى، القاهرة ١٩٨٩ ص ١٢٣-١٦٦ ص ١٦٧-٣٠٠.

العربية من الطاعوت على تحرير فلسطين من الاستعمار الاستيطاني. إذ ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، في حين أن القرآن أيضاً أعطى الأولوية للنضال ضد الخارج على النضال ضد الداخل، ﴿أشداء على الكفار، رحماء بينهم﴾، وجاعلين الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، والجهاد الأصغر هو الجهاد ضد العدو الخارجي بالرغم من تحذير الاخوان الأوائل من سوء تأويل الأحاديث وعدم التيقن من صحتها لخطورتها على الجهاد ضد الاستعمار والصهيونية.^(١)

وتظهر دلالة الأفغانى فى عصر الاستقطاب بين خطابين سائدين فى الفكر العربى المعاصر، الخطاب السلفى الذى يعرف كيف يقول ولا يعرف ماذا يقول، والخطاب العلمانى الذى يعرف ماذا يقول ولا يعرف كيف يقول. إذ يقدم الأفغانى الخطاب الثالث الذى يعرف كيف يقول ويعرف ماذا يقول. وهو الخطاب الذى حاول "اليسار الإسلامى" إعادة صياغته فى أوائل الثمانينات فى بداية الاستقطاب. أما وأن الاستقطاب تحول إلى حرب أهلية فى الجزائر وراقه الدماء بالآلاف، دماء الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ والشباب، وأصبح يهدد تركيا بالنزاع بين الجيش وحزب رافاه، ويثير القلاقل فى مصر واليمن والخليج وليبيا ودرجة الكبت فى سوريا والعراق والمغرب وتونس فقد أصبحت دلالة الخطاب الثالث عند الأفغانى، الإسلام الوطنى أو الإسلام الثورى أو الإسلام السياسى، ملحة للغاية فى الداخل والخارج، وفى عصر التحول من قرن مضى إلى قرن آت.

وظهرت محاولات لتشويه صورة الأفغانى فى جيلنا من أجل قطع جذور نضالنا الوطنى والقضاء على الإسلام الثورى إبقاء للاستقطاب بين الإسلام السلفى والثورة العلمانية الغربية، والفتور من الأول والاعجاب بالثانية، وحتى يبقى الباحث وحده مثالا للوطنية ورافعاً شعار "مصر للمصريين" بمضمونه العلمانى وليس الإسلامى الوطنى وربما بمضمونه القبطى ودرءاً لمخاطر الثورة الإسلامية فى إيران التى أصبحت محط جذب للشعوب العربية الإسلامية. فالتائر لا يكون إلا غربياً. والإسلامى لا يكون إلا متخلفاً. فكل شئ سىء فى الأفغانى حتى الوطنية

^(١) حسن البناء، سيد قطب، أبو الأعلى المودودي: الجهاد فى سبيل الله، دار الجهاد، دار الاعتصام،

والمعاداة للاستعمار ودعوته للجامعة الشرقية في مواجهة الغرب. فالباحث قبطي والمبحوث اسلامي، والباحث علماني والمبحوث ديني، والباحث غربي والمبحوث شرقي^(١).

وقد استمدت هذه الصورة من أرشيف المخابرات البريطانية، وكان صورة الأفغانى أصدق في ملفات الأعداء منها في كتابات الأفغانى وتلاميذه، وفي كتب الاستشراق المعادية للحركة الإسلامية المعاصرة دفاعاً عن الغرب وقيمه التي كانت موضع نقد من الأفغانى. فتقارير المخابرات مثل تقارير المباحث العامة عن الوطنيين لتسويهم لايجاد ذريعة للقبض عليهم وتعذيبهم. قالوطني اراهبي، والاشتراكي شيوعي، والليبرالي اباحي^(٢). وقد قيل عن الأفغانى :

١- إيراني وليس افغانياً وكان الجنسية عنصر حاسم في حياته ورسالته وآرائه. وهو الذى حارب الجنسية كرابط بين الجماعة وكعامل توحيد بين الأقطام. وهو الذى رد على رينان في الربط بين الثقافة والعرق ونظريته العنصرية التي راجت في القرن الماضي، تفوق العقلية الآرية الغربية في مقابل انحطاط العقلية السامية الشرقية. فالتركيز على الجنسية انقطاعاً من الحاضر على الماضي، ومن الباحث على المبحوث، ومن الدولة الوطنية المعاصرة على عصر الخلافة. ويتحول الحديث عن الجنس إلى حديث بيولوجي عرقي عن صلاح الوجه ولون البشرة وفصيلة الدم في ثقافة ساوت بين الشعوب، وجعلت لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

(١) لويس عوض : الايراني الغامض، مجلة التضامن ابتداء من ٨٣/٤/٢٦ على عشر حلقات أسبوعياً.

(٢) وذلك مثل : أ- ابراج افشاره، اصغر مهدوى : وثائق غير منشورة تصل بالسيد جمال الدين الأفغانى (بالفرنسية) طهران ١٩٦٣.

ب- البرت قدس زاده : تراث السيد جمال الدين الأفغانى في مصر (رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة انديانا ١٩٦٤).

ج - هوما باكرمان : جمال الدين الأسد أبادى الملفت بالأفغانى (بالفرنسية، باريس ١٩٦٩).

د - ايلي كلدورى : الأفغانى ومحمد عبده، لندن ١٩٦٦.

هـ نيكى كيدى : السيد جمال الدين الأفغانى، كاليفورنيا ١٩٧٢.

٢- طائفي شيعي، ادعى أنه من أهل السنة للوصول إلى قلوب الأغلبية من المسلمين. بل إنه بابي بهائي من فرقتين شيعيتين معاصرتين أخرجهما المسلمون من الأمة لادعاء الباب وبهاء الله النبوة، استثمرا للنزاع التقليدي الموروث بين السنة والشيعة. والأفغانى نفسه يدعو إلى وحدة الأمة وتجاوز هذا الخلاف التاريخي.

٣- إرهابى انقلابى، شارك فى عديد من المؤامرات والانقلابات السياسية فى افغانستان، مؤيدا فريقا ضد فريق، بل أخا ضد أخيه. دبر اغتيال الخديوى إسماعيل على كوبرى قصر النيل. وهو الاتهام الذى يلقي عادة على كل الثوريين من الأنظمة الرجعية التسلطية أو نظم الاحتلال مثل اتهام المقاومة الفلسطينية المشروعة ضد الاحتلال الصهيونى بالارهاب. الارهاب أفعال فردية أو جماعية محاصرة لا تجد من يساندها. فى حين أن الثورة حركات شعبية بدليل اندلاع كثير من الثورات فى العالم الإسلامى بفضل تعاليمه. الثورة العربية فى مصر، والثورة المهدية فى السودان. وقد قامت الانقلابات الحديثة بفضل الجيوش فى البلاد النامية بتثوير مجتمعاتها فى الخمسينات والستينات وكما حدث فى الثورات العربية الأخيرة. كما نجحت الثورة الإسلامية فى إيران ضد إرهاب الشاه والسافاك. ومع ذلك فالأفغانى من كبار المدافعين عن النظم البرلمانية والتعددية الحزبية والدستور والملكيات المقيدة حتى أصبحت الليبرالية الغربية نمطاً للتحديث فى الحركة الإصلاحية لا فرق بينها وبين الأبرالية السياسية عند الطهطاوى وخير الدين التونسي أو العلمانية عند شبلى شميل وفرح انطون وسلامة موسى وزكى نجيب محمود. وقد ظهرت تيارات إخوانية تعود إلى هذا النموذج الليبرالى فى الأردن واليمن والكويت وحزب الوسط (تحت التأسيس) فى مصر.

٤- استبدادى تسلطى نازى، ينتقل من استبداد إلى استبداد حتى ولو قال بالمستبد العادل. فالمستبد لا يكون عادلا والعاقل لا يكون مستبداً. والحقيقة أن المستبد

العدل تعبير عن تجربة النهضة في عصره وإعجابه بمحمد على وبنهضة اليابان وبسمارك في ألمانيا. ويعتمد في ذلك على حكم شرعي قديم باجتماع صفتي القوة والعدل في الإمام، وألوية الأولى على الثانية في حالة التعارض لأن الحاكم القوي ضروري للدفاع عن البلاد، ويستطيع العالم أن ينبيهه على ضرورة مراعاة العدل ومقاومة الظلم.

٥- متأمر ومناور، يتفق مع رياض في استانبول ويخطط معه. يتأمر على عزل إسماعيل، وتفضيل عباس حلمي. يقيم محاور ضد محاور، ضد تركيا ومع الخلافة، وضد الخلافة العثمانية ومع الخلافة القرشية. أنشأ العروة الوثقى دفاعاً عن الخلافة، واختفت رسالة التأسيس التي أرسلها له السلطان لهذه الغاية. كما ادعى باحث آخر من نفس الملية اختفاء رسالة خطيرة من محمد عبده إلى تولستوى. لو ظهرت لكشفت النقاب وبان المستور .

٦- انتهزى متلون، لا يثبت على حال، وله ظهر وبطن، ولا ينتمي إلى مذهب سياسي. يشك كل الحكام في ولائه بعد أن يتقوا فيه. وهي صفة السياسي أكثر منها صفة المفكر. لا يعنى ذلك أنه ضحى بالفكر من أجل السياسة أو تنازل عن النظر من أجل العمل بل يكشف عن القدرة على تجميع المذاهب والفرق تحقيقاً لوحدة المسلمين. ويعترف الأفغانى نفسه بذلك ويكشف عن صورته في ذهن الناس. إذ يقول عن نفسه بالنثر الفارسي: الإنجليز يعتقدون أنى روسى، والمسلمون يظنون أنى مجوسى، والسنة يحسبون أنى رافضى، والشيعه يخالون أنى نصيبى (أعداء على)، وبعض أصحاب الرفاق الأربعة يعتقدون أنى وهابى، وبعض اتباع الأئمة يتوهمون أنى بابى، والمؤمنون بالله يظنون أنى مادى، والانتقياء يتصورون أنى خاطيء مجرد من التقوى، والعلماء يعدوننى جهولاً، والمؤمنون يظنون أنى كافر. لا الكافر يدعونى إليه ولا السلم يعدنى من ذويه. منفى من المسجد، منبوذ من المعبد. وفي نفس الوقت له صورة أخرى: عالم دينى قوى الإيمان، مفكر حر، متفلسف ملحد. وهي نفس صورة كل مفكر من

هذا النوع يحاول أن يلم الشمل، ويجمع بين فرق الأمة، ويوحد الخطاب الوطني. فهو عند السلفيين، شيوعى متخفى، وعند الشيوعيين، سلفى متخفى، وعند الدولة، إخوانى شيوعى.

٧- عميل سوفيتى، يعمل لحساب القيصر. وهى نفس التهمة التى قيلت على عبد الناصر فى عصر الاستقطاب، بل وعلى كل الزعماء الوطنيين فى العالم الثالث فى عصر التحرر الوطنى. بل وقيلت على لينين إنه عميل لألمانيا. والأفغانى هو الذى أراد توحيد الشرق فى مواجهة الغرب. وتتداخل لديه الوحدة الإسلامية مع الجامعة الشرقية. وقد استأنفها السلطان جاليف وهوشى منه. وكانت أكبر ملهم لربط مصر بالشرق منذ حافظ إبراهيم "أنا تاج العلاء فى مفرق الشرق" والصحافة المصرية مثل "مرآة الشرق" حتى "كوكب الشرق" و"ريح الشرق" عند نيدهام وأنور عبد الملك.

٨- ما سونى يهودى، انضم إلى عديد من المحافل الماسونية، وكان من زعمائها، مادام يريد السيطرة على العالم مثلها. ويهودى صهيونى بالرغم من أنه توفى فى نفس العام الذى عقد فيه المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل بزعامة هرتزل. صديق يعقوب صنوع مع أنه صديق أيضاً لنصارى الشام المهاجرين مثل سليم الضمورى، وسليم النقاش، ولويس صابونجى وشبلى شميل، وأديب اسحق أقرب تلاميذه إلى قلبه، ولم يتهم بأنه نصرانى، . ويكشف هذا الاتهام عن طائفية بغضه من الباحث وإسقاطها على المبحوث، وينبه على صداقته للشوام إقلاقاً من مصريته فى ثقافة لا تقوم على القومية وإدى مفكر يسعى إلى وحدة الأمة بداية بين مصر والشام.

٩- طموح شخصى، يريد أن يكون رئيس جمهورية، سياسى متطلع يحقق أحلامه. وهو الذى رفض تتويجه على السودان. وهو الذى كان مطارداً من كل نظام حتى استقر به المقام فى باريس ينشر "العروة الوثقى". وعادة ما يتهم كل زعيم وطنى بأنه يعمل لصالحه وليس للوطن مما يدفع بعض الزعماء للتوحيد بينهم وبين الأوطان كما فعل ديجول فى عبارته الشهيرة "أنا فرنسا".

١٠- مثالي لم يع الواقع القطري. حماسى خطابي، لم يترك فكراً سياسياً نظرياً منظماً. والحقيقة أن هذه الصورة قراءة للحاضر فى الماضى. فقد كان عصر الأفغانى مازال عصر الخلافة بالرغم من محاولات الأقطار الانفصال بعد ضعف مركز الخلافة. فكان دفاع الأفغانى عن وحدة الأمة حماية لها من الاستعمار الذى يتوحد للقضاء عليها بعد تفتيتها. فلا فرق بين الاستعمار الانكليزى والروسى والفرنسى. والخطاب العربى المعاصر مازال على هذا المستوى من التنظير لأنه خطاب جماهيرى اختارته النخبة من أجل النضال الوطنى وليس خطاباً نظرياً فى مجتمعات مستقرة بلغت شأواً من التعليم وقطعت مع تراثها الماضى. وهو نفس نوع الخطاب فى الثورة الفرنسية، والثورة الإمبريكية والثورة الروسية مع اختلاف فى الدرجة وليس فى النوع.

هذا التشويه المتعمد لصورة الأفغانى هو فى الحقيقة قضاء على جذور النضال الوطنى فى وقت تشد فيه الحاجة إلى التمسك بها حرصاً على وحدة الوطن وكرامته. وهو حكم مسبق عليه له دوافعه غير العلمية. لم يترك له حسنة واحدة مثل عداؤه للاستعمار وللاستبداد وتثويره للمسلمين وتوحيده للقوى الثورية. يشق على القلوب لمعرفة ولأنها وهو ما قد ينطبق على الباحث أيضاً. يسقط التصور القومى على مسيرة حياته، من المرحلة الأفغانية إلى المرحلة التركية إلى المرحلة المصرية، والأخيرة هى أكبر المراحل لhezها وانتزاعها من الشعور الوطنى^(١). يحول الفكر إلى تاريخ. والمفكر إلى رحلته من أجل القضاء على استقلال الفكر وقدرته على التأثير مادام وليد الظروف، وانطباعات رحالة. ويقيم فكره من سلوكه الشخصى لسهولة رفض الفكر عن طريق الحجة ضد الشخص. بل إن الدهرية التى ارتبطت بأحمد خان عميل الانجليز أصبحت مجرد غنوصية من تراث الشرق القديم دون أن يكون لها مغزى سياسى. وتتم السخرية من فلسفته فى التاريخ، نهوض الأمم ثم سقوطها ثم نهوضها من جديد، ومن محاضراته عن النبوة والصناعة مع أنها من تراث الفلاسفة القدماء خاصة الفارابى وابن سينا. وينضم إلى موقف الخصوم الذين

^(١) تستغرق المرحلتان الأفغانية والتركية خمس حلقات، والمرحلة المصرية وحدها خمس حلقات أخرى.

اتهموا الأفغانى بالاحاد ولانكاره النبوة وتشبيهها بالصناعة، وقسمته الناس إلى خاصة وعامة، وتقريبه بين النبى والفيلسوف. والباحث تقدمى علمانى، لايرى التقدمية والعلمانية إلا فى التراث الغربى دون جذورهما فى التراث الفلسفى القديم.

٢- السيرة والشخصية

كتابة الأفغانى فى ثلاث فقرات أسيرته الذاتية ذات دلالة كبيرة. يذكر فيها تاريخ ميلاده، وهو غير ذى نفع كبير. وعاش نصف عصر أو نصف قرن. ولايهم التاريخ. إنما الذى يهم الشخصية فى عصرها. اضطرالى مغادرة بلاده الأفغان، ومن ثم يعترف بأنه أفغانى وليس إيرانياً بالرغم من عدم أهمية السلالة البيولوجية فى البشر. بك الهند إلى مصر ثم إلى الآستانة، وكل هذه الرحلات غير مفيدة للناس، مجرد خاطرات. والسجن رياضة فى طلب الحق، والنفى سياحة، والقتل شهادة. وهو غير راض عن نفسه لخموله وعدم وصوله إلى مرتبة الشهداء، بل وصل فقط إلى مرتبة السجن والنفى. ومن ثم لم يقم بمهته الأولى وبالعمل الجليل المنأبط به مع أنه لم يترك عملاً جليلاً للنوع الإنسانى، عامة وللشرقين خاصة إلا اقتحمه إلى حد الخروج من الاعتدال إلى التهور^(١).

لايهم إذن مسقط رأسه فذلك تصور قومى، ابن هذا القرن ولم يكن فى القرن الماضى فى العالم الإسلامى. لم تكن هناك حدود قومية بين افغانستان وإيران. ولكنه ولد بالقرب من كابل، ومسقط رأسه بلاد الأفغان. أقام فى الهند وإيران وفى

^(١) رأى نفع لمن يذكر أنى ولدت سنة ١٢٥٤هـ، وعمرت أكثر من نصف عصر. واضطرت إلى ترك بلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض. وأكرمت على مبارحة الهند، واجبرت على الابتعاد عن مصر أو أن شئت قل نيت منها ومن الآستانة ومن أكثر عواصم الأرض. كل هذه الأحوال خاطرات لا تسرنى، وليس فيها أدنى فائدة للقوم". جمال الدين الأفغانى الأعمال الكاملة، اعداد د. محمد عمارة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣٣-٥٣٨ وأيضاً، خاطرات جمال الدين الأفغانى جمعها محمد المخزومى باشاء، دار الحقيقة، بيروت ١٩٨٠ ص ١٦-١٨.

مصر وتركيا ثم في باريس. تعدد المقام والشخصية واحدة، والفكر متصل. هو شرقي في مقابل الغرب. يحمل معه هموم الشرق

نعمت ونحن مختلفون داراً .: ولكن كلنا في الهم شرق^(١)

وقد كتب محمد المخزومي مقدمة قصيرة عن حياته مما اختبره بنفسه ودون الاعتماد على ما سبق كتابته من آخرين، لافرق بين حياته وشخصيته، بين فكره وملامحه. كما أبدى جرجي زيدان صاحب الهلال، وكان من محبيه، رغبته في كتابة سيرته الذاتية مع أن العادة كتابتها بعد وفاة صاحبها. لذلك أرسلها المخزومي إليه بعد وفاة الأفغاني، ونُشر جزء منها في "الهلال". ولما أبدى المخزومي هذه الرغبة إلى جمال الدين قال "العيان لإحتياج إلى ترجمان". يكفى ما قاله الآخرون عنه، "سرى"، "سرى" أى متشرد تائه في الأرض. وهي صورته لدى خصومه وحساده بعد إقبال السلطان عبد الحميد عليه.

كان صحيح العقيدة، مؤمناً بالالوهية، شديد التمسك بحكمة الدين. ومع ذلك كان نفوراً من التعصب ومن التقليد في المذهب، مجتهداً لدرجة الغرابة والخروج على المألوف في التفسير. كان قوى الذاكرة، سريع الحفظ، بطيء النسيان. يذكر خطاباً ارتجله أو مقالاً أملاه أو كتاباً ألفه منذ سنين. كان قوى الحجة يجذب مخاطبه إليه ويرضخ لبرهانه ولولم يكن ساطعاً. له أسلوبه الخاص في المقدمات التي تتولد عنها مقدمات أخرى بالطبع. يتعذر اقناعه جدلاً لأسلوبه الخاص في إبطال الحجة عليه أو التخلص منها دون مكابرة. يعطى خصمه الحق بعد أن يفحمه، ويذله على ما أغفل من حجج وهو حاد الذهن لا يخلو من حدة في المزاج، يحمل من خاطبه على العظائم ويذل له الصعاب.

وهو عظيم النفس، كبير الهمة، شجاع جرىء. يقدم حيث يحجم الناس. ويتكلم حين يسكتون رغبة أو رهبة، سريع بمبادئه الذنوية. كان مهاباً أكثر منه محبوباً. وفي نفس الوقت كان متواضعاً مع من أقل منه، متكبراً على الملوك

(١) خاطرات ص ٦.

والعظماء لحد التجبر. لم يكن مغترا بنفسه، مستخفا بمن يخاطبه بألقاب دولتكم أو سماحتكم أو يمدح فكره وحكمته وخطابته واحتقار الموت. كان عرضه بهذه الصفات الوصول إلى طمأنينة القلب بأنه قال الحق ولم يكتمه. يذكر المسلمين لأنهم العنصر الغالب في الشرق وملة ممالكه. فالشرق لفظ يدل على الأمة الإسلامية. أراد إيقاظ الشرقيين وتبنيهم وتقريبهم. وفي نفس الوقت محب لخير البشر، يساوى بينهم جميعاً في الحقوق العمومية التي تقوم على الحرية العاقلة^(١).

وأفضل من كتب سيرته تلميذه محمد عبده كما كتب الجوزجاني سيرة أستاذه ابن سينا. كتب بعضها، ونسى البعض الآخر، وكتب جزءاً لأسباب سياسية. ولد في قرية سعد أباد عام ١٨٣٩ وانتقل مع أبيه إلى كابول. تعلم في سن الثامنة. واعتنى به والده لما رأى فيه قوة الفطره والعزيمة وذكاء العقل. برع في علوم العربية والتاريخ والشرعية والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والكلام والتصوف. كما برع في بعض العلوم العقلية مثل المنطق والسياسة والاقتصاد والعلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجبر والفلك، والطب والتشريح. فجمع بين الحكمتين .

ويبرز محمد المخزومي باشا الذي رافقه في آخر سنوات حياته بالآستانة طفولته أنه ابن السيد صفر من أسرة أفغانية ينتسب إليها الترمذى المحدث، وترتقى إلى الحسين بن علي. نشأ في كثر من أعمال كابول، في بيت علم له احترامه لنسبه الشريف. وكانت للأسرة السيادة على بعض الأراضي الأفغانية. ثم سلبها الإمارة دوست محمد خان لذي نقل والد جمال الدين وبعض أعمامه إلى كابول.

تعلم بالطرق التقليدية. وأكمل تعليم المشايخ وهو في الثامنة عشرة. ثم سافر إلى الهند لمدة عام. فقد كانت موطن التعليم الإسلامي التقليدي وأحياناً الحديث، لاستكمال الدروس الرياضية الحديثة. ومنها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. فتعرف على عادات الأمم وأخلاق الشعوب لمدة عام آخر. ثم عاد إلى كابول موظفاً في حكومة دوست محمد خان. رافقه الأفغاني لفتح هراة التي كان يحكمها أحمد شاه

(١) المصدر السابق ص ١٥-١٨.

صهره وابن عمه. واشترك في الحصار إلى أن توفي الأمير وفتحت المدينة وتقلد أمارتها ولى عهده شير علي خان. وأشار عليه وزيره بالقبض على إخوته محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد آية. وانتصر الأفغانى لمحمد أعظم. وفرا سويا حتى عظم أمر الأمير وغلب على منافسيه. ثم تولى بعده محمد أعظم الذى عظم الأفغانى وجعله الوزير الأول ومستشارا له دون استبداد بالرأى حتى أغير صدره عليه. فأوسد الأمر إلى ابنائه الأحداث مما أدى إلى هزيمته. ترك بعدها الأفغانى إلى الأراضى الحجازية للحجج عن طريق الهند. وهناك استقبلته الحكومة الإنجليزية استقبالا حاراً. وبعد نشاطه فى الهند ضاقت به الحكومة الإنجليزية وأخرجته منها وقبل خروجه وجه نداءه الشهير إلى الهند بأنهم لو كانوا ذبابا لطن آذان بريطانيا، ولو كانوا سلحفاة لخاضوا البحر وأغرقوا جزيرة بريطانيا. ولم يجىء السلطان الغزنوى الهند باكيا يذرف الدمع بل فاتحا شاهرا السلاح^(١).

نفى من الهند إلى مصر وأقام بها أربعين يوماً تردد فيها على الجامع الأزهر. وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا اليه. وطلبوا منه قراءة شرح الأظهار فقرأ لهم منه بعضا فى بيته. كان مقامه اول مرة قصيرا فى مصر ولكن كان له أبلغ الأثر فى إنارة الأزهريين بالعلم الجديد والجرأة على شرح القدماء شرحاً عصرياً، وهو ما كان يبحث عنه طه حسين فيما بعد ولم يجده إلا فى الجامعة المصرية.

ثم سافر إلى الأسنانه، والتقى بالصدر الأعظم على باشا، وأقبل عليه الأتراك بزيه الأفغانى. وبعد ستة أشهر غين عضواً بمجلس المعارف مما أثار حفيظة شيخ الإسلام فى ذلك الوقت لآراء الأفغانى التى كانت تمس رزقه. فتأمر عليه بأن طلب إليه مدير دار الفنون أن يلقي خطابا للحث على الصناعات. فكتب الخطاب وعرضه على وزير المعارف وعلى مشير الضابطة وعلى بعض أعضاء مجلس المعارف فاستحسنوه. وقد قلم الخطاب على تشبيه المعيشة بيدن حى، وكل

(١) خاطرات من ٢٤

صناعة بعضو فى البدن. فالملك هو المخ مركز للتدبير، والإدارة والحدادة العضد، والزرعة الكبد، والملاحة الرجلان، وعلى هذا النحو يتألف جسم السعادة الإنسانية وهو التشبيه القديم الموروث من الفارابى وابن سينا. ولما كان لا جسم بلا روح فإن الروح هى الذبوة أو الحكمة. الأولى هبة الهية، والثانية كسب للبشر. الأولى يقين والثانية ظن. الأولى صادقة والثانية يعتريها الخطأ والصواب. الأولى واجبة الاتباع والثانية مندوبة من جهة الأولى والأفضل بشرط عدم مخالفتها للأمر الإلهى.

غضب شيخ الإسلام، واتهم الأفغانى بأنه يخير النبوة صنعة كعادة المزايدين فى الدين فى كل عصر، وأنه ذكر الذبوة فى معرض خطاب عن الصناعة. وأعطى توجيهاته إلى خطباء المساجد، هذا الجهاز الإعلامى الجاهز فى أيدي رجال الدين ورجال السياسة، بنقد الأفغانى والمطالبة بمقاضاته واتهامه بالكفر وإنكار ما علم من الدين بالضرورة. ووقعت الفتنة، وانقسم الناس فريقين، فريق معه وفريق ضده. وخشى الصدر الأعظم وطالب الأفغانى بمغادرة الآستانة كى تهدأ النفوس، معتذراً له عن أهل الجمود، وأنه كان يوده أن يجعله شيخ الإسلام. ومثل الأفغانى يناهض السلطتين الدينية والسياسية ويفضح تعاونهما الخفى والعلى.

ثم غادر الأفغانى الآستانة إلى مصر فى ١٨٨٧/٣/٢٢ سياحة فيها حتى لافى رياض باشا رجل الإصلاح فمال إليه. وانفتحت حوله طلبية العلم. وقرأ عليهم كتب الكلام والحكمة النظرية الطبيعية والعقلية والفلك مع أصول الفقه فى بيته وفى الأزهر يوم الجمعة. فذاعت أفكاره فى مصر. واستمر فى محاولاته للقضاء على الأوهام والدفاع عن العقول. نبغ تلاميذه وتأثروا به. واتسعت حلقاته. فحسده الحساد، وحقد عليه الحاقدون كما هو الحال فى كل عصر. واتهموه بقراءة الفلسفة التى حرمها المتأخرون بفتاوى ابن الصلاح. وشوهوا ما ينقلون عنه عن طريق أنصاف المتعلمين عن قصد.

تم تولى توفيق حكم مصر وأيده الأفغانى وجمع القلوب عليه. ولما كان الأفغانى ميالا بفطرته إلى السياسة فقد نظر فى أحوال مصر ورأى تزايد تدخل الأجانب فى شؤونها يوماً بعد يوم. فبدأ يفكر كيف تتغير الأحوال، بتأييد الحاكم الصالح أو بتقوير العقول أم بالفعل على إنشاء الجمعيات الإصلاحية وتنشيط ما هو موجود منها.

فانضم إلى الجمعية الماسونية، المحفل الأسكتلندى، وأصبح من رؤسائها دون أن يخفى ذلك. وبعد أن عايشها انتقدها، رداً على من قال إنها لا دخل لها بالسياسة، وأنه يخشى عليها من بطش الحكومة. وضاق المحفل بأرائه التى ينتقد فيها الخمول والخوف والجبن. وأنشأ محفلاً وطنياً تابعاً للشرق الفرنسى لتحويل الماسونية الغربية إلى حركة وطنية مصرية. وانضم إلى المحفل عدد بارز من المفكرين والمصلحين المصريين من تلاميذه ومريديه من العلماء والوجهاء. وقسمه إلى شعب. لشعبة لإنذار ناظر الجهادية لإنصاف الضباط المصريين الوطنيين الذين يعملون فى السودان أكثر مما تسمح به القوانين الخاصة بالتأليب بين المصريين والشراسة والمتصرين. وطالب بأن تكون أقصى مدة للضباط المصرى سنتين بعدها يستبدل المصرى بالضباط شركسى بدلا من مكوثه أربع سنوات دون استبدال أو استبدال مصرى آخر لا سند له من أمير أو شفاعاة من وزير. وشعبة أخرى لإنذار ناظر الحقانية، وثالثة للمالية ورابعة للأسعال وغيرها لباقى النظارات والمصالح الأميرية لإحقاق الحق وإقامة العدل مع الموظفين المصريين والمساواة فى الرواتب مع غير المصريين. وقامت الشعب بواجباتها خير قيام.

بلغ توفيق الأمر. وكان لا يبالى قبل ذلك بالماسونية. وجزع من تحويل الأفغانى لها إلى حركة وطنية مصرية. فتردد فى زيارة الأفغانى له. ثم استدعاه الخديوى وأخبره أنه يحب الخير لكل المصريين ويبغى تقدم مصر. ومع ذلك قد تضر أفكار الأفغانى الثورية الشعب المصرى لأنه مازال قاصرا عن فهمها كما هى العادة فى فرض وصايا الحكام على الشعوب. دافع الأفغانى عن شعب مصر

وأن من بينهم العقلاء والعلماء. وطالبه باشتراك الأمة فى حكم البلاد. فهذا اثبت للعرش. ولم يرض الخديوى بكلامه واضمر له الشر. واستأنف الأفغانى خطبه فى المحفل الماسونى لتعليم الجاهل واستنفار الخامل وحث المستمعين على الدفاع عن حقوق الشعب المهضومة. وكان فى مقدمتهم أديب اسحق، طراز العرب وزهرة الأدب كما كان يسميه الأفغانى، أقرب التلاميذ إلى قلبه وهو النصرانى، وكان يمسك بتلابيب محمد عبده صارخا فيه "والله انك لمثبط"، وهو المسلم.

وبدأت الحركة الوطنية فى مصر فى الظهور، وأخذت الحكومة حذرهما منها. تماطلها وتجاهلها وتتقرب إلى الشعب بالوعود بمجلس نيابى إذا ما حافظ على الهدوء. وطلب المصريون الاحرار من جمال الدين وضع خطة للمجلس النيابى^(١). وكانت تلك بداية لثورة العرباية، تحويل الماسونية إلى حركة سياسية وليست صوفية، وإلى حركة وطنية وليست غريبة. وتحول الأفغانى من مصلح الأمراء والوزراء والقادة والنخبة إلى ققيه الأمة ومثوّر الشعب. انتشرت أفكاره بين الوطنيين المصريين، وذاع نقده لسياسة بريطانيا. فترجمت إلى الإنجليزية ونشرت فى جرائد إنجلترا، وأثارت جدلا واسعا شارك فيه جلاستون. ولما اشتدت خطورة المحفل تدخل قنصل إنجلترا عن طريق أعينه فى الحفل، وأخاف الخديوى من خطورته. فأصدر أمراً بإخراجه من مصر عام ١٨٧٩ وترحيله إلى الهند. وقابله فى السويس بعض تلاميذه وقنصل إيران، وعرضوا عليه بعض المال قرفض قائلا "أنتم إلى هذا المال أحوج، والليث لايعدم فريسة حيثما ذهب". وأقام بحيدر أباد. وفيها كتب رسالته فى الرد على الدهريين. وأجبرته حكومة الهند على عدم مغادرتها والبقاء فى كلكتا حتى انتهاء الثورة العرباية. بعدها سمحت له بالمغادرة إلى أوروبا، لمدة أيام فى لندن ثم بعدها فى باريس. وأقام بها ثلاث سنوات، ولحق به محمد عبده.

وكانت تألفت فى مصر جمعية من الفضلاء، جمعية العروة الوثقى. وكلفته أن ينشئ جريدة تدعو إلى الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة. فكلف محمد عبده بتحريرها. ونشر منها ثمانية عشر عددا قبل أن تتوقف. صودرت فى الهند.

(١) مصر والحكم النيابى، الأعمال الكاملة ص ٤٧٣-٤٧٤.

ووضعت تحت الرقابة في مصر بأمر من نوبار الأرمني. وصدر قرار من مجلس
النظار بمنع دخول الجريدة الأراضى المصرية. ويُغرم كل من توجد لديه نسخة
منها من خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين جنيهاً. ويبرئ الأفغانى نظار مصر
والخديوى من اصدار هذا الحكم سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، مصريين
أو شرقيين لأنها تدافع عن المصريين وجميع الشرقيين، وتدعوهم إلى نبذ التنازع
بينهم، وترتيب البيت من الداخل قبل الخارج. كانت مهمة الجريدة مناهضة سياسة
بريطانيا. وكانت الشرطة الإنجليزية في الهند تستدعى المشتبه فيه بقراءة الجريدة
وتمتحنه في أية الجهاد أو في حديث فيه. فإن لم يشأ الرد وأخبر أنه صوفى
درويش معتزلى أمهل أربعة أيام لتحديد رأيه. فإذا أثبتها نفى نفياً مؤبداً إلى جزيرة
اندومان حتى امتلأت بالعلماء.

ثم اندلعت ثورة المهدي في السودان، وزاد تدخل الانجليز في مصر بحجة
قمع ثورة السودان. فحذر الأفغانى جلاستون من سوء مصير غوردون. واستمر
في الكتابة في موضوع السودان فحذر بريطانيا كاشفاً دسائسها. حتى استدعيه
سالزبورى وتشرشل إلى لندن لسؤاله عن رأيه في المهدي. فأوضح لهما خطأ
سياسة إنجلترا نحو الإسلام ومصر والشرق. واقترحوا عليه تتويجه سلطاناً على
السودان لاستئصال ثورة المهدي وتحقيق أهداف بريطانيا. فرفض لأن بريطانيا
تعطى مالا تملك لمن لا يستحق كما فعل بلفور في وعده إلى وايزمان بلشاء دولة
فلسطين. فمصر للمصريين والسودان متم لها. وصاحب الحق فيها الخليفة.
والأولى ببريطانيا اصلاح إيرلندا. فأعجب به الايرلنديون الاحرار. ثم عاد إلى
فرنسا. واستمرت بريطانيا في مصادرة "العروة الوثقى". وأقام في باريس لكثير
من ثلاث سنوات. نشر في المجلة عدة مقالات عن ^{سأ}سات روسيا وإنجلترا ودولة
إخلافة في مصر. وأجرى حواراً مع الفيلسوف الفرنسى رينان في لعلم والإسلام
وحقيقة القرآن والمعجزات. وشهد له رينان بصحة العلم وقوة الحجة. ورجع عن
كثير من آرائه في الاسلام والقرآن والحضارة والعمران، وأرجع تخلف المسلمين
وتأخرهم إلى جمود رجال الدين.

ثم استدعاه ناصر الدين شاه الفرس إلى طهران. فغادر باريس والتقى في أصفهان بالأمير الذي عظمه وقدمه إلى طهران، وعهد له بنظارة الحربية مع لقب مستشار خاص للشاه. حاول الأفغانى تغيير كل قديم. ونصح الشاه بالتدرج وعدم التسرع. ثم خاف الشاه من شعبيته وخشى على سلطانه. فتنكر له. فاستأذنه جمال الدين فى السفر إلى روسيا. ونال هناك الاحترام والتقدير لما عرفوه عنه من أنه كان وزيراً أولاً فى عهد الأمير محمد أعظم خان، ونشره مقالات عن سياسة الأفغان والفرس والدولة العلية والروسية والانجليزية ونفوره من سياسة الانجليز فى الشرق. ولما سأله القيصر عن سبب اختلافه مع الشاه وأجابه الحكومة الشورية. فأيد قيصر روسيا شاه إيران وأمر بإخراجه من روسيا. فجال فى أوروبا، لندن وغيرها من العواصم مع كل إجلال وتقدير فى أى مكان حل به، ناقدا استبداد الشاه، ومؤيدا لأحرار إيران للانقلاب على حكم الطغيان دون تدخل الإنجليز. ثم تصادف وجود الأفغانى فى معرض باريس عام ١٨٨٩ فالتقى بالشاه فى ميونخ، واعتذر له الشاه، وطلب منه العودة إلى طهران. فرجع معه لتنظيم الدولة. فسن لها قانونا تكون به الحكومة ملكية شورية. ثم أوغر صدر الشاه عليه من جديد، وخشى من تقلص سلطانه. فذهب الأفغانى إلى قرية بالقرب من طهران. وتابعه العلماء. ولما عظم أمره قبض عليه الشاه وأخرجته الشرطة إلى البصرة وهو مريض. فقامت ثورة فى إيران من مريديه أخمدها الشاه. ثم قتله رجل من أهل فارس بطعنه ثارا لجمال الدين^(١).

وبعد أن غادر إلى لندن تلقى دعوة من السلطان عبد الحميد لزيارة الآستانة. وبعد إلحاح شديد قبل جمال الدين الدعوة وذهب إليها آخر عام ١٨٩٢ وليس عليه إلا جبة واحدة، وكتب فى رأسه لكثرة نفيه من مكان إلى مكان. واستمر فى نقد استبداد السلطان ناصر الدين الذى رجا السلطان عبد الحميد التدخل لدى جمال الدين لوقف الحملة عليه. ولما عاتبه أحد المناققين أنه يلعب بالسبحة فى حضرة السلطان رد عليه بأن السلطان يلعب بمقدرات الملايين دون اعتراض أحد. فعظمه السلطان عبد الحميد بالرغم من الدسائس. ولما طلب جمال الدين زيادة راتب أحد المصريين بالآستانة وعد السلطان ولم يفعل، فطلب جمال الدين الإذن بمقابلية السلطان وقد

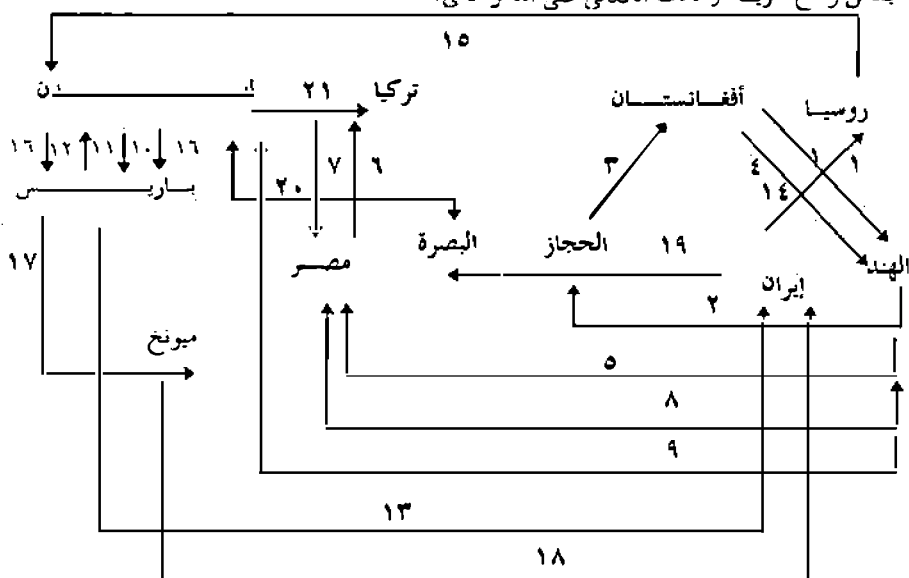
(١) خاطرات ص ٤٥ - ٥٠

جرت العادة استقدام السلطان له. ودخل عليه جمال الدين عبوسا والسلطان بشوشاً، وطلب خلع البيعة له. فاستعجب السلطان، وحقق وعده، واعتذر لجمال الدين. وناولوه الحاجب عند خروجه كيساً ودنانير فرفض. ولما كانت هبة السلطان لا ترد فوزعها على طلاب العلم وأهل الفضل والأدب المعوزين. واستمرت العلاقة بين جمال الدين والسلطان بالرغم من دسائس الأمراء والحساد. فطالب جمال الدين بتخليص الحاشية من الخونة الدساسين. فعظم السلطان جمال الدين، وتذكر جده محمود وقت أن كان الفساد في الأنكشارية. وقد عم الآن الفساد في البلاط كله. ولا لكن المسؤولية تقع على جمال الدين الذي اعتذر عن قبول المشيخة لاصلاحها. ولا حل الآن إلا بحدوث أمر عظيم في أوروبا يشغلها عن السلطان وتعطيه الفرصة لاصلاح الدولة. وقد اعتذر جمال الدين لأن وظيفة العالم مجرد الوعظ والإرشاد والتعليم. وقد مكث أربعة أعوام يعلم ويحذر حتى أصيب بسرطان في فكه الأسفل. وأجريت له ثلاث جراحات لم تنجح. فتوفي في ١٨٩٧/٣/٩^(١).

وبالإضافة إلى رحلاته التي تجعل من الأفغاني رجل نظر وعمل، فكر وممارسة، هناك أيضاً صفاته ومذهبه، وآماله ومقاصده، ومناقبه وأخلاقه، ومنزلته من العلم التي تحدد معالم شخصيته^(٢).

(١) المصدر السابق ص ٥٤-٥٨

(٢) يمكن وضع خريطة لرحلات الأفغاني على النحو الآتي.



فمن صفاته وملامحه أنه عربى، قمحى اللون، عظيم الرأس، عريض الجبهة، واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخمة الوجنة، رطب الصدر، جليل النظرة، مسترسل الشعر، يجذب إليه كل من يراه بهذه الملامح الأخاذة حتى قبل أن يتكلم.

وهو حنفى المذهب غير مقلد، سنى العقيدة مع ميل إلى التصوف، حريص على الفرائض، حمى الدين. آماله ومقاصده إنهاء دولة الإسلام من ضعفها كى تلحق بالأمم الراقية، وحل العقول من الأوهام، وتوحيد الشرق كى يستعيد مجده، ومناهضة سياسة بريطانيا فى الشرق، وبث الحياة فى الناس بعيدا عن الخمول والكسل. ومن مناقبه احتفاؤه بزائريه، ونهوضه للاستقبال والوداع، وزيارة الصغير والكبير. لا يتكلم إلا لفصحى، ولا يتحدث بالعامية إلا مع العامى. يوضح مقصده كى يؤصل فكره للناس. يخطب دون أن يمزح كثيراً. وهو رزين كتوم زاهد فى الدنيا، لا مطالب له فى زوج أو ولد أو منصب أو جاه. لذلك لم يتزوج ولم يتقلد وظيفة ثابتة.

ومن أخلاقه سلامة القلب، حرية الضمير، صدق الحجة، عفة النفس، رقة الجانب. وهو وديع حلیم. فإذا مس كرامته أحد انقلب إلى غضب. يعتمد على الله وحده دون مبالاة لأى شخص آخر. وهو عظيم الأمانة، سهل مع من يلين له، صعب على من يستغلظ عليه. لديه قدر عظيم من العلوم مع بعض التسرع والعجلة للوصول إلى مقاصده. وهو قليل الحرص على الدنيا، لا يغتر بزخرفها، مشغول بعظائم الأمور، ويعرض عن صغائرها. وهو ثابت الجأش، شجاع. لا يهاب الموت، حاد المزاج لدرجة التهور، فخور بنسبه الشريف دون ترفع. قد يكون فى أخلاقه بعض التناقض. فهو كريم إلى حد الإسراف، بخيل إلى حد التقشیر، متواضع لدرجة الذل، متكبر لدرجة التجبر، كتوم جهور. وهو التناقض الموجود فى شخصية كل عظيم.^(١)

^(١) المصدر السابق ص ٥٩-٦٧.

أما علمه فإنه خال من اللغو أو اللهو، غزير المعارف، دقيق المعاني، قادر على حل المعضلات بنظرة شاملة ليوضحها، إدخالاً للجزء في الكل. وهو متخصص في كل شيء، واسع الأفق، خصب الخيال، قوى الحجة، شديد الجدل. ما خاصم أحداً إلا انتصر عليه. وهو قوى الذهن، نافذ البصيرة، حى الذاكرة. وهو واسع الاطلاع في العلوم العقلية والنقلية والفلسفة القديمة والتمدن الإسلامي، عليم بأحوال المسلمين وظروف عصرهم. يعرف اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية التى تعلمها فى ثلاثة أشهر مع إمام باللغتين الإنجليزية والروسية.

وقد رد الأفغانى على منتقديه بأن حكمته فى لسانه أكثر مما هى فى قلبه بأن كل مسلم مريض ودواؤه القرآن، وعلى طالب الحكمة تدبر معانيه. وهى حجة تقليدية سلفية. وكان محمد حكيماً، حكمته من قلبه. فكيف يرفضها مرضى القلب وساقطو الهمم وأهل الذل؟ وهى حجة خطابية اتهامية كما يفعل الخطيب يوم الجمعة. فهل المسلمون اليوم عاملون بما جاء به الرسول أو مقتدون به كما اقتدى الصحابة؟ وهى حجة خطابية أخرى تقوم على الاقتداء بالرسول والاهتداء بالسلف الصالح كما يفعل الوعاظ. بنس الخلف نحن ونعم السلف السلف. يخشى من إدراك ذله خوفاً من نزعه فيرجع إلى القول البارد والرأى السفية.^(١)

لذلك كان جهورياً، يسرع بذهنه، يجهر بالرأى حتى ولو كان فيه خطر وضرر. يحسن الجدل والحجاج. كان من أكبر علماء الكلام. فعرف أنواع السفسطة لدرجة الاقناع فى حالتى السلب والإيجاب وتأثيره فى مخاطبه وحمل الخامل على العظائم والجبان على الجسارة. وساعده على ذلك حكمته وسرعة الخاطر وتوقد الذكاء، وسعة الاختبار لأخلاق البشر، وكثرة مخالطة الأمم، وحصوله على ملكة الخطابة واحاطته بأخلاق العرب والترك والفرس والأوروبيين. يغالى فى المدح ولا يسترسل فى الذم. ويستعمل الصور الجدائية للمدح والذم مثل الهر والكلب.

^(١) المصدر السابق ص ٧٥-٧٦ ص ٩٥-١٠٠ ص ٦٣-٦٤، الأعمال الكاملة ص ٥٣٥-٥٣٦.

اختلف الناس في أمره وتباعد صوره في الأذهان مع أنه شخص واحد يتميز بصفاء الجوهر وذكاء المخبر. وصفه أديب اسحق بأنه قد تمر بالناس الأيام حتى يظهر عالم يعبر عن حاجات الناس أو يكشف أسرار الطبيعة في كل عصر. مثال ذلك جمال الدين، فيلسوفاً، سياسياً مثل سقراط. لم يؤلف إلا رسالة، ولكنه باق بمردييه. يجلس في الأماكن العامة ويحولها إلى مراكز علم وحلقات درس حتى حسده فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس.

٣- قراءة الأعمال

تتنوع أعمال الأفغانى بين الرسائل، والخطرات، والمقالات. الرسائل هي الأعمال التي كتبها الأفغانى بنفسه. وهو لم يكتب إلا رسالة واحدة شهيرة هي "الرد على الدهريين" أثناء مقامه بالهند للمرة الثانية. كتبها بالفارسية ثم ترجمها محمد عبده إلى العربية بمساعدة أبي تراب، تابع الأفغانى وصديقه. كانت حياة الأفغانى وتقلته من بلد إلى آخر لا تسمح له بالاستقرار والكتابة المنظمة. كما أن طبعه الشفاهى يجعله أشبه بحكماء الشرق وأنبياؤه، بوذا، المسيح، سقراط. كتبها عام ١٨٨٠. وعمره واحد وأربعون عاماً. والغاية منها إبطال مذهب الدهريين وإثبات أن الدين أساس المدنية، والكفر فساد العمران^(١).

والخطرات هو الاسم الذي فضله الأفغانى لمجموعة أقواله المتناثرة التي جمعها المخزومى منه في سنواته الأربع الأخيرة في الأستانة بين ١٨٩٢-١٨٩٧ وهو ملازم له. فهي حديث موجه إلى شيخ بنى مخزوم. كان المخزومى قد سماها "جمال الدين الأفغانى في البلاط السلطاني". ولكن الأفغانى رفض هذه التسمية لأنها لا تطابق المضمون وفضل لفظ "خطرات" كما هو الحال في "خطرات بسكال" و"فيض الخاطر" لأحمد أمين. وهو لفظ أفضل من لفظ "خواطر" الأكثر شهرة. ويعنى هواجس النفس، السوانح، اللوامع والهوامع بتعبير الصوفية، ما يطرأ على النفس وما ينشغل به القلب بعيداً عن التصورات الذهنية الكلامية الفلسفية وبعيداً عن

(١) خطرات ص ٧ ص ٤٠٤، الأعمال الكاملة ص ٥٣٨.

التاريخ الميت. لا يهتم دعاة الآسان الأجوف الذين ليس لديهم جملة تمس شغاف القلوب. وهى من جوامع الكلم، نوع أدبى، جمل مختصرة، وأمثال حكيمة، معروف عند القدماء. ألف فيه المبشرين فاتك^(١). تحفظ وتدون ويضرب بها المثل كالحكم والأمثال العامة. وكان السبب فى اختيار هذا النوع الأدبى يحمى صاحبه من اضطهاد السلاطين، ويحميه من شدة المراقبة وكثرة الجواسيس والافتراء على الأبرياء.

وسبب نشره أن الأفغانى استقدم من انجلترا إلى الآستانة ولم يكن له من الآثار المطبوعة أو غير المطبوعة نظراً لانشغاله بالمقاومة لكل صنوف القهر ومناهضة الحكام وتحمل جورهم فى سبيل نهضة الشرق دفاعاً عن الحرية والعدل. فلازمه المخزومى ، وأبدى رغبته فى التدوين. ووافق عليها الأفغانى أخيراً. وسمح له بالسؤال عما يريد "اكتب ما تسمع واحفظ ماتراه" مع التحذير من خطر النشر ومخاطر الطاغية وجواسيس عبد الحميد وعناد أهل الجمود وقلوبهم للحقائق. فهم فى كل زمان ومكان سبب هلاك الناس حتى يظهر الحق من أناس آخرين ناقدين باحثين. قالبحت التاريخى قادر على إجلاء الحقيقة.

تأخر الكتاب، فى النشر ما يقرب من ثلث قرن. كان يمكن نشره بعد صدور الدستور العثمانى، بناء على طلب العلماء فى مصر والهند ولكن حال الأحزاب فى الشرق ينطبق أيضاً على جمعية الاتحاد والترقى أى الإهمال. ثم تكرر الطاب مرة أخرى للنشر عام ١٩١٢ ولكن انقلب الجو السياسى، وتثمر الاتحاديون مع أن الأفغانى لا يهاجم الأشخاص أو المؤسسات أو يدعو إلى قلب نظم الحكم بل ينقد الأوضاع. ولما اندلعت الحرب الأوروبية الأولى قطع الحلفاء تركيا إلى دويلات فتم تأجيل النشر.^(٢)

وبالرغم من أعجوبة الأفغانى ومرونته فى الالتزام بقواعد اللغة إلا أن العروبة هى الآسان وليست العرق حتى لقد قال الفيروزبادى "خذوا لغتكم من

^(١) المبشرين فاتك: جوامع الحكم ومحاسن الكلام، تحقيق عبد الرحمن بدوى، النهضة المصرية، القاهرة

١٩٥٨.

^(٢) المخاطرات ص ١٤.

أعجمي" (١). وما يعيها فقط أنها بطبيعتها موضوعات متفرقة غير مرتبة، وأجوبة على أسئلة كما هو الحال في الفقه القديم في أحكام السؤال والجواب. وهنا تبرز صعوبة التبويب المستقل لها عن باقي موضوعات الأغاني في مقالاته في العروة الوثقى أو حتى في رسالته في الرد على الدهريين. يمكن دراسة أشكالها الأدبية في إطار آداب الشرق القديمة. ويمكن دراسة مضامينها الأخلاقية والاجتماعية والسياسية وإعادة ترتيبها داخل موضوعاتها كتأكيد على وضوح الفكر وبلاغة التعبير.

وصعوبة العروة الوثقى أنها تمثل روح الأغاني وصياغة محمد عبده كما هو الحال في محاورات أفلاطون، روح سقراط وصياغة أفلاطون، وكما هو الحال في الأنجيل، روح المسيح وصياغات كتاب الانجيل. ومع ذلك جرت العادة على نسبتها إلى الأغاني. فالروح أقرب إلى الفكر، والصياغة مجرد ألفاظ وعبارات، بالرغم من الصلة الوثيقة بين المعاني والألفاظ. صدر منها ثمانية عشر عدداً ابتداء من ١٣/٣/١٩٨٤ حتى ١٦/١٠/١٩٨٤ على مدى سبعة أشهر من عام واحد بعد الثورة العربية بما يقرب من عامين. أصدرها بناء على تكليف من جمعية "العروة الوثقى" لانشاء جريده تدعو المسلمين إلى الوحدة تحت لواء الخلافة.

أنواعها الأدبية متعددة، بين المقال والخبر والتحليل السياسي والفن الأدبي، مثل العجوبة والأسطورة والغريبة.... إلخ. وأهمها المقال الذي يتراوح بين العرض النظري وهو المقال الفكري الإصلاحى الذى يُعزى أحياناً إلى محمد عبده، والخطبة الإنسانية الحماسية الموجهة مباشرة إلى الجمهور للحث على الثورة ضد إنجلترا في مصر والسودان والهند وأفغان. وغالباً ما يبدأ المقال بآية قرآنية بمفردها، وهو الأغلب أو بحديث نبوى وهو الأقل (٢). وأحياناً يبدأ بالآية القرآنية

(١) الأعمال الكاملة ص ٥٣٨.

(٢) أولاً : مقالات تضاف إلى عناوينها آيات قرآنية مثل :

- الأمل وطلب المجد : ﴿هو إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ : ﴿ومن يقنط من رحمة ربه

إلا الضالون﴾ الأعمال ص ٣٨٩-٣٩٤ العروة ج ١ ص ٢٩-٣٩.

- التعصب ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ الأعمال ص ٣٠٢.

- النصرانية والإسلام ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ الأعمال

ص ٢٨٢ العروة ج ١ ص ٨٦ =

دون عنوان للمقال وهو الأغلب أو مع عنوان فى عبارة أو فى مجرد لفظ واحد وهو الأكل وهذا يدل على منهج الأفغانى فى التفسير. فإنه يبدأ بالآية وهو الأغلب

- الحين ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ ، ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُنْفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَأِكُمْ﴾ الأعمال ص ٣٧١ العروة ج ٢ ص ٢١٦-٢٢٠.

- الرعدة الإسلامية ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسَازَعُوا فُتَلْسِلُوا فِي دُيُوتِكُمْ﴾ الأعمال ص ٣٤١ العروة ج ١ ص ٢٥١-٢٢٣.

ثانياً : مقالات عناوينها آيات قرآنية فقط مثل :

- ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ العروة ج ٢ ص ٢-١٠٩.

- ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ العروة ج ٢ ص ١١٠-١١٠.

- ﴿أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العروة ج ٢ ص ١٤.

- ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ العروة ج ٢ ص ١٦٨-١٦٨.

- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا فَمَا اتَّخَذُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العروة ج ٢ ص ١٧٢-١٧٢.

- ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لَأُولَى الْأَبْصَارِ﴾ العروة ج ٢ ص ١٤-١٤.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا يُقِيمُ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ، ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ لَمْ يَكْ مَغْيِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ﴾ العروة ج ٢ ص ١٨٨.

- ﴿أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُنْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ العروة ج ٢ ص ١٦٠-١٦٧.

ثالثاً : مقالات تجمع بين عنوان وعبارة وآية مثل :

رجال الدولة وبطانة الملك "كيف يحب أن يكونوا" ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُوكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ، قَدْ بَلَتَ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْشَى صُورَهُمْ أَكْبَرُ. قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الأعمال ص ٣٩٧ العروة ج ٢ ص ٤٠-٤٦.

رابعاً : مقالات تجمع بين العنوان والحديث مثل :

- الوحدة والسيادة "المؤمن للمؤمن كالبيان يشد بعضه بعضاً" الأعمال ص ٣٥٣ العروة ج ٢ ص ١٤-١٤.

خامساً : مقالات تجمع بين العنوان وعبارة دعاء أو شرط مثل :

- الدرر "اللهم اكشف عن بصائرنا ستر الأوهام حتى نرى الحقائق كما هي كيلا نضل ونشقى" الأعمال ص ٣٦٥.

- دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان "إذا أراد الله بقوم غيراً جمع كلمتهم"، الأعمال ص ٣١٦ العروة ج ٢ ص ١٢٤.

أو الحديث وهو الأقل، ويفسرها باللجوء إلى التجربة الفردية أو الجماعية ويحولها إلى قانون نفسى أو اجتماعى أو تاريخى وكأن الآية هى الواقع، وحكم الشرع هو قانون التاريخ. لا يستنبط معنى الآية من النص عن طريق قواعد اللغة العربية كما يفعل المفسرون بل يستقرئ التجارب والحوادث ليجد فى العالم الخارجى تصديقاً للآية كما هو الحال فى المنهج التجريدى المعروف. فالواقع خير تصديق للوحى. وبتعبير الأقدماء يتبع الأفغانى منهج التأويل وليس التزويل أى صعود المعانى من أسفل إلى أعلى وليس نزولها من أعلى إلى أسفل كما هو الحال عند الصوفية. وقد تم اختيار الآيات بعناية لأنها هى التى تصوغ قانوناً تاريخياً عاماً يمكن التحقق من صدقه فى الواقع. وهذا يتحول القرآن من قراءة إلى رؤية، ومن كلام إلى واقع، ومن عبارة إلى ثورة، ومن وحى إلى تاريخ.

وقد فصل الأفغانى منهج العروة الوثقى وأهداها على النحو الآتى :

١- خدمة الشرقيين، وبيان الواجبات التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق لتدارك مافات والاحتراس مما هو آت. فهى موجبة إلى الشرق، والإسلام جزء من ربح الشرق، والمسلمون جزء من الجامعة الشرقية، والخلافة جزء من جامعة شعوب الشرق.

٢- البحث فى الأسباب والعلل التى أدت إلى التفريط وبواعث الحيرة والتشابه والنتية والضلال. لذلك اتجهت العروة الوثقى إلى العلوم الاجتماعية وفلسفة التاريخ.

٣- كشف الغطاء عن أوهام المترفين، ونزع الوسواس من عقول المنعمين الذين ينسوا من الشفاء وظنوا أن زمان التدارك قد فات مما أدى إلى فتور الهمم، درءاً لروح اليأس وبتأ لروح الأمل.

٤- التمسك ببعض أصول الاسلاف الشرقيين للتمسك بالقوة لدفع الكوارث. وهو ما يتمسك به الأوروبيون. يلجأ الشرقيون إلى الأسلاف وليس إلى تقليد الغربيين، دفاعاً عن الأصالة ضد التغريب والاعتراب الثقافى.

٥- التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو السبيل للمحافظة على العلاقات والروابط السياسية والا ابتلاع القوى الضعيف احتراماً للجميع والمساواة الفطرية بين البشر ثم التعارف وتبادل الخبرات بين الشعوب طبقاً لتجارب كل منها وكسبها.

٦- درء تهمة تخلف المسلمين والشرقيين وأنهم غير قادرين على إلحاق بالمدينة ما داموا متمسكين بأصول الآباء وإمكانية الجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين القديم والجديد، وهو الدرس المستفاد من الاجتهاد.

٧- تقوية الصلات بين الأمم والألفة بين أفرادها، والدفاع عن المنافع المشتركة عامة، وحقوق الشرقيين خاصة تأكيداً لوحدة الجنس البشري والمقاصد الكلية للشريعة، وهى مقاصد الوحي.

٨- إرسالها مجاناً كي يتداولها الأمير. والحقير، الغنى والفقير، فهى نموذج للصحافة الملتزمة بالقضايا الوطنية وليست صحافة الإثارة أو التكبس بالرزايا والمصائب والفضائح^(١).

وتجمع العروة الوثقى بين المقال الفكرى والتحليل السياسى والوصف الإخبارى. فهى مجلة فكرية سياسية تجمع بين الفكر والواقع، بين الأيديولوجية والحزب، بين النظر والعمل. وتعلق على أخبار الجرائد الإنجليزية والفرنسية وعلى أقوال السياسيين وتصريحاتهم مثل غوردون وجراهام وجلادستون وبيكونسفيلد وغيرهم. وتعطى أخبار الحرب والمعارك، الدائرة بين الإنجليز من ناحية ومحمد

(١) الأعمال ص ٣٣ ٣٤ ويحمل الأفعانى هذه الأهداف بالفقرة الآتية : "فى هذه الوريقات، (العروة الوثقى) أمثلة تشهد وقضايا تصدق على الشرق وأهل مرادما فى تلك الغنلة وذلك الخفاق. رضوا بالخوف والذل. فالظام يتغير فى الشكل لا فى النتيجة. ويتغير المظلومون وأعمال الظلم واحدة. ولا تعبر إلا بقوة الأمة وإجماع الكلمة والصادقون السحابيون الناهضون فى سبيل الأوطان، وتحليص الأمم بإحد. والحركة الساقطون واحد بالرغم من اختلاف الأسماء بسنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تدليلاً".

أحمد وعثمان دجمة من ناحية أخرى. وتستدعى ذكريات التريخ مثل قتال الإنجليز للأمير عبد الله الوهابى على حدود الهند ومثل حملات فرنسا على الصين. المقالات أقل، والتحليلات والأخبار والتعليقات السياسية أكثر. كما تعطى معلومات مفيدة للمسلمين خاصة وللشرفيين عامة عن الاستعمار والغرب والإنجليز حتى تضيع هيبتهم ورهبتهم من النفوس. فقد أباح غوردون بيع الرقيق فى السودان وهو الآتى من الحضارة الغربية التى طالما دافعت عن حقوق الإنسان. كما استبعدت بريطانيا مصر من إدارة السودان، وطلبت من الميرغنى التدخل لدى عثمان دجمة لوقف جهاده ضد الإنجليز، وإعلان الحرب الدينية على إنجلترا واستنفار أوروبا وروسيا ضدها وكشف سياسة التلوى والمخادعة والنفاق التى تتبعها إنجلترا. وتقد المجلة تدخل الأجانب فى شؤون الدول الإسلامية، وتقد الجيش المصرى جنرال أجنبى، وتدخل بريطانيا فى شؤون مصر والدولة العثمانية. كما تساعد المجلة على تبديد وهم القوة البريطانية والعجز عن مقاومتها، ورفض اعتقاد السذج أن الله يؤيد المهدي بالملائكة المسومين. وقد ارتبط القراء بالمجلة وراسلوا مما دفع المجلة إلى التعليق على الرسائل وازدياد ارتباط الناس بها. فمنعت من دخول البلاد المصرية.

لقد عاش الأفغانى فى عصر بسمارك والوحدة الألمانية بالقوة وفى عصر الرومانسية الأوروبية. فانعكس ذلك على المجلة بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية بالخطاب الرومانسى لحشد الناس وأحياناً بالخطابة المباشرة وأحياناً أخرى بالتأمل النظرى، ومرة ثالثة بالتحليل الاجتماعى الطبيعى لأسباب انهيار الدولة الإسلامية. فجاءت تعبر عن عصرها وكل عصر مطحون بالتجزئة والاستعمار الجديد والرهبة من الغرب أو تقليده وفتور الناس وركونهم إلى الوهم والخمول^(١).

(١) ظهرت "اليسار الإسلامى" استئنافاً للعروة الوثقى فى ١٩٨٠ بعد أن أراد السادات سرقة الأضواء تمحاً بالإسلام ومساعداً أنه خاص الحلفاء الراشدين، فأصدر عدة أعداد من الجامعة العربية بعنوان "العروة الوثقى الجديدة".

وتعتمد هذه الدراسة عن الأفغانى فى ذكره المائوية الأولى على منهج القراءة وإعادة إنتاج النص ونقله من ظروف القرن الماضى إلى ظروف هذا القرن، تمثلاً للأفغانى وروح عمله. فلو أن الأفغانى بُعث الآن بعد مائة عام فأى مذهب يرد عليه، الدهريين أم غيرهم من الفرق؟ يكتب "الرد على الدهريين" أم "دفاعاً عن الدهريين؟" وأى خاطرات يمكن أن تجول فى ذهنه أو تعتمل فى نفسه وقد أخذت أمريكا مكان بريطانيا فى السيطرة على العالم، وأصبحت تركيا تهدد شمال العراق وسوريا بالتحالف مع إسرائيل وأمريكا ولم تعد دولة الخلافة ويهددها الشقاق بين الجيش الذى مازال يمثل الثورة الكمالية والحكومة التى تمثل حزب رفاه، التيار الإسلامى المعقول وريث تركيا الإسلامية؟ وماذا عن إسرائيل التى استولت على فلسطين، وتقوم بتهويد القدس أمام عجز العرب وتفككهم؟ وماذا عن حصار العراق وليبيا، فالعرب لم يعودوا أحراراً فى بلادهم؟ وماذا عن مخاطر تقطيع السودان وتهديد وحدتها من جيرانها بتدعيم الغرب وإسرائيل بعد أن كانت تمثل ثورة المهدي ضد الإنجليز، وتكون مع مصر وحدة وادى النيل؟ وهل انتهى مشروع الأفغانى الذى صاغه القرن الماضى: الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل؟ وماذا عن الغزو الصربى للبوسنة والهرسك، والسوفييتى للشيشان وقبلها لافغانستان، والهند واحتلالها كشمير، وتقسيم باكستان؟ وهل انتهت نظم القهر فى الداخل، والدول العربية نموذجاً محكومة أما بنظم عسكرية أو ملكية، أما من الجيش أو قريش، وكلاهما ليسا نظامين إسلاميين يقومان على أن الامامة عقد وبيعة واختيار؟ وهل انتهى تقليد الغرب أو جهل علماء المسلمين؟ وهل انتهت سلبية الجماهير وعجزها ولا مبالاة أم أنها ملزمت فى حاجة إلى أفغانى يبعث من جديد وإلى عروة وثقى جديدة؟ لذلك يقوم المنهج المنبع فى هذا الكتاب على عدة مستويات :

١- العرض والتحليل لنصوص الأفغانى كما هى عن طريق شرحها والتعبير عنها موضوعياً كما يفعل المبتدئون فى العلم وطلاب الدراسات العليا دون اجتهاد أو تأويل دون الوصول إلى حد التكرار الممل وتحصيل الحاصل الذى يسود الكتب الجامعية.

٢- المناقشة والحوار للأراء المعروضة في حد ذاتها وفي إطارها التاريخي وفي مستوى عصرها من أجل تعميقها وتفتيحها وتحريكها استعداداً لاعادة كتابتها وإنتاجها وصياغتها في ظروف أخرى جديدة حدثت بعد قرن من الزمان. وهو ما يفعله الطالب المجتهد الذي لا يكتفي بالعرض والتحليل بل يتجراً إلى المناقشة والحوار اعداداً له وتمريناً كي يتجاوز المادة العلمية إلى مادة علمية أخرى يضيفها. فهو جزء من العلم وليس خارجاً عنه، ذات وموضوع في آن واحد.

٣- إعادة كتابة نصوص الأفغاني بناء على الظروف الحالية، وكأن الباحث أصبح أفغانياً جديداً، وكان الأفغاني نفسه قد بعث من جديد بعد مائة عام، فيتحول العلم إلى عمل، ويستمر القصد الأول في التاريخ، ويكون الباحث جزءاً من حركته وليس متفرجاً عليه، مصوراً له في إحدى لحظاته الماضية.

وتتم الخطوة الثالثة على مراحل ثلاث :

أ- وضع النص في صياغته الأولى في إطاره التاريخي من أجل تفسيره ووصف التجارب الأولى التي نشأ فيها، والظروف التاريخية التي عاشها المؤلف من أجل معرفة كيفية انتاج النص الأول. ويكون الخطأ في إهدار سياق الصياغة الأولى أو تكرارها في سياق آخر مختلف والحكم عليها بالخطأ والصواب.

ب- إعادة كتابة النص في صياغة ثانية بناء على الظروف المتغيرة وبيان مدى الاتفاق والاختلاف مع التجارب الأولى، الاتفاق واستمرار الصياغة والاختلاف وإعادة كتابة النص. فعل القراءة هنا يتجاوز فعل التأويل إلى إعادة إنتاج النص من جديد. فلا توجد صياغة ثابتة والا قضى على الهدف من النص وهو تحريك الواقع. ولا يوجد للنص مؤلف واحد بل عدة مؤلفين : فالقاريء الثاني مؤلف مشارك، والمؤلف هو قاريء أول. المؤلف الأول يفهم من الواقع إلى النص والقاريء الثاني يفهم من النص إلى الواقع ثم يعيد الكتابة من الواقع إلى النص.

ج - لا يوجد خطأ وصواب في النص في صياغته الأولى إلا بقدر ما يعبر عن ظروفه التاريخية الأولى وبواعث مؤلفه الأول. لا توجد مرجعية خارجه، بعيدة

عن لغته وسياقه وبواعثه. ولا يوجد خطأ وصواب في الصياغة الثانية إلا بقدر
تغير. نشأة النص الأول ثم إعادة إنتاجه في ظروف مغايرة مع الإبقاء على
بواعثه ومقاصده وأهدافه التي تحدد مسار حركته. الثابت بين النص الأول
للمؤلف والنص الثاني للقارئ وربما الصياغات المستقبلية لقراء آخرين هو
روح النص، النص باعتباره مقاصد وغايات وبواعث فردية وجماعية وحركة
تاريخية وتراكم خبرات طويلة تكون الوعي التاريخي لحضارة وشعب.

والمنهج في كلتا الحالتين، مستويات التحليل الثلاثة أو في خطوات المنهج
الثلاث، إنما يعتمد على منهج واحد وهو تحليل الخبرات الشعورية الفردية
والجماعية. فالنص صياغة لغوية لتجربة شعورية في صياغته الأولى. وهو أيضاً
تجربة شعورية في الصياغة الثانية إذا كان الواقع التاريخي لم يتغير، الاستعمار
والقهر والتجزئة والتخلف والتغريب وسلبية الجماهير. هذه الوحدة المستمرة للتجربة
الشعورية في النص الأولى وفي إعادة إنتاجه هي إحدى الضمانات للفهم
الموضوعي للنص باللبس إلى مصدره في وحدة التجربة. كانت العروة الوثقى
تنزل على قلوب الناس كأنها "وحى سماوى أو إلهام إلهي" لقدرتها على التعبير عن
الواقع وكشفه وإيصاله للناس^(١). والخاطرات مازالت تنزل على قلوب الناس
طازجة بالرغم من انقضاء قرن عليها لأن التجربة المعاشة واحدة لم تتغير فيما
يتعلق بنجارب الاستعمار والقهر بصرف النظر عن مصدرهما، إنجلترا ثم أمريكا،
السلطان عبد الحميد ثم الأنظمة العربية الحالية، الجيش وقريش، وهذا ما سماه
الأصوليون القدماء خصوص السبب وعموم الحكم.

وبطبيعة الحال كان يغلب على فكر الأفغانى طابع الدفاع لأنه عاش في
سياق الهجوم على الاسلام من التبشير والاستشراق. فرد على رينان كما رد عليه
مصطفى عبد الرازق. ومازال هذا الطابع الدفاعي هو الغالب على الفكر الاسلامي
المعاصر، رد محمد عبده على فرح أنطون وترويجة للتجربة الغربية وتعميمه على

(١) العروة الوثقى ص ٨.

غيرها من تجارب الشعوب وثقافتاتها في "الإسلام والنصرانية بين العلم والمدينة"، وفي الرد على هانوتو، ورشيد رضا في "شبهات النصراني وحجج الإسلام"، وعند محمد فريد وجدي في "لماذا أنا مؤمن؟" رداً على إسماعيل أدهم "لماذا أنا ملحد؟"، وعند محمد الغزالي في، "من هنا نعلم" رداً على خالد محمد خالد في "من هنا نبدأ" ومحمد الغزالي أيضاً في "ظلام من الغرب" رداً على زكي نجيب محمود في "شروق من الغرب". وطالما أن الهجوم على الإسلام مازال مستمراً، ثروات وفكرراً وهوية وتاريخاً، فإن الدفاع عنه أيضاً من الإسلام التقليدي أحياناً ومن الإسلام المستنير أحياناً أخرى يظل مستمراً أيضاً حتى تخف حدة الجدل والسجال، ويبدأ العقل بالتحليل والبرهان. مازال الفكر الإسلامي المعاصر فكراً جدلياً كلامياً مع العصر ولكن في سياق تاريخي مغاير. ولكنه في النهاية أقرب إلى علم الكلام منه إلى الفلسفة. وإلى الجدل منه إلى البرهان. بل إن "الرد على الدهريين" كتب دفاعاً عن الإيمان ضد الملحدين الداعين لنبذ الأديان وحل عقود الإيمان^(١). غايته نقض مذاهب الطبيعيين وإرغام الضالين بتأييد عقائد المؤمنين. والحقيقة أن مقاييس العلم برهانية خالصة وليس الدفاع الجدلي عن ملامات الإيمان. يمكن تأويل الإيمان على نواح عدة حتى يتفق مع العلم أو يختلف معه. وفي هذه الحالة يكون العلم هو الثابت والإيمان هو المتغير، والعلم لا يدعى ثابتاً بل هو متغير في كل عصر، والإيمان يدعى ثابتاً وينكر التغير. والحقيقة أن كليهما متغير بتغير فهم البشر للعلم وللدين طبقاً لتصورات كل عصر. كما تغلب على فكر الأفغاني الدعوة السلفية، الرجوع إلى الماضي، إذ لا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها، وأن السلف خير من الخلف الذي أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات، وأن خير القرون قرن الرسول، وأن الخلافة ثلاثون سنة تتحول بعدها إلى ملك عضود. وهي الدعوة التي مازالت تتردد في الخطاب السلفي والتي تجعل النموذج أو القدوة في الماضي وكان للتاريخ نموذجاً ثابتاً في إحدى لحظات مساره. وهي الدعوة الرومانسية الموجودة في كثير من الحركات الإصلاحية في كل مكان مثل مارتن لوتر، ولانميه، وشاتوبريان. وذلك على عكس الدعوة إلى المستقبل، وأن الكمال قائم وليس ماضياً، وأن حركة التاريخ في صعود وليست في هبوط. وهي الروح التي عبر عنها رينان في "مستقبل العلم" ومحمد عبده ربما في الجزء الأخير من "رسالة التوحيد" عن تقدم

(١) الرد على الدهريين. الأعمال الكاملة ص ١٢٨.

الإسلام فى التاريخ بسرعة لم يشهد مثلها العالم من قبل، وأن الوحى ممكن الوقوع وكما هو الحال فى كل محاولات إنشاء فلسفة جديدة للتاريخ تضع شروط النهضة ولا تكتفى بوصف أسباب الانهيار كما فعل ابن خلدون، محاولات بدأها أديب إسحق تلميذ الأفغانى الأثير.

أما القول الخطابى فما زال يسيطر على الفكر الإسلامى المعاصر بالتناوب مع القول الجدلى، ويقل كثيراً القول البرهائى إلا فيما ندر. ومن الصعب تحويل الخطابة إلى تصورات، والحماسة إلى أفكار. فالمقصود منها الجماهير وليس العلماء، والمستمع جزء من مكونات الخطاب. فالخطاب رسالة من مرسل إلى رسول. والحركة الاجتماعية جزء من مكونات الخطاب أيضاً باعتباره بواعث ومقاصد وليس مجرد الحقائق النظرية. لذلك يستعمل الأفغانى كثيراً أسلوب النداء وضمائر المخاطب مفرداً أو جمعاً^(١).

قد يظهر الأسلوب الخطابى والقول الانفعالى أحياناً فى هذه الدراسة أسوة بالموضوع، ومشاركة فى الهم والقصد. فليس المطلوب باسم العلم إيقاف حركة التاريخ أو عزل الخطاب عن الجماهير وإلا كان ادعاء مقصوداً وخطابة سلطان. وهو خطاب فى النهاية كان منبره الصحافة. فالصحافة عند الأفغانى منبر الفكر، عمل شريف. ويعترف بأنه صحفى، له جريدة فى باريس^(٢).

وبالرغم من أن تقسيم أعمال الأفغانى على الجبهات الثلاث وارد: الموقف من التراث القديم وضرورة إعادة بنائه، والتحول من السلب إلى الإيجاب مثل إعادة تفسير القضاء والقدر، والموقف من التراث الغربى خاصة السلبى منه مثل الدهرية أى المادية، مذهب الطبائعيين، دارون وسبنسر وبشنر، ويضع الأفغانى معهم السوسياليست والنهيليست فولتيروروسو، واتجاهات الغرب، والاستعمار، والتأمر والتعصب والجنس، والموقف من الواقع المباشر للأمة، الاستعمار والقهر والتفكك والفقر والتقليد للغرب واللامبالاه إلا أن الأولوية كانت لمادة الأفغانى نفسه، فكره

(١) مثل "يا قوم، وأسفاه" الأعمال ص ٥٣٥ - ٥٣٦.

(٢) "الصحافة عمل شريف، وأنا صحفى. وكان لى فى باريس جريدة أكتب فيها" الأعمال ص ٣٢٧.

النظري في الرد على الدهريين وهو ما يعادل التوحيد، وإعادة تفسيره للقضاء والقدر على أنه حرية وهو ما يعادل العدل، ورأيه في العلم وصلته بالعمل وهو ما يعادل العقل والنقل ثم الفضيلة كما تتجلى في الأخلاق الفردية والاجتماعية وهو ما يعادل الإيمان والعمل. وهنا يبدو الأفغانى متكلماً في جبهة التراث القديم، ثم يأتى التقابل بين الأنا والآخر، والشرق والغرب، والمسألة الشرقية وهو ما يعادل الموقف من الآخر. ثم يأتى، مصر والمصريون، والوحدة الإسلامية، وأسباب تخلف المسلمين، وهو ما يعادل الموقف من الواقع، والمساهمة في حركة التاريخ.

قد يكون نص ناقصاً هنا أو هناك أو تحليل تنقصه الدقة أو دراسة ثانوية ناقصة من هنا أو من هناك. ولكن الأهم هو إعادة انتاج الأفغانى بعد قرن من الزمان في ذكراه المئوية الأولى^(١).

^(١) بالإضافة إلى الطبعتين السابقتين لأعمال الأفغانى التى قام بهما د. محمد عمارة، الأولى، فى الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٦٨ والثانية فى المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩ صدرت طبعة ثالثة فى باريس قام بها على شلش بالفرنسية لم نطلع عليها. وتضمن بعض مقالاته بالفرنسية التى لم تجمع من قبل فى الطبعتين السابقتين. ومازالت أعمال الأفغانى فى حاجة إلى طبعة علمية جديدة نقدية وموثقة لا تقوم فقط على إعادة طبع ما طبع من قبل. أما الدراسات الثانوية فعديدة أهمها :

- ١- محمود قاسم : جمال الدين الأفغانى، حياته وفلسفته، الأنجلو المصرية، القاهرة (د.ت).
- ٢- عبد الرحمن الرفاعى : جمال الدين الأفغانى، باعث نهضة الشرق، دار الكاتب العربى، القاهرة ١٩٦١.
- ٣- محمود أبو رية : جمال الدين الأفغانى، مؤسسة نصار للتوزيع والنشر، القاهرة ١٩٥٨.
- ٤- أحمد أمين " زعماء الإصلاح، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٨.
- ٥- داني المرعشلى : جمال الدين الأفغانى وقضايا المجتمع الإسلامى. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.
- ٦- لطف الله خان : جمال الدين الأسد أبادى المعروف بالأفغانى، ترجمة د. محمد عبد النعيم حنين. دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٧٣.



الفصل الثاني

الفكر النظري (الرد على الدهريين) (التوحيد)

١ - النقد النظري

"الرد على الدهريين" إجابة على سؤال من أحد القراء في الهمد عن معنى لفظ "تنتشر" السائد في الأقطار الهندية. فالسؤال محلي حول موضوع محلي وليس سؤالاً عن المذهب الطبيعي Naturalism الغربي. والسؤال طويل ومركب ومتعدد الجوانب، عن حقيقة المذهب الطبيعي كما شاع في الهند وعن الطبائعيين، وهل يمكن أن يكون المذهب عماد المدنية؟ وماقصده؟ وهل يناقض مقاصد أصول الدين أو يعارضها؟ وما علاقة هذا المذهب بمطلق الدين في عالم المدنية؟ وماذا كانت صورة المذهب قديماً؟ ومن هم دعاة الآن؟ ولماذا ينتشرون؟ وما الغاية من ذلك كله؟ (١)

والحقيقة أنه لما استقر الاستعمار في الهند شجع الإنجليز أحمد خان بهادر، وهو لقب تعظيمي في الهند، من صنيعتهم لخلق دين المسلمين، والتدين بمذهب الإنجليز. فألف كتاباً يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرّفين ولا مبدلين لارضاء الإنجليز. ثم قال بالمذهب الدهري. فلا وجود إلا للطبيعة العمياء دون إله حكيم. وجميع الأنبياء كانوا طبيعيين ومن ثم يمكن التخلص من الشرع وبالتالي من الجهاد، ودفع المسلمين إلى الشهوات والحياة الدنيا. وبنى الإنجليز له مدرسة عليكرة، مدرسة المحدثين لنشر الدعوة. فأوروبا لم تتقدم إلا بالمذهب الطبيعي. وقد كافأه الإنجليز بتعيين ابنه مولوي محمود عضواً في مجلس قرية من قرى الهند ليزيد حجمها على شبراخت في مصر. ووعدوا كل من اتبعوه بتعيينهم في وظائف الحكومة. وهو دجال آخر الزمان، يهدف إلى محو الإسلام في الهند.

(١) الرد على الدهريين، الأعمال ص ١٢٩.

فالدّهريون هم جيش الحكومة الإنجليزىة فى الهند. واستمر تلميذه الأول سميع الله خان فى تضليل المسلمين. وكان صديقاً للورد نورثروك الذى كان يعمل على تفتير المصريين من الدولة العثمانية^(١).

وقد كتب الكتاب بالهندية والفارسية. لاينقسم إلى فصول أو أبواب كما هو الحال فى التأليف الحديث بل إلى عدة مطالب غير مرقمة أو مرتبة وخاتمة للكتاب. تشمل عرضاً تاريخياً للمذهب وفرقه، وهو الجزء الأصغر ثم أربعة عشر مطلباً فى خطورته على الأديان والرد عليه، وهو الجزء الأكبر، أربعة أضعاف الجزء الأول وهو ما يتفق مع عنوان الكتاب^(٢).

(١) العروة الوثقى ص ٢ ص ١٤٠-١٤١.

(٢) الجزء الأول ١٢ صفحة والثانى ٩٠ صفحة.

والمطالب الأربعة عشر على النحو الآتى :

- ١- مطلب مظاهر الماديين ومقاصدهم ص ١٤٠-١٤١.
 - ٢- مطلب ما أفاد الدين فى العقائد والحال ص ١٤١-١٤٤.
 - ٣- مطلب فى الحصال الثلاث ص ١٤٥-١٤٨.
 - ٤- مطلب فى تفصيل غاية التشريع ص ١٤٩-١٥١.
 - ٥- مطلب فى مسالك التشريع فى طلب غاياتهم ص ١٥١-١٥٢.
 - ٦- مطلب فى ضرر مذاهب التشريع حتى يعقول من لا يأخذ فاصل بها إذا خالطهم ص ١٥٢-١٥٣.
 - ٧- مطلب فى بيان الأمم التى عذبت للذل وضربت للظيم بعد العزة والشرف ص ١٥٣-١٥٧.
 - ٨- مطلب فى الأمة الإسلامية ص ١٥٧-١٦٣.
 - ٩- مطلب فى السوسىالست (الاجتماعيون)، النهيلست (الغديميون)، الكومنيست (الاشتراكيون) ص ١٦٣-١٦٥.
 - ١٠- مطلب فى دهرى الشرقين ص ١٦٥.
 - ١١- مطلب فى الأمور التى يمكن بها إلزام النفس حدود العدل ص ١٦٦.
 - ١٢- مطلب فى مضار إنكار الأروية ص ١٦٧-١٧٣.
 - ١٣- مطلب فى أن الدين الإسلامى أعظم الأديان ص ١٧٣.
 - ١٤- مطلب فى الأمور التى تتم بها سعادة الأمم ص ١٧٣-١٧٩.
- وهناك ملخص لموضوعاتها فى الحاضرات ص ٤٠٧-٤١٠.

وهو مذهب ظهر في اليونان في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، يهدف في رأى الأفغانى إلى محو الأديان ووضع أسس الإباحة والاشتراك في الأموال والابضاع بين الناس. ففسدت الأخلاق وانهارت الأمم أى أنه قضى على الطبيعة والمجتمع. وفسدت المدنية، ونقضت الهيئة الاجتماعية الإنسانية. والدين هو أساس النظام الاجتماعى والتمدن. فالمذهب ضد الدين وضد أى تنظيم على أساس ديني^(١). فواضح من هذا التعريف أن العرض الموضوعى يشمل النقد بل يتجاوز النقد العرض الموضوعى. لا يتجاوز العرض نشأته التاريخية مكاناً وزماناً ثم بعد ذلك يبتلع النقد العرض. والنقد كله يقوم على أساس خطورته على الدين وقضائه عليه لأن الدين أساس المجتمع. فالمذهب يمحو الدين وبالتالي يقضى على المجتمع ويكون سبب انهياره في التاريخ. وهو النقد الشعبى الرائج في الصحف الدينية المحافظة التى تعتبر كل تفكير في المادة وكل تنظيم اجتماعى يقوم على الشراكة مادية وإلحاداً، نقد رجال الدين للمذهب الطبيعى وهو مازال سائداً حتى الآن، وليس نقد العلماء من داخل المذهب في مقدماته ونتائجه وحججه واستدلالاته وبراهينه^(٢).

ومنذ تاريخ اليونان في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد وجد تياران: الأول تيار إلهى يثبت وجود ذات مجردة عن المادة والزمان ، مخالفة للمحسوسات في صفاتها، منزهة عن صفات الجسم وأعراضه، واحدة منزهة عن التأليف والتركيب، وجودها ذاتها وذاتها وجودها. وهى المصدر الأول والمبدع لكل الكائنات. ويعرف أنصار هذا التيار باسم المتألهين أى الخاضعين لله مثل فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو. والثانى طبيعى لا يثبت إلا المادة المدركة بالحواس، ولا يوجد شئ وراءها. لذلك سمي أنصار هذا المذهب باسم الماديين، والمذهب نفسه بالمادية Marérialisme. المادة طبيعة، والطبيعة مادة. يرجع اختلاف خواصها إلى طبيعتها. ويسمى أيضاً المذهب الطبيعى. ويعربه الأفغانى ويسميه ناتوراليزم

(١) الرد، الأعمال ص ١٢٩.

(٢) طبقاً لتحليل المضمون لا يذكر الأفغانى من أعلام المذهب الطبيعى إلا ديموقريطس (٥)، أبيقور (٤) من

اليونان، دارون (٤)، فولتير (٣)، روسو (٢) من المحدثين، مزدك (١) من فارس.

Naturalisme كشيخ تعلم اللغات الأجنبية على كبر. يذكرها أيضاً بالفرنسية "تاتير" وبالإنجليزية "نيتشر" وبالألمانية "ناتور". وعرف، أيضاً عند العرب باسم الطبيعيين والأصح الطبائعيين الذين يقولون بالطبائع مثل أصحاب الطبائع من المعتزلة والنظام والجاحظ ومتمر بن عباد، وهشام بن الأشرس^(١).

والحقيقة أن هذا التصنيف الثنائي للمذاهب غير دقيق بالرغم من شيوعه فى الكتب الثانوية والثقافة الفلسفية الشعبية الشائعة لتقريب العامة. فالمتألهون ليسوهم الخاضعون لله بل المثبتون لله لأن الأفغانى لا يفرق ضمناً بين الإيمان والعمل، بين الفكر والسلوك . فمن يثبت وجود الله يكون بالضرورة مطيعاً له. كما أن وضع أفلاطون وأرسطو معاً فى نفس المذهب الإلهى غير دقيق. أفلاطون إلهى وأرسطو طبيعى. صحيح أن الأول يقول بالمثال المجرد. ولكن الثانى يقول بالطبيعة التى تتجه نحو الكمال. الأول لا يقول بالخلق بل بالصنعة ربما من مادة أولى قديمة، والذانى يقول بالمحرك الذى لا يتحرك، ويحركه الله نحو العالم بالعشق. كما أن فيثاغورس وسقراط وأفلاطون يسيرون فى نفس الاتجاه، إثبات المعنى المستقل عن المادة سواء كانت المعانى الرياضية مثل فيثاغورس أو الأخلاقية مثل سقراط أو فلسفية مثل أفلاطون.

وينقسم أنصار المذهب الطبيعى إلى خمسة فرق فى تكوين العالم، الكواكب والحيوان، والذبات على النحو الآتى :

١- تكوين العالمين العلوى والسفلى عن طريق الصدفة والاتفاق، والترجيح بلا مرجح، وهو فى رأى الأفغانى يناقض بداهة العقل. وأهم ممثل لهذا الفرقة ديموقريطس. فالعالم مكون من أجزاء صغيرة صلبة متحركة بالطبع، ومن حركاتها تظهر الاجسام وهيئاتها بقضاء العماء المطلق. وواضح أن الأفغانى لا يصبر على العرض كى يستوفيه معه بل يسرع بالنقد فى أول العرض ويعتبره مناصاً لبداية العقل ويعنى به قواعد الإيمان. فقد يرى آخر أنه متفق مع العقل

(١) الرد، الأعمال ص ١٣١-١٣٢.

الطبيعى. وهو المذهب الذى كتب فيه ماركس رسالته للدكتوراه معتبراً إياه مؤسس المادية الأولى. ويسمى الأفغانى العماء العمالية. كما يسمى الحتمية القضاء. وهى أفاظ إسلامية تكشف عن قراءة الآخر بمصطلحات الأنا طبقاً لقواعد التشكل الكاذب، جدل اللفظ والمعنى فى الالتقاء الحضارى، التعبير عن مضمون الأنا بلفظ الآخر أو التعبير عن مضمون الآخر بلفظ الأنا^(١).

٢- الأجرام السماوية والكرة الأرضية على حقيقتها منذ الأزل ولا تزال، لا بداية لها. وكل شئ لاحق مكنون فى السابق، الشجرة فى البذرة، والثمرة فى الشجرة، والكائن الحى فى الخلية إلى ما لا نهاية. فالمقادير اللامتناهية توجد فى المقادير المنتهية. وهى نظرية الكمون والطفرة الشهيرة التى قال بها النظام وأقرانه من أصحاب الطبائع. وهو رأى لا يتناقض مع القرآن فى وصف تطور الجنين فى رحم الأم من العلقة فالمضغة إلى عظام إلى لحم. والأفغانى لا يعلق عليه ولا ينفقه.

٣- النباتات والحيوان قديمان بالنوع، والأجرام العلوية وهيناتها قديمة بالشخص. ولا شئ من الجراثيم الأولى قديمة بل محدثة. قالب سابق يتكون فيه اللاحق. وينقد الأفغانى هذه الفرقة الثالثة بأن كامل الخلق قد ينتج عن ناقص الخلق، وأن ناقص الخلق قد ينتج عن كامل الخلق. وهو رأى وسط بين القدم والحدوث. فالأجرام السماوية قديمة بالشخص والحيوان قديم بالنوع ولكن الجراثيم الأولى محدثة. وهو ما يصعب فهمه. وحجة الأفغانى، خروج الكأمل من الناقص والناقص من الكامل غير حاسمة فى نقد هذه الفرقة الثالثة.

٤- إثبات التطور مع الإيهام بالبيان. فأنواع الحيوان والنبات تقلبت على أطوار، وتبدلت على أدوار على مر الزمان حتى وصلت إلى هيناتها الآن. وهو رأى أبيقور أحد اتباع ديوجينس الكلبي. فقد كان الإنسان فى بعض أطواره مثل

^(١) انظر تحليلنا لظاهرة التشكل الكاذب فى "التراث والتجديد"، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة

الخنزير ذى شعر كثيف. ثم تطور حتى وصل إلى صورته الحسنى التى هو عليها الآن. ولا يوجد برهان على ذلك فى رأى الأفغانى مع أن أصحاب نظرية التطور يعطون عشرات البراهين فى وصف تطور الكائنات الحية لبيان اتصالها حتى ولو كانت هناك بعض الحلقات المفقودة. فالعلم الطبيعى وتطور الأحياء قادر على اكتشافها بمزيد البحث والاستقصاء. ولا يوضح الأفغانى إذا كانت هذه الفرقة مستقلة أم أنها فرع من الفرقة الثالثة.

٥- القول بالحدوث عند الماديين المتأخرين بعد أن بين علم الجيولوجيا، علم طبقات الأرض، بطلان قدم الأنواع. ثم اختلف انصار هذا الرأى فى موضوعين: الأول تكوين الجراثيم النباتية والحيوانية. فالبعض يرى أن تكوين الجراثيم جاء نتيجة تناقص التهاب الأرض ثم انتهى هذا التكوين بنهاية التطور. والبعض الآخر يرى أن تكوين الجراثيم مازال متصلاً حتى الآن خاصة فى خط الاستواء حيث تشتد الحرارة. وينقد الأفغانى رأى الفريقين لعجزهما عن بيان سبب حياة هذه الجراثيم النباتية والحيوانية خاصة بعد ما تبين أن الحياة فاعل فى بسائط الجراثيم، يوجب التأمها، وتحفظ تكوينها، وأن القوة الغاذية هى التى تجعل غير الحى من الأجزاء حياً بالتغذية، فإذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجانبها فصارت إلى الانحلال، وقد ظن فريق ثالث أن هذه الجراثيم كانت مع الأرض عند انفصالها عن الشمس وهو ما لا يتفق مع القول بأن الأرض كانت جزءاً ملتهباً من الشمس مما يؤدى إلى احتراق هذه الجراثيم وصورها فى النار^(١).

والثانى موضوع الخلاف هو التحول من النقص إلى الكمال. فالبعض يرى أن لكل نوع جرثومة؛ ولكل جرثومة طبيعة تميل إلى حركة تتسببها فى الأطوار الحيوية وتجذب ما يلانمها من الأجزاء غير الحية ليصير جزءاً لها بالتغذية ثم تملؤه بلباس نوعه. وينقد الأفغانى هذا الرأى بعلم الكيمياء وإثباته أنه لا فرق بين

^(١) الرد، الأعمال ص ١٣٢ - ١٣٤.

نطفة الإنسان ونطفة الحيوان، ويتمثل النطفة في العناصر البسيطة، وبالتالي بالعجز عن تفسير التخالف في طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها. والبعض الآخر يرى أن جراثيم الأنواع خاصة الحيوانية ممثلة في الجواهر، متساوية في الحقيقة، وليس بين الأنواع تخالف جوهري ولا انفصال ذاتي، وبالتالي يجوز الانتقال من صورة نوعية إلى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان وحكم الحاجة والضرورة وقضاء سلطان القسر الخارجى. ويمثل دارون هذا الرأي في "أصل الأنواع". فأصل الإنسان قرد ثم عرض له التفتيح والتهديب للصورة بالتدريج على توالى الأزمان وبثأثير العوامل الخارجية حتى ارتقى إلى درجة يسميها الأفغانى برزخ أوران أوثنان، وهو لفظ قرأنى صوفى، وهو نوع من القردة العليا حتى وصل إلى صورة الإنسان الأول، البمبم وسائر الزنوج ثم إلى الإنسان القوقازى، ويسخر الأفغانى من ذلك بأنه طبقاً لهذه النظرية يمكن أن يكون البرغوث فيلاً بمرور الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثاً. فالتطور تقدم ونكوص، ارتقاء ورجوع. وهى حجة خطابية لأن التطور يخضع لقانون. كما يسأل الأفغانى دارون عن سبب اختلاف الأشجار فى بقعة واحدة وزمان واحد، تروى بماء واحد وفى طينة واحدة، وسبب اختلاف أشكال الأسماك فى بحيرة واحدة وطعام واحد ومياه واحدة، واختلاف أشكال الحيوانات وهى تعيش فى منطقة واحدة. ويسأل عن العلة الفاعلة لهذه الجراثيم فى استكمالها الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة والإبداع، لكل منها وظيفة محددة. كيف يمكن إرجاع ذلك إلى الضرورة العمياء دون إرادة واعية مريدة قاصدة؟ ويرى الأفغانى أن العجز عن الرد على هذه التساؤلات يجعل نظرية التطور مجرد جهل ووهم وخرافة مثل المشابهة الواهية بين الإنسان والقرد التى هى مجرد عمالة وحيرة. والحقيقة أن الأفغانى هو الذى يتحول من العلم إلى الدين عن طريق تشخيص العلة الطبيعية وتحويلها من قوانين ثابتة إلى إرادة مشخصة عالمة قادرة مريدة. كما هو الحال فى علم الكلام التقليدى فى الأدلة على وجود الله. كما يحاول دارون تفسير اختلاف

الخيّل في سيبيريا والبلاد الروسية لأنها أغزر شعراً من الخيل في البلاد العربية مستعملاً نظرية التطور. والسبب في ذلك في رأى الأفغانى هو البيئة الجغرافية وحاجة الخيل في البلاد الباردة إلى شعر يدفئها. وهو نفس السبب لكثرة النبات وقلته لكثرة الأمطار أو ندرتها، وكذلك السمنة في البلاد الباردة والنحافة في البلاد الحارة طبقاً لدرجات انحرارة. كما ينقد الأفغانى ساخراً نظرية التطور الهاوية بأن من يقطع ذنب كلب عدة قرون تتولد الكلاب بلا أذنان بعد أن تكتسب الصفات الوراثية ولأنه لم تعد للذنب حاجة في الطبيعة فاستغنت عنه مع أن الختان موجود منذ آلاف السنين عند العبرانيين والعرب ولم يولد إنسان مختن^(١). ويستعمل الأفغانى أسلوب الحجاج التقليدى في علم الكلام، ويتخيل المعترض ويرد عليه سلفاً بطريقة فإن قيل ... قال. ولا يتعرض الأفغانى للنقد الرئيسى لنتائج نظرية التطور على الأجناس البشرية وهى العنصرية التى تجعل الإنسان الأبيض أكثر رقياً من الزنجى، وتجعل الزنجى وسطاً بين الإنسان والحيوان.

وبالإضافة إلى كثرة التقسيمات والتعريفات للفرق التى تقول بنظرية التطور على طريقة الفرق الكلامية القديمة فإن الأفغانى يفرق بين رأى المتقدمين والمتأخرين من أنصار نظرية التطور. إذ رفض المتأخرون رأى المتقدمين نظراً لاستحالة خلو المادة من الشعور لتفسير هذا النظام المتقن والهيئات البديعة. وجعلوا للكون العلوى والسفلى علة مركبة من ثلاثة أشياء : المادة (ماتيريال) والقوة (فورس) والعقل (انتليجانس) أو الإدراك بترجمة الأفغانى الحرة أو المعربة. وباجتماع هذه القوى الثلاث تتجلى الأشكال والهيئات الحية النباتية والحيوانية نظراً لما يلبسها من شعور يودى إلى البقاء الشخصى وحفظ النوع. ثم تظهر الأعضاء والآلات لأداء الوظائف للشخصية والنوعية بالتعامل مع الأزمنة والأمكنة وفصول السنة. ويرى الأفغانى أن هذا هو أفضل ما هو موجود فى المذهب المادى، الجمع بين المادة والشعور. وهو أيضاً أبعد عن العقل والمنطق وأقرب إلى الوهم. فإذا كانت المادة

(١) المصدر السابق ص ١٢٤-١٢٦.

مكونة من أجسام أو ذرات على رأى ديموقريطس فإن هذا الرأى الجديد ، الجمع بين المادة والشعور ، لا ينطبق على علة تركيب الأجسام فى النظام الكونى إذ يلزم عن هذا الرأى، شعور المادة، أن يكون لكل جزء شعور أو قوة يتميز به عن سائر الأجسام إذ لا يمكن قيام العرض الواحد بمحلين كما يقول قدماء المتكلمين. فلا يقوم علم واحد بجزأين أو أجزاء. وكيف يطلع كل جزء على مقاصد الأجزاء الأخرى؟ كيف يفهمها؟ وأى جماعة : جماعة، برلمان، مجلس شورى أو سنات (مجلس شيوخ) تشاور لابداع هذه المكونات المركبة على غاية الإبداع؟ وكيف تعلم الأجزاء ضرورة تكونها فى هيئة طير يأكل الحبوب أو اللحوم ؟ وكيف تعلم أنها ستكون ذكراً أم أنثى، بحلمة واحدة أو بحلمات؟ وكيف تترك حاجاتها إلى الأجزاء الأخرى؟ ولا سبيل إلى الاجابة على هذه التساؤلات إلا باعلان العجز والحيرة والتردد والجهل. لزم إذن علم كل جزء بباقي الأجزاء العلوية والسلفية مراعاة لنظام الكون حتى لا يقع الخلل فيه نظراً لقيام العالم على ناموس واحد. وكيف يكون لكل جزء أبعاد غير متناهية ولا يدرك ولا بالمجهر؟ وإذا كان العلم مجرد ارتسام الصورة المعلومة فى ذات العالم المادى، وهى صورة غير متناهية مع أن الأجسام متناهية فإن ذلك يناقض العقل. وإذا كانت الأجزاء على درجة من العلم والقوة فلم تصاب الكائنات بالآلام والعناء للتخلص منها؟ لماذا عجز الإنسان والحيوان عن الحفاظ على حياتهما؟ ولا يجيب الأفغانى على هذه التساؤلات ولكنه ينتهى إلى أن هذا المذهب خرافة وأهله الحيرة. ولا يفسر مبدآه، الطبع والشعور، أى شىء. وهما مبدآن متناقضان. إذ كيف يكون شيئان مختلفين فى الخواص ومتمثلين فى العناصر؟ افتراض الأجزاء إذن رجم بالغيب، ولا سبيل إلا أن تكون مختلفة لتفسير اختلاف الخواص. وتؤدى هذه المذاهب كلها إلى إنكار الألوهية. أنصارها كالخلايص، يقومون بحركات لإضحاك الناظرين، ويقدمون شيئاً لانظام له. فهم لا علم ولا إنسانية لهم، بعيدون عن مواقع الخطاب، ساقطون عن منزلة اللوم والاعتراض. ليس المقصود التشنيع عليهم بل إظهار الحق وكشف الواقع^(١).

(١) المصدر السابق ص ١٣٦-١٣٩.

ونظرية التطور ليست جديدة. قال بها العرب، شعراء وفلاسفة وعلماء، قبل الأوروبيين مثل قول المعري.

والذي حارت البرية فيه .: حيوان مستحدث من جماد

لم يأت دارون بجديد، وربما لا يوجد جديد على سطح الأرض من حيث الجوهر والأصول. المهم أن يعترف الخلق بفضل السلف وأن يقوموا بإخراج النظرية وغيرها من بطون الكتب. الخلاف في طريق الوصول إليها. ما وصل إليه القدماء بلعقل وصل إليه الأوروبيون بالتجربة، وما وصل إليه القدماء للمعرفة وصل إليه المحدثون للكشف والاختراع. وهو أيضاً ما قاله أبو بكر بن بشرون في رسالته لأبي السمح في بحث الكيمياء، استحالة التراب إلى نبات ثم إلى حيوان. وأرفع المواليد الإنسان. فالنبات أرفع درجات التراب، والحيوان أرفع درجات النبات، والإنسان أرفع درجات الحيوان، في سلسلة متصلة لا تنتهي. قال بذلك القدماء قبل دارون مع الاعتراف بفضل وثباته وصبره وخدمته للتاريخ الطبيعي بالرغم من مخالفة الأفغانى له في نسمة الحياة التى أوجدها الله لاعلى سبيل الارتقاء من القرد إلى الإنسان أو أن يصبح البرغوث فيلاً لأن فيه ما يشبه الخرطوم. بل إن الأفغانى ينبه على عدم الاغراق في نسبة النشوء والارتقاء له لأنه يلتقى مع دارون في رصد الظاهرة ويختلف في تفسيرها. فالتطور عند دارون متصل الحلقات وعند الأفغانى منفصل الحلقات. وهو نفس الخلاف بين دارون وسبنسر ولامارك ودوركيم من ناحية وبين برجسون من ناحية أخرى.

وما يعيبه الأفغانى على الدكتور شميل ليس قوله بالتطور الذى قال به القدماء ولكن سيره على أثر دارون مثل بشنر وهكسلى وسبنسر، وتحمل اعباء التكفير من غير علم دقيق. وبالرغم من جرأته الأدبية ورسوخه في الفلسفة وعدم خوفه من سخط المجموع وتسميته الحكيم أو حكيم الشرق إلا أنه وقع في التقليد الأعمى للغرب، وانتصر لدارون ونشر مذهبه رغم معارضة الدين، أى أن الأفغانى يعيب عليه تعريبه أى تقليده للغرب بالرغم مما قد يعاب عل الأفغانى من سلفيته أى تقليده للقدماء. بل إن شميل ينكر الخلق وهوما مازال مطروحاً عند دارون. فبالرغم

من أن مجموع التطوريين ينكرون الخلق بناء على التدرج فى الأحياء إلا أن دارون نفسه وصل إلى النقطة الجوهرية، وهى موجد نسمة الحياة، وقال "إنى أرى الأحياء التى عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة . فما ينبغى ظهور الحياة على نحو طبيعى". ولكن الماديين انكروا على دارون ذلك وجعلوا مذهبه ناقصاً لأن غايتهم انكار الخلق، وشميل يوافق دارون إذا انكر الخلق ويختلف معه إذا اثبتّه. فالأفغانى "يؤسلم" دارون ويجعله يقول بالتطور والخلق فى آن واحد. ويعيب على شميل قراءته الغربية لدارون وبالتالي تغريبه وعدم رؤيته للآخر من منظور الأنا. وينتهى الأفغانى من هذا العرض النقدى لنظرية التطور إلى أن حصر الحياة كما هو الحال فى المذهب الطبيعى فى أنواع قليلة لا ضرر منه، والانتخاب الطبيعى أمر معروف فى انتخاب النساء والأزواج. وقد حرص العرب عليه لتحسين نسل الحيوان. فكان العربى يطوف اليد كى يبحث لفرسه عن زوج حرصاً على الانساب المختارة^(١).

تمثل رسالة "الرد على الدهريين" النقاش الدائر فى الغرب فى القرن التاسع عشر أثر نظرية دارون وترويج أحمد خان لها فى الهند كجزء من التغريب العام للتخفيف من حدة التقابل بين الشرق والغرب فى عصر مواجهة الاستعمار. ويردد الأفغانى نفس الحجج التى رددتها الدوائر الدينية الكاثوليكية خاصة فى الغرب ضد نظرية التطور. فى تعتبر إحدى بدايات علم الكلام الجديد أو الفلسفة الجديدة فى التعامل مع الثقافات الوافدة من الغرب الحديث كما تعامل القدماء، متكلمين وفلاسفة، مع الثقافات الوافدة من اليونان غرباً وفارس والهند شرقاً. كما تعبر عن الحالة الثقافية الراهنة والأفكار الشائعة عن المادية والاحاد والمذهب الطبيعى والنقد الشائع لها فى أذهان الناس الذى تقوم به الدوائر الدينية المحافظة من خلال سطوة أجهزة الإعلام وتأثيرها. يعتمد الأفغانى على البحث التاريخى والدليل العقلى أى على الرواية والدراية، النقل والعقل. يجعل العقل الغريزى أى الطبيعى العلمى الصافى رافضاً لها مع أنه قد يكون قابلاً لها. فالعقل الدينى يقوم على افتراض

^(١) خاطرت ص ١١ ص ١٧١ - ١٧٦، الرد، الأعمال ص ١٣١.

الانفصال بين العلة والمعلول. والعقل العلمى يقوم على افتراض الاتصال. يعبر نقد الأفغانى عن اختياره المسبق. لذلك يستبدل بنفط البقاء الفناء. فيقول الصراع من أجل الفناء وليس من أجل البقاء. ويتصور العالم على نمط الألفة وليس على نمط الصراع. ويعتبر الألفة نظاماً الهياً والصراع نظاماً شيطانياً مع أن النظامين مشاران إليهما في القرآن الكريم. ولكن الذى ساد في الثقافة الشعبية هو نظام الألفة دفاعاً عن الوضع القائم ودرءاً لحركات التغير الاجتماعى ولمخاطر الثورة. لذلك ألصق نظام الصراع بالماركسية، وجعلوه دموياً عنيفاً كما هى الصورة الشائعة للصراع الطبقي الذى تروج له الدوائر الدينية الرجعية المحافظة .

٢ - النقد العلمى

لا يكتفى الأفغانى بنقد الدهريين نقداً نظرياً مبيناً تهافت نظرية التطور ولكنه ينتقل إلى بيان مضارها من الناحية العملية وآثارها السيئة على أخلاق الأفراد وحياة الأمم ومسارها في التاريخ. وهى المطالب الأربعة عشر التى تمثل ثلاثة أرباع الرسالة. فالنقد العلمى أهم من النقد النظرى. النقد العلمى يقين، والنقد النظرى قد يكون ظناً.

يدعى الماديون أنهم الحكماء بصرف النظر عن اختلاف اسمائهم بين الدهريين والماديين والطبيعيين والاشتراكيين والشيوعيين والعدميين. ويدعون أنهم المدافعون عن الظلم ورافعو الجور، وأنهم العارفون بالاسرار وكاشفو الحقائق والرموز، والواصلون إلى بواطن الأمور، والمطهرون الأذهان من الخرافات من أجل تنوير العقول، وأنهم محبو الفقراء وحماة الضعفاء وطلاب الخير للمساكين. وهم فى الحقيقة مدعو النبوة لترويج مذاهبهم أى أنهم متنبئون. هم صدمة على القوم، وصاعقة عليهم. يميئون القلوب الحية، ويقومون بنفث السم فى الارواح، وزعزعة راسخ النظام. هم سبب انهيار الأمم وسقوط العروش، وإفساد الأصول واقتلاعها^(١).

(١) الرد، الأعمال ص ١٤٠-١٤١.

وفصل الأفغانى غايات النيشرين الحقيقية بعد ادعاءاتهم السابقة وهى :

١- جحد الألوهية وإنكار البنين المسدس، نسق الأفغانى الأخلاقى، العقائد الثلاث: الإنسان أشرف المخلوقات، والأمة أشرف الأمم، والحياة الدنيا للمعاد، والخصال الثلاثة : الحياء والأمانة والصدق، والنزول من علياء الإنسانية إلى حضيض الوحشية الحيوانية.

٢- بطلان الأديان كافة لأنها أوهام باطلة ومواضعات. ولايحق لملة ادعاء أفضليتها على سائر الملل مما يؤدى إلى الركود مع أن الدعوة إلى أشرف الملل وخير أمة قد يؤدى إلى العنصرية والحروب بين الأديان والأوطان أو إلى الإرتكان للعقيدة دون العمل بها وتحقيق شرطها مثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شرط أفضلية الأمة الإسلامية.

٣- اعتبار الإنسان مثل سائر الحيوانات وعدم الارتفاع على مستوى اليهانم بل الانخفاض إلى ما هو أخس منها. وقد يؤدى ذلك إلى الاتيان بالقبائح واقتراف المنكرات وممارسة العدوان.

٤- إنكار الحياة بعد الموت، واعتبار مقصد الحياة الدنيا الشهوة البهيمية. فتتحرر النفوس من الأخلاق، وتمارس العدوان والقتل والسلب وهتك الأعراض والغدر والخيانة، وارتكاب كل خبيث والوقوع فى كل رذيلة، والإعراض بالعقل عن كسب الكمال البشرى ومعرفة الحقائق وأسرار الطبيعة.

٥- الاشتراك فى الأموال والإبضاع وإباحة تناول ما للغير نظراً لأن المذهب الطبيعى يؤدى إلى المادية والاشتراكية والنزعة الإنسانية بالرغم من وجود نزعات اشتراكية إنسانية أخلاقية وروحية ومثالية.

٦- إزالة صفة الحياة للفرز بالقوة فيصبح الإنسان كالانعام يعيش وفقاً لقانون الغاب ولا يعرف له قانون إلا القوة والغلبة.

٧- إزالة صفتى الأمانة والصدق، وهما صفتان تقومان على الإيمان بيوم الجزاء وإزالة ملكة الحياء حتى شاعت الخيانة وراج الكذب، وهذا الثالوث الأفغانى الأمانة والصدق والحياء يمثل قواعد الأخلاق وقوانين التاريخ.

٨- الإباحة والاشتراك، وشيوع المَشْتَهيات ولواغْتصابا وخيانة وكذباً، وارتكاب الشرور والردائل، وإتيان الدنيا والخباثت مما يؤدي إلى فناء الأمم، وتساوى الجميع فى الحظوظ فتدفع النفوس إلى الأخذ بالأسهل والابتعاد عن شاق الأعمال. ومن المبادئ الإنسانية حب الاختصاص والرغبة فى الامتياز. ومن ثم تؤدي المادية إلى الركود وعدم التحرك إلى معالى الأمور.

٩- العداءة للنوع الإنسانى، وسيادة المالبخوليا على أنصاره، يتخيلون الإصلاح والنجاح وهم مفسدون فى الأرض باثون بذور الشقاق بين البشر^(١).

وواضح من هذا الوصف لغايات المذهب الطبيعى بعض التسطيح، وفهم على مستوى العقائد الشائعة والثقافة الشعبية والوعاظ وخطباء المساجد، واللجوء إلى الأساليب الخطابية والحجج الاحراجية والنقد الأخلاقى نظراً لأثر النظر على العمل وتكرار النقد الأخلاقى العام، مرة إثبات الخصال الثلاث والعقائد الثلاث للمؤلهين ومرة نفيهما عن الطبائعين، وبيان مزايا الفريق الأول وعيوب الفريق الثانى، وتحويل الأفكار إلى أمراض نفسية كما يفعل وليم جيمس بل برجسون وكل الوضعيين، والدفاع عن الرأسمالية والتمايز والاختصاص ضد المساواة، والدفاع عن المنافسة والربح ضد تكافؤ الغرض، وهى سمة الفكر الدينى التقليدى^(٢).

ويتبع النيشتريون فى تحقيق غاياتهم عدة مسالك وطرق أهمها :

١- الجهر بالمقاصد صراحة فى حالة الاطمئنان، واستعمال الرمز والإشارة والكنية والتلويح والتدليس فى حالة السطوة وكأنهم فرقة باطنية شيعية صوفية.

٢- العمل على هدم النسق الأخلاقى المسدس عند الأفغانى، كله أوبعضه، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أو إبطال لوازمه وكأن الغاية من المذهب إبطال الأخلاق.

(١) المصدر السابق ص ١٤٩-١٥١.

(٢) انظر دراسات : الدين والرأسمالية، قضايا معاصرة ج١ فى الفكر الغربى المعاصر، دار الفكر العربى القاهرة ١٩٧٧ ص ٢٧٣-٢٩٤ وأيضاً : الدين والرأسمالية فى الدين والثورة فى مصر ج٧ البمين واليسار فى الفكر الدينى، مذبولى، القاهرة ١٩٨٩ ص ٤٥-٦٨.

٣- الاكتفاء بأفكار الصانع، وجدد الثواب والعقاب لافساد باقى العقائد مع أن العقائد الثلاث عند الأفغانى، الإنسان أشرف المخلوقات، الأمة أشرف الأمم، كمال الإنسان نحو المعاد ليس من بينها إثبات وجود الله وإن كان متضمناً فى المعاد.

٤- تزيين الإباحة والاشتراك وتحسينهما وتزيينهما لاستمالة النفوس، وهو تكرار للقصد بحيث لا يبدو الفرق واضحاً بين الغاية والوسيلة، كما أنه تصور شعبى للاشتراكية وتشويه لها من خلال الإعلام الغربى ونظم الحكم التسلطية الرجعية.

٥- القيام بأعمال جاهلية تأنف منها الطباع وتأبأها الشرائع الإنسانية مثل اغتيال معارضيتهم والغدر بهم والفتك بآلاف الأرواح البرينة وارقة الدماء الشريفة بالحيلة والمكر. وهى أساليب لاترتبط بالطبائعين بالضرورة، تستغلها كل القوى السياسية التسلطية للتخلص من الخصوم رأسمالية أو اشتراكية. وممارسة العنف ظاهرة اجتماعية لها أسبابها فى بنية المجتمع، العنف القاهر الذى يولد العنف المحرر^(١).

وواضح من هذا الوصف السلبي للوسائل التى يتبعها النيتشليون لتحقيق مقاصدهم التصورات، الشائعة فى الثقافة الشعبية تحت أثر أجهزة الإعلام الغربية الرأسمالية أو العربية الإسلامية الخاضعة للنظم التسلطية الرجعية. مع أن أصحاب الطبائع أيضاً لديهم القدرة على كشف الزيف والنفاق والخديعة بالدين وبالمثالية. يتسمون بالصدق والإخلاص للمبادئ. ويستشهدون فى سبيل الحرية والعدالة والمساواة بين البشر. وارتبطوا بالانزعة الإنسانية والأممية وتوحيد القوى الثورية ضد الاستعمار العالمى، وهو أيضاً ما كان يعمل له الأفغانى بوحدته قوى الشرق للحررية فى مواجهة قوى الاستعمار الغربية^(٢). وأخيراً، يستقرىء الأفغانى التاريخ ويبين كيف، انهارت الأمم التى تبنت المذهب الطبيعى، أمة وراء أمة وكأن

^(١) الرد، الأعمال ص ١٥١، ١٥٢.

^(٢) المصدر السابق ص ١٥٢.

المذهب الطبيعي لم يقدم أى شىء إيجابى مثل تقدم العلم، وكأنه لم يكن رد فعل على التصور الخرافى الوهمى للطبيعة فيتحدث طويلاً عن "مطلب فى بيلان الأمم التى خضعت للذل، وضرعت للضميم بعد العزة والشرف". ويعدد ست أمم هى:

١- الأمة اليونانية (الكريك) : كانوا قليل العدد، وورثوا العقائد الثلاث خصوصاً الحياء أى الأنفة والكبرياء. واستطاعوا مقاومة الفرس. ووصلوا إلى درجة عالية من العلوم. وثبتوا ثبات الأبطال، وامتد سلطانهم إلى الهند بصفة الأمانة. فكانوا يرجحون الموت على الخيانة كما هو الحال فى قصة تيمستوكليس القائد اليونانى الذى نبذه الناس وطردوه ففر ولجأ إلى ارتكزيس ملك فارس فأمره بمحاربة اليونان فأبى وأنتحر بالسم. ثم ظهر ابيقور واتبعه الدهريون، وانكروا الألوهية، وجعلوا الإنسان معجباً بنفسه مغروراً يظن أن الكون العظيم خلق لخدمة وجوده الناقص وهو أشرف المخلوقات والعلّة الغائية لجميع المظاهر الكونية. قلده الحرص والجنون والخرق إلى الاعتقاد أن له عوالم نورانية وحياة أبدية بعد هذا العالم، فيها سعادة دائمة وليس فيها شقاء. فقيد نفسه بالسلاسل والتكاليف مخالفاً نظام الطبيعة العادل، ووقف فى وجه رغباته وحرّم نفسه من الحظوظ الفطرية وهو لا يختلف عن الحيوانات. وما يفتخر به من الصنائع أخذة تقليداً للحيوانات. فالنسيج من العنكبوت، والبناء من النحل، وإنشاء القصور والصوامع وإدخال الأقوات من النمل، والموسيقى من البلبل. فإذا كان هذا حاله من النقص فلا يزيد متاعبه والاعتزاز بأنه يزيد على الحيوانات والنبات والاعتراف بوجود حياة أخرى. بل عليه ترك التكاليف والتمتع بالبدن والأخذ باللذة وعدم ترك أى فرصة، ولا ينقاد إلى أوهام الحلال والحرام واللائق وغير اللائق. فهذه أمور وضعية تقيد بها الناس جهلاً. فالإنسان ابن الطبيعة. ترك الناس الحياء واعتبروه ضعفاً للنفس، وارتكاب كل قبيح دون أفعال أو خجل فى المجاهرة. هناك الأبيقوريون ستر الحياء، وأراقوا ماء الوجه، واستحلوا أمور الناس حتى سموا بالكلاب دون رادع أو زاجر، تتبج فى الاسواق. وكانت النّبي أن سقط اليونان إلى حضيض البلاد، وكسد سوق العلم والحكمة، وانتهوا إل

الذل واللؤم، وتحولت الأمانة إلى خيانة، والحياء إلى قحة، والوقار إلى سفل، والشجاعة إلى جبن، ومحبة الوطن إلى أنانية. وتهدمت الأركان الستة، ووقعوا في أيدي الرومان عبيداً بعد أن كانوا أسياداً^(١).

بهذا العرض الخطابي الإنشائي يحمل الأفغانى تبعة انهيار الحضارة اليونانية إلى عامل وحيد، ومذهب أوحده هو المذهب الطبيعي. والتاريخ لا يتحرك بعامل واحد بل بمجموعة من العوامل الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. كما أن ما يعرضه الأفغانى ليس كله شراً مثل أن الإنسان سيد المخلوقات، خلق الكون لتسخيره له، وأن هناك حياة بعد الموت كلها سعادة دون شقاء، وأن الإنسان مكلف على الأرض، وأن نظام الطبيعة عادل، وأن الإنسان قادر على السيطرة على رغباته وانفعالاته، وأنه لا يجوز تحريم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. وهل من مظاهر السيادة استيلاء اليونان على فارس والهند والروم ومصر؟

٢- الأمة الفارسية : كانت للأصول الستة فيها، نسق الأفغانى الدينى الأخلاقى، أعلى مكانة أحقاباً طويلة حتى وصلوا إلى درجة عالية من الشرف. تمثلوا الصدق والأمانة فكان أول تعليم دينى عندهم دون كذب وكما عرضت اذلك الشهنامة. وامتداد الملك حتى ظهر مزدك الفيلسوف الدهرى، وادعى أنه أتى لرفع الجور والظلم. فنزع منهم الخصال، وادعى أن كل القوانين الموضوعه تؤدي إلى الظلم، وقائمة على الباطل، وأن الشريعة الدهرية هى الباقية لا تسخ، وموجودة عند الحيوانات. فقد جعلت الطبيعة حق الطعام والشراب والبضائع مشاعاً بين الناس دون تخصيص. فلماذا يحرم الإنسان نفسه ما أحلت الطبيعة باسم الشريعة والأدب؟ وبأى حق تكون الملكية خاصة وهى مشاع بين الناس؟ ولماذا حظر النساء والميل لواحدة دون الأخرى، والأنثى للذكر والذكر للأنثى؟ البيع والشراء اغتصاب وظلم، وتطبيق حد السرقة على الفقير المحروم. القوانين جائزة تمنع كل شيء، والطبيعة محررة تبيع كل شيء. شاعت هذه التعاليم فعم

(١) المصدر السابق ص ١٥٢-١٥٦.

الغدر والخيانة، وانتهى الحياء، وغلبت الدناءة والسفالة، وسادت الصفات البهيمية. فقتل أنوشروان مزدك وشيعته. ولكنه لم يقض على أفكارهم التي علقت بالعقول حتى هاجمهم العرب وانهزموا مع الروم^(١). وواضح من هذا العرض المبسط تفسير الحركات الاجتماعية والسياسية الفكرية بعامل واحد هو العامل الأخلاقي، وأن الحياة قبل المذهب الطبيعي كانت جنة وانقلبت بعد ظهوره إلى نار في ثنائية تطهيرية بين الحق والباطل، الخير والشر، الصواب والخطأ، العلم والجهل. كما أنه ينكر أى ثورة تقوم على الظلم والجور، تلك الثورة التي لم تقم في عهد البراءة الأولى قبل الدنس والخطيئة في المذهب الطبيعي. كما أن نقد تطبيق حد السرقة على الضعيف وترك الشريف حديث عن الرسول. ولماذا الدفاع عن الملكية الخاصة والاسلام أقرب إلى الملكية العامة لما تعم به البلوى كالماء والكأ والنار! وما العيب في نقد التجارة وأخلاق التجار كما فعل ابن خلدون؟ وهل القتل وسيلة التعامل مع المفكرين؟

٣- الأمة الإسلامية : جاءت الشريعة، وعلمتها هذه العقائد والخصال، فبسطوا سلطانهم على الأمم في الشرق والغرب، كسرى وقيصر. والباقي دفع الجزية. ثم ظهر الطبيعيون في القرن الرابع بمصر تحت اسم الباطنية وخزانة الأسرار الإلهية، وانبثوا في كل أرجاء العالم الإسلام خاصة في إيران. ودلسوا على المسلمين عن طريق إثارة الشك في القلوب حتى يضعف الإيمان، والاقبال على الشاك في حيرته ليمنوه بالنجاة وهدايته، وخداعه بدعاتهم للنسك في الشريعة بأن لها ظاهراً وباطناً، الظاهر للمحبوبين والباطن للمستتيرين، ثم اسقاط التكاليف عن المستتيرين والوقوع في الإباحية والشك في الحلال والحرام، والصدق والكذب، والأمانة والخيانة، والفضائل والرذائل. هي مجرد ألفاظ لمعاني مذبلة وليس لها حقيقة واقعية. وأفكار الألوهية والأقرار بالمذهب الطبيعي عن طريق التنزيه، فالله منزّه عن المخلوقات، لاموجود ولا معدوم.

(١) المصدر السابق ص ١٥٦-١٥٧.

وإثبات الاسم وإنكار المسمى سفسطة، بالإضافة إلى قتل معارضيهم الذين يكشفون أمرهم، والجهر بالآراء بعد التمكن من السلطة، وإبطا التكاليف، ورفع الأحكام الظاهرة والباطنة. فالقيام من القائم بالحق، فقاموا بالتأويل. أصبح الكمال نقصا والنقص كمالات. أنحل الإيمان، وانتهت السعادة، وفسدت الأخلاق، وعم الجبن والخور والخوف والكذب والمنافع الشخصية والخيانة والشهوات البهيمية حتى أتى الاستعمار الفرنسي على سوريا. فلم يستطع الناس المقاومة. فقتل الأبرياء، حوالى مائتى عام أثناء الحروب الصليبية، مع أن الأفرنج كانوا خائفين من المسلمين قبل أن تفسد عقائدهم. ثم قام أوباش التتر والمغول مع جنكيزخان، واخترقوا بلاد المسلمين، وهدموا المدن. كل ذلك بسبب نقشى تعاليم الدهريين والقضاء على الأخلاق الإسلامية الراسخة في القلوب. فكانت أسباب السطوة الغربية على البلاد. ثم عادت الأخلاق الإسلامية، وطردت الأمم الأفرنجية من سوريا، وصدوا هجمات جنكيزخان ولكن دون العودة إلى مكانتهم الأولى. وكان ذلك بداية الانحطاط منذ الحروب الصليبية أى منذ نقشى الآراء الباطنية الدهرية كسم قاتل^(١). واضح من هذا العرض أيضاً أن الدهرية هى الشماعة الوحيدة التى تعلق عليها أخطاء البشر، والعامل الأوحى فى إنهميار الأمم. ويعتبر الأفغانى الباطنية من الدهرية مع أنهم من غلاة الروحانيين، فالمادة لديهم روح، وأقرب إلى المنزعات الصوفية الاشرافية. كما يرى أن التنزيه طريق لأنكار الألوهية مع أنه إثبات لها دو تجسيم أو تشبيه. كما يتبنى تصوراً آلياً لحركة التاريخ، وكأن العودة إلى الأخلاق مفتاح سحرى يقلب الهزيمة نصراً، والسقوط نهضة، ويصحح ما فعلته الدهرية، الشر الكامن فى كل عصر.

٤- الأمم الشرقية : ويعنى الأفغانى بالأمم الشرقية شمال العراق، منطقة كركوك. فقد أنكر الدهريون هناك الألوهية. وظهروا فى لباس المهذبين. ولونوا الظواهر بألوان المحبة. وادعوا طلب الخير للأمة وهم حملة العلم والمعرفة بما حفظوا

(١) المصدر السابق ص ١٥٧-١٦١.

من كلمات ناقصة. ولقبوا أنفسهم بالهادين وهم أهل غباوة ورذيلة. يستعملون العقل والمعرفة في تبين وجوه الغدر والاختلاس. تسودهم الشهوة وحب الدنيا^(١). ولا يعطى الأفغانى جديداً في هذا الوصف، ولا يبين كيف قامت الدولة بالإيمان وانهارت بالدهرية. هم أقرب إلى الشيعة الباطنية بهذا الوصف ولا يمثلون أمة جديدة يضرب بها المثل.

● - الأمة العثمانية: ويفرد الأفغانى نموذجاً من الأمة العثمانية وكأنها ليست جزءاً من الأمة الإسلامية. ويعتبر الدهريين سبب خيانة العثمانيين لصالح الروس. يعدون أنفسهم أبناء العصر الجديد. فالإنسان حيوان، والأخلاق ضد الطبيعة، وضعها تحكم العقل وتطرف الفكر. أنكروا الشرف والحياء والأمانة والصدق والعفة والاستقامة. فجلبوا المذلة على الأمة^(٢). وهذا أقرب إلى الهجاء منه إلى النقد، والدعاية المضادة منه إلى التحليل العلمي الرصين.

٦- الشعب الفرنسي: له النصيب الأوفر من الأصول الستة. فرفع منار العلم والصناعة بعد الرومان حتى ظهر فولتير وروسو يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم، وإنارة الأفكار، وهداية العقول. فنبشأ قبر أبيقور الكلبى، وأحيوا الدهريين الذين نبذوا كل تكليف دينى، وغرسوا الإباحة والامشتراك، وجعلوا الآداب خرافية، والأديان مخترعة بسبب نقض العقل الإنسانى، وإنكار الألوهية، والتشنيع على الأنبياء. خطأهم فولتير، وسخر منهم، وقذح فى أنسابهم، وعاب رسالتهم ومع ذلك دخلت الأباطيل نفوس الفرنسيين، ونالت من عقولهم. فنبذوا المسيحية، وتحولوا إلى شريعة الطبيعة، والهوا جمال النساء فى محراب الكنيسة. وكل ما فى الطبيعة من آثارها وليس من الله. وكانت تعاليم الدهريين سبب اندلاع الثورة الفرنسية التى فرقّت أهواء الأمة وأفسدت أخلاق الناس. فاختلّفوا وانقسموا. وانغمس كل فريق فى شهوته، وأعرض الجميع عن المنافع

(١) المصدر السابق ص ١٦١.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٣.

العامّة. واختلت سيادتهم الخارجية. وحاول نابليون الأول إعادة المسيحية واكنه لم يستطع محو الأضاليل، فظنوا مختلفين إلى الآن. قالوا بالاشتراكية ومذهب الكمون، نسفوا كل عمران على ارض فرنسا^(١). وواضح أن الأفغانى هنا أيضاً يضع فولتير وروسومع الدهريين وهما من أنصار التأليه الطبيعى Deism. كما يعارض فلسفة التنوير ويرفض الثورة الفرنسية، ويضع نفسه مع المشايخ المعممين مما يجعل موقفه النظرى أقل جرأة ونقداً من مواقفه العلمية، ويمثل خلفاً بين النظر التقليدى والعمل الثورى.

ويخصص الأفغانى جزءاً خاصاً لدحض مطلب السوسيالست (الاجتماعيون) والنهيليست (العدميون) والكومونيست (الاشتراكيون) مستعملاً اللفظ العربى كأساس واللفظ المترجم كفرع. وهم صنوف من الدهرية فى الأمة الفرنسية. تزين الظاهر وتدعى الدفاع عن الضعفاء والمطالبة بحقوق المساكين والفقراء. وكل طائفة لها غاية مخالفة. ولكنها تشترك جميعاً فى رفع الامتيازات الإنسانية، وإباحة الكل، واشتراك الكل فى الكل، وسفك الدماء، وتخريب العمران، وإثارة الفتن. المشتهيات فى الأرض منحة من الطبيعة ومن فيضها للتمتع بها دون اختصاص واحد بها دون الآخر. الدين والملك عقبتان عظيمتان ضد الطبيعة أى الإباحة والاشتراك. والحل هو القضاء على السلطتين الدينية والسياسية، قتل الأغنياء، وإنشاء المدارس، تحت ستار المعارف والبداية بالتربية، إشارة إلى روسو. وهى فى النهاية طوائف تؤدى إلى انقراض المجتمع البشرى. وواضح أن الأفغانى قد وقع ضحية التفسير الرأسمالى للدين، وينقد الاشتراكية والاجتماعية، ويخلط بينهما وبين الشيوعية والعدمية. يرى العيب فى نقد الامتيازات والقضاء على الاقطاع وملاك الأراضى، ونقد السلطتين الدينية والسياسية! ^(٢).

(١) المصدر السابق ص ١٦٣-١٦٤.

(٢) الرد، الأعمال ص ١٥١، ١٥٢.

ويخصص الأفغانى فقرة خاصة لمورمون. وهو أيضاً من دعاة الطبيعة. ظهر فى إنجلترا وأمريكا. وادعى أنه ملهم من الطبيعة. يقول بالإباحة والاسترائك، للمؤمنين بالطبيعة دون غيرهم. ودعا كل مؤمن إلى الاجتماع مع كل مؤمنة. فالزواج شركة، والنبوة اشتراك. وهى الدعوة المنتشرة الآن فى أمريكا فى يوتا والتى تسعى الطائفة باسمه^(١).

وينهى الأفغانى هذا النقد النظرى العملى بالاعلان عن أساس النقد "مطلب فى مضار إنكار الألوهية"^(٢). فالدهرية تنكر الألوهية والمعاد مما يؤدى إلى إنكار الأخلاق فتتهار الأمم. كلما انتشر المذهب فسدت أخلاق الأمة. اختلت العقول، وتملكت الحيل من القلوب وأدوان التلبيس حتى تعم الرذائل وعبادة الشهوات وارثكاب الخيانات حتى تنقرض الأمة أو تستعمر وتستعبد. أخفى البعض المقصد الأصلي وهو الإباحة والاشتراك، واكتفى بإنكار الألوهية وجحد المعاد تحت شعار حرية الفكر وهو ما يؤدى إلى فساد الحياة الاجتماعية وزعزعة أركان المدنية. ولايمكن الجمع بين الدهرى والأمانة والصدق وشرف الهمة وكمال الرجولة. وكثير من خاطرات جمال الدين تعبر عن هذا النقد الدينى للدهرية مثل : "كيف لا يفضل أضعف حيوان ناهق يذكر الله إنساناً ناطقاً ينكر وجود الله؟" فإذا ما تم إنكار الألوهية فإن الإنسان يعبد هواه "يكفر الإنسان فى كل شىء لايرضاه ويبعد كل شىء يهواه". والاعتقاد بالألوهية هو الذى يؤدى إلى الاعتقاد بالمعاد وبالتالى نيل السعادة الأبدية "من اعتقد أن لا حياة إلا هذه الفانية فقد خسر الأولى والثانية". فالسعادة لا توجد فى هذه الحياة الدنيا بالرغم من أنها ضالة البشر "السعادة فى الدنيا ضالة البشر. وإذا وجدها أحد قلما يدلّ عليها. ولا أظنها من موجودات هذا العالم الفانى"^(٣).

(١) المصدر السابق ص ١٦٤-١٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٧-١٧٠.

(٣) خاطرات ص ٣٩٠/٣٩٣.

إذا كان الرد على الدهريين ونقد الدهرية نظرياً وعلمياً يمثل الجانب السلبى فإن البديل الدينى الأخلاقى هو الجانب الإيجابى الذى يقدمه الأفغانى، وهو متضمن أيضاً فى الجانب السلبى. إنكار الدين سبب السقوط وإثبات الدين طريق الخلاص. الدين قوام الأمم، وبه خلاصها وسعادتها ومستقبلها فى مقابل النيتشرية وهى "جرثومة الفساد وأرومة الأداد" أى مصدر الأمور الفظيعة، وسبب خراب البلاد وهلاك العباد. فالدين والنيتشرية على طرفى نقيض كالحق والباطل، الخير والشر، الصلاح والفساد، الفوز والهلاك. والإنسان ظلوم جهول هلوع جزوع. إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً. لذلك أتاه الدين لا كماله كى يتمسك بأصوله وتربيته على الخصال المتوارثة حتى تشرق العقول بالمعارف، وتهدى إلى السعادة، ويقم البشر المدنية ويحافظون على ثباتهم وبقائهم^(١).

لقد أفاد الدين ثلاث عقائد وثلاث خصال. واكسبها عقول البشر. وهى أساس قيام الأمم وعماد بنيتها الاجتماعية، وقوام مدنياتها، وشرط تقدمها ورقبها ونيل سعادتها لابعاد النفوس عن الشر ومفارقتها للأجساد، وبيعدها عما يهدد البقاء ولها أثار جليلة على المجتمع البشرى ومنافع المدنية والروابط بين الأمم وبقاء النوع والمسالمة بين الأفراد ورقى الأمم. وهذه العقائد الثلاث هى :

١ - الإنسان ملك أَرْضى، أشرف المخلوقات، من أجل رفع الإنسان من الخصال البهيمية، وسموه إلى العالم العقلى، وتجاوزته شريعة الغاب. وهو ما يتفق مع القرآن، فى اعتبار الإنسان ^{جليبة} الله فى الأرض، أعظم المخلوقات بتحملة الأمانة بعد أن رفضتها السموات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفقن منها. وهذه العقيدة لا تبتعد كثيراً عن مقصد الدهرية باعتبارها الإنسان مركز الكون وآخر درجة فى سلم التطور، وما تزهو به الحضارة الغربية منذ عصورها الحديثة والتحول من التمرکز على الله Theocentrism إلى التمرکز حول الإنسان Anthropocentrism والتى فيها صدر "الإعلان العالمى عن

(١) الرد، الأعمال ص ١٣١ / ١٤٠-١٤١.

حقوق الإنسان" وظهرت النزعة الإنسانية Humanism . فلماذا وضع الدين والدمرية على طرفى نقيض والإنسان يجمعها كما جمع الصوفية بين الله والإنسان فى الإنسان الكامل؟

٢- يقين كل متدين أن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فهو على باطل مما يدفع إلى التنافس بين الأمم. ولماذا يغفل الأفغانى أن هذا الاعتقاد قد يؤدى إلى التعصب وحروب الأديان، والعنصرية والصهيونية والحروب والمنازعات؟ ولماذا لا يكون النموذج، المساواة بين الأمم والتفضيل بينها فى الخيرات ﴿ولكل وجهة هو موليها، فاستبقوا الخيرات﴾ ، ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾؟

٣- الحياة الدنيا ممر للحصول على كمال المعاد فى عالم أوسع وأرحب. تدفع إلى التزود بالمعارف بعيداً عن الجهل، والارتقاء فى العلم، والتقارب بين الأمم، والترابط بينها بالمحبة والا وقع الإنسان فى الكذب والنفاق والحيل والخداع والرشوة والاختلاس، واقتصر على الحس والحرص، والشرة والغدر والاعتدال وهضم الحقوق والجدال والقيام بدور الجلاذ^(١).

وواضح خلو هذه العقائد الثلاث من الإيمان بالله، بل تكفى بالإيمان بالإنسان والجماعة والمعاد، وأن العقائد ليس لها صدق فى ذاتها بل هى وسيلة لتحقيق الخير للفرد والجماعة وتقدم التاريخ. تعبر عن روح إشراقية وثنائية متطهرة، الصعود إلى أعلى فى الخلاص والهبوط إلى أسفل فى السقوط..

وهناك أيضاً خصال ثلاث تتوارثها الأمم، وتطبع النفوس بطابع الدين، فالأخلاق أساس الدين، والدين يقوم على الأخلاق كما هو الحال فى النزعات المثالية. وهذه الخصال، وتعنى الفضائل هى :

١- الحياء. وهو انفعال النفس من اتيان ما يجلب اللائمة والتوبيخ. ويلزم عنه شرف النفس. وكل أمة تفقد الغيرة والإباء تحرم من الترقى. وبه تتم روابط

(١) المصدر السابق ص ١٤١ - ١٤٤ .

الأكفة بين آحاد الأمة. وبدونه تقع فى الفحشاء والشهوات البهيمية. وواضح أن هذا التعريف غير جامع مانع، يساوى بين الحياء وشرف النفس والغيرة. ويجعله سبباً للترقى، والتقدم له أسباب عديدة. ويربطه باللائمة والتوبيخ معه أن قد يرتبط برؤية الحسن والجميل.

٢- الأمانة. وهى أساس المعاملات والمعاوضات فى الأعمال. والأمة فى حاجة إلى حكومة جمهورية أو ملكية مشروطة أو مقيدة. والحكومة فى حاجة إلى رجال أمناء يقومون بالأعمال، يجمعون الكلمة، ويمنعون الاعتداء دون استعلاء على أحد. ويعطى الأفغانى هنا معنى اقتصادياً سياسياً للأمانة وليس معنى أخلاقياً نفسياً كما أعطى للحياء. كما أن فكره يقوم على دور. تحتاج الأمانة إلى حكومة وتحتاج الحكومة إلى أمانة.

٣- الصدق. نظراً لأن الإنسان كثير الحاجات منح خمسة مشاعر، هى الحواس الخمس، فإنها كلها لا تعمل إلا بالصدق. فالكاذب يرى البعيد قريباً والقريب بعيداً، والنافع ضاراً والضار نافعاً. الصدق إذن شرط عمل الحواس، وأساس مبدأ التحقق. يقوم الصدق عند الأفغانى بدور معرفى، صدق عمل الحواس، وتتأسس عليه الأخلاق. وهو نفس المقياس النفسى الأخلاقى فى تعريف الحياء^(١).

ولا يبين الأفغانى إذا كانت هذه الخصال فى بدايتها فطرية أو مكتسبة. ويكتفى بالقول بأنها متوازنة بين الأمم. فهى مكتسبة من حيث التربية دون توضيح عن اكتسبها الإنسان الأول؟ ولا يبين هل هى خصال فردية أو جماعية؟ هل هى عند كل الأفراد والشعوب أم أن هناك فروقاً فردية فيها؟ ولماذا اختار الأفغانى هذه الخصال الثلاث واستبعد غيرها؟ وما الدليل العقلى والنقل على اختيارها دون غيرها؟ كما تبدو أحياناً متداخلة فيما بينها من حيث الوظائف الاجتماعية بل ومتداخلة مع غيرها. ميزتها أنها أحياناً تقوم على تفسير نفسى اجتماعى تاريخى كما يفعل علماء النفس والاجتماع والتاريخ.

(١) المصدر السابق ص ١٤٥-١٤٨.

ولما كانت الفضيلة وسطاً بين طرفين، وكانت الحكمة المحافظة على الهيئة المتوسطة، والفضائل هينات متوسطة بين خلتين ناقصتين خصص الأفغاني مطلباً في الوسائل التي يمكن أن تلزم النفس حدود العدل. فكل فرد في فطرته شهوات تحيل إلى مشتريات. والأولى دافع للحصول على الثانية، وهو ما يُسمى في الظاهريات الشعور باعتباره ذاتاً *noèse* والشعور باعتباره موضوعاً *noème*. ولم تحدد الطبيعة طريقة محددة لذلك. ومع ذلك هناك طريقتان عرفتهما البشرية: طريق حق وطريق باطل، هدى وفتنة، تعفف من ناحية وسفك دماء واغتصاب حقوق من ناحية أخرى، طبقاً لثنائية الأفغاني التطهيرية. والطريقة المثلى هي حد الاعتدال وقصر النفوس عليه تخفيفاً للأهواء. ويكون ذلك بطرق أربع :

١- المدافعة الشخصية. وهو طريق النضال والقتال وإسالة الدماء، طريق الجلاء، وغلبة القوى على الضعيف. فإذا قوى الضعيف وضعف القوى طبقاً لجدل السيد والعبد تدور الدائرة، ويستمر الفساد في النوع الإنساني. فالأفغاني هنا يدين العنف واستعمال القوة لتحقيق الخير والمنفعة العامة.

٢- شرف النفس. وهو طريق يمنع صاحبه من إتيان ما يذم عند قومه، وهو ما يتغير بتغير الأقاليم وعند البدو والحضر مثل الحيلة والعكر، مقبولة عند قوم مرفوضة عند آخرين. ولما كان لكل كائن علة غائية فغاية الأخلاق توسيع الرزق، والشرف من أجل البقاء. ومن ثم يجوز جعل شرف النفس ميزاناً للعدل. أما حب المحمدة فقد يتعارض مع الشهوات. ولا يمكن الجمع بينه وبين شرف النفس. وكلاهما اختياران.

٣- الحكومة. وقوتها تكمن في الكف عن العدوان الظاهر ورفع الظلم البين ولكنها لا تستطيع منع الاختلاس والزور والتمويه والباطل المزين والفساد الملون بصيغ الإصلاح، والخفايا والدسائس. الحكومة تقوم بالأمن الخارجي ولكنها تعجز عن منع الاضطراب الداخلي. تستطيع الحكومة أن تسيطر على المجتمع ولكنها لا تستطيع التحكم في أهواء النفس.

٤- الاعتقاد بالآلوهية. هو الحل الجذرى للشهوة والأهواء أى الإيمان بأن للعالم صانعاً عالماً بالظاهر والباطن، قادراً على الخير والشر، يجازى فى الحياة الآخروية. ويكبح هذا الاعتقاد والنفس عن الشهوات ويمنعها من العدوان. هاتان العقيدتان، وجود الله والإيمان بالمعاد أفضل طريق لنيل الفضائل.

ويبطل الطبيعيون هاتين العقيدتين من أجل الإباحة والاشتراك فيهدم بناء الإنسانية، وتتهار قواعد المدنية، وتفسد الأخلاق البشرية. قد ينخدع بأقوالهم طلاب التمدن. فالدين، مهما انحطت درجته، أفضل من طريقة الدهريين مهما علت. وقد ألهم الله النفوس بالتحذير من الطبيعيين حفاظاً على نظام الكون والنظام الإنسانى. فالدين فطرى يطرد آراء الطبيعيين، ويخلص النفوس منها، ويحقق سعادة الإنسان^(١). ولايبين الأفغانى كيف أن الاعتقاد بالآلوهية أيضاً قد يكون غطاء وستاراً يخفى أبشع صور الاستغلال كما حدث فى شركات توظيف الأموال وفى كل مظاهر القهر والاستغلال باسم الدين. وواضح تعصب الأفغانى للدين ضد المذهب الطبيعى. فالدين مهما انحط. أفضل من المذهب الطبيعى مهما علا وكان الجاهلية وعبادة الأصنام أفضل من المذهب الطبيعى. والتأليه الطبيعى والأخلاق الطبيعية هى أخلاق الفطرة، وهى من خلق الله، ﴿صَغَةَ الله وَمِنْ أَحْسَنَ مِنْ الله صَغَةً﴾؟.

وينتهى الأفغانى من عرض هذا البديل الدينى الأخلاقى بالإعلان عن موقفه الدفاعى فى مطلب "أن الدين الإسلامى أعظم الأديان"^(٢). فهو دين متين قائم على أساس الحكمة، يهدف إلى إسعاد البشر وتدرجهم فى العلم والفضيلة. وذلك لا يتحقق إلا بآربعة أمور تتم بها سعادة الأمم هى :

١- صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأهوام نتيجة صفاء التوحيد. فالأفغانى هنا يوحد بين العقل والوحي، بين بداهة العقل وتنزيه الله. وكلاهما يجتمع فى النور القطرى.

(١) المصدر السابق ص ١٦٦/٩٣-١٧٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٣.

٢- استئقبال النفس وجهة الشرف، وطموحها إلى بلوغ الغاية بحيث تكون لائقه بالكمال الإنسانى باستثناء النبوة. وقد فتح الإسلام باب الشرف لذلك بالدعوة إلى الإسراع إلى الفضيلة والتسابق إلى الخير. لقد قسم دين براهما الناس أربعة أقسام، لكل قسم كماله من الفطرة. وكان هذا التقسيم سبباً فى انحطاط الدين. وفضلت اليهودية شعباً على باقى الشعوب. تكرم الأول وتحقر الثانية. فارتفع امتياز الجنسية وقدر العرق. وظهر البناء الطبقي للمجتمع اليهودى، طبقة علياً للأخبار والكهان وطبقة دنيا لعامة المؤمنين. وكعب الأخبار واسطة بين العبد والرب، بين الشعب ويهوه، مخالفة لما جاء فى الكتاب. فأتى الإصلاح الدينى اليهودى والبروتستنتى موافقاً لما جاء به الإسلام ضد التوسط بين الانسان والله وضد اتخاذ الأخبار والرهبان أرباباً من دون الله.

٣- إقامة عقائد الأمة، وهى أول ما ينتقش فى النفس، على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة وليس على التقليد. وقد طلبت أوروبا فى العصور الحديثة البرهان على صحة العقائد، وعارضت رجال الدين وسلطتهم، دفعاً للتقليد وتشجيعاً على الاجتهاد. وينفرد الإسلام عن باقى الديانات بطلب البرهان، وقيام عقائده وأصوله على العقل والبرهان.

٤- قيام طائفة فى كل أمة يختص عملها بتعليم الأمة. وهم العلماء المناط بهم تنوير العقول بالمعارف، وتحليلتها بالعلوم من أجل نيل السعادة وطائفة أخرى تقوم بتربية النفوس وتنقيتها، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر طبقاً لأمر القرآن ﴿ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾، ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾. وكان الأفغانى ينوى وضع كتاب لبيان أن المدينة الفاضلة لا تقوم إلا بالدين الإسلامى. ولما كان المسلمون على غير الإسلام فى إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فالأديان نافعة لقيام النظام البشرى على الإطلاق، والإسلام على الخصوص^(١).

(١) المصدر السابق ص ١٧٣-١٧٩

هكذا يبدو الأفغانى من مؤسسى علم الكلام الجديد، مدافعاً عن الاسلام فيما
تصوره يمثل خطراً عليه وهو الدهرية أو المذهب الطبيعى، ومثبتاً وجود الله،
وخلق العالم، وخلود النفس وأمور المعاد. ولكنه أخطأ الطريق ولم يصب الهدف..
فالمذهب الطبيعى ليس ضد الدين ولا الدين ضد المذهب الطبيعى. الاسلام دين
الفطرة أى دين الطبيعة، والطبيعة خيرة تتجه نحو حقائق الدين. الدين طبيعة،
والطبيعة دين. الدين طبيعة نازلة، والطبيعة دين صاعد، لافرق بين تنزيل وتأويل
بتعبير القدماء. لذلك يوجه القرآن النفس والعقل نحو الطبيعة والتأمل فى ظواهرها.
والآية ظاهرة طبيعة ونص فى أن واحد. الطبيعة مصدر تحرر دائم من النص.
الطبيعات مقدمة للألهيّات فى علم الكلام، ولها بعد الطبيعة فى الفلسفة. والخلق
والحق واجهتان لشيء واحد. عند الصوفية، وتحليل العال ومقاصد الشرع واحد فى
علم أصول الفقه. ومن ثم برز سؤال عند المحدثين وبحق: عود إلى النص أم عود
إلى الطبيعة؟^(١)

(١) قضايا معاصرة ج١ فى فكرنا المعاصر : عود إلى المنبع أم عود إلى الطبيعة؟ دار الفكر العربى، القاهرة

١٩٧٦ ص ١٧٢-١٧٦.

,

.

الفصل الثالث

الحرية والعقل (العدل)

١- القضاء والقدر

بالرغم من أن الأفغانى ظل أشعريا فى التوحيد والعدل وخروج محمد عبده عليه إلى المنتصف فأصبح أشعريا فى التوحيد معتزليا فى العدل 'لا أنه حاول الخروج عن الاشعرية بنقده عقيدة القضاء والقدر التى صب فيها الكمب الاشعري فى الممارسات الشعبية وتحول إلى جبر وظل معتزليا خارجيا فى الإمامة يقول بضرورة الخروج على الحاكم الظالم بينما ظل محمد عبده أشعريا مرجئا يقول بضرورة طاعة الإمام حتى ولو كان ظالما.

يبدأ الأفغانى ببيان أثر العقائد القلبية فى الأعمال البدنية، وأن صلاح الأعمال وفسادها راجع إلى صلاح العقيدة. فإذا ما تم تأويل العقيدة الحسنة تأويلا سيئا تصبح وكأنها عقيدة سيئة وتبطل الأعمال. فالأعمال دليل على العقائد. لذلك يطعن البعض على العقائد والدين استنادا إلى أعمال بعض السذج. فإذا كان محمد بن عبد الوهاب قد بدأ بأصلاح العقيدة، ومدحت باشا بأصلاح الحكومة والادارة فإن الأفغانى بدأ بأصلاح العقول والنفوس أولا ثم إصلاح الحكومة ثانيا، وربط ذلك بالدين. وإذا كان مدحت باشا يرى أن إصلاح الشعب يأتى عن طريق إصلاح الحكومة فإن الأفغانى يرى أن إصلاح الحكومة يأتى عن طريق إصلاح الشعب. وإذا كان مدحت باشا يرى أنه إذا صلح الراعى صلحت الرعية والغاية الدستور فإن الأفغلى يرى أن القوة النيابية تتبع من نفس الأمة^(١).

ومثال هذه العقائد التى لها أبلغ الأثر على النفوس، عقيدة القضاء والقدر التى كثر اللغط فيها وسوء فهمها خاصة من الأفرنج. فقد زعموا أنها، سبب تأخر المسلمين وضعفهم وفقرهم وفسادهم وكذبهم ونفاقهم، وأن الاعتلال بالقدر سبب

(١) أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث. لنهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٧.

الخيانة والتحاقد والتباغض والتفرق والجهل بالأحوال الحاضرة والمستقبلية والغفلة عما يضرهم وينفعهم، والركون إلى الحياة طعاماً وشراباً ونوماً دون تنافس في فضيلة والاضرار بالآخرين. تحول البأس بينهم والأمم تبتلعهم جزءاً جزءاً، قبلوا العوارض، وارتكزوا إلى السكون، دون أداء الواجبات، ومالوا إلى التخاذل والتناظر، وإهمال المصالح العامة. والتناظر يذهب بشوكة الأمة، ويضيعنا مثل الصراع بين زعيمين، وموالة أحدهما للأجنبي ضد أخيه. وقعوا في الاسراف والتبذير والتخاذل. وسكنوا لغياب الجمعيات لأحياء الغيرة في النفوس. وسبب كل ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تؤدي إلى الفناء والأقوال. فالنظر أساس العمل.

لقد أخطأ الأفرنج في الخلط بين القضاء والقدر ومذهب الجبرية. وتابعهم المسلمون في هذا الخلط. والاعتقاد بالقضاء والقدر غير الاعتقاد بالجبر ولا من مقتضياته. ولا يوجد مسلم الآن، سنياً أو شيعياً، زيدياً أو إسماعيلياً. وهابياً أو خارجياً يرى مذهب الجبر المحض، وساب الاختيار عن نفسه. انقرض مذهب الجبرية في أواخر القرن الرابع للهجرة. واستقرت في نفوس المسلمين عقيدة الكسب، مناط الثواب والعقاب. هنا يدافع الأفغان عن القضاء والقدر باعتباره متكهما حديثاً ضد الطعن على الاسلام والقرويج للشبهات الجديدة التي تلقى حوله من الغرب عامة والمستشرقين خاصة. رسالة القضاء والقدر إذن تعطى التفسير الصحيح للعقيدة التي كثر فيها لغط المغفلين من الأفرنج. (١)

القضاء والقدر ترشد إليه الفطرة والدليل القاطع. فكل حادث سبب يقارنه في الزمان. والإنسان لا يرى إلا الأسباب المباشرة دون الأسباب الأولى. وإرادة الإنسان حلقة من حلقات سلسلة العال. وهي أثر من آثار الإدراك. والإدراك انفصال النفس بما يعرض للخواص والشعور بما في الفطرة من الحاجات. فلظواهر الكون سلطة على الفكر والإرادة. وهذه الأسباب من مدبر الكون الذي أبدع كل شيء وفقاً للحكمة، وجعل كل شيء تابعاً لشبهه في العالم الإنساني. ولا يمكن انكار تأثير الفواعل الطبيعية والحوادث الدهرية في إدراك البشر (٢). وواضح اعتماد الأفغان

(١) رسالة القضاء والقدر، الأعمال ص ١٨٢-١٨٨ العروة الوثقى ص ١٦٠-١٧٤ خاطرات ص

٣٤٣-٣٥٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٣-١٨٤.

على وصف السنن الكونية والتحليل التاريخي لمسار العقائد، مثل انقراض الجبرية في أواخر القرن الرابع الهجري، وتحول الكسب الاشعري إلى جبرية في العقائد الشعبية. وبالرغم من أن الأفغانى يبدأ عادة بوضع قانون عام يندرج الموضوع تحته مثل أثر العقائد في سلوك الأفراد والجماعات إلا أنه كثيراً ما يقع كالعادة أيضاً في نوع من الخطابة والإنشاء، وتغليب أسلوب الداعية على أسلوب الباحث.

وقد لجأ بعض الأفرنج إلى الإطالة في إثبات القضاء. والتاريخ علم أفضل من الرواية، علم البحث عن سير الأمم صعوداً وهبوطاً، وطبائع الحوادث وما فيها من تغيير في العادات والأخلاق والأفكار، وفي الإحساس والوجدان. ولو كان الأمر بيد البشر وحدهم لما حدث قيام أو سقوط. هنا يلجأ الأفغانى إلى تحليل التجارب التاريخية للأمم والشعوب، أسباب النهضة وأسباب الانهيار. وهو أفضل من علم الرواية أى المنهج النصي، بالرغم من عدم خلو الأسلوب من خطاب الوعظ والإرشاد مثل "أنتم يا عصابة الرحمن وأولياء الشفعة"^(١).

ويعطى الأفغانى تحليلاً نفسياً لآثار القضاء والقدر في النفس بحيث تدفع على الفعل أكثر مما تؤدي إلى الخمول. فالقضاء والقدر إذا ما تميز عن الجبر يخلق في الإنسان القدرة والأهلام والشجاعة والبسالة وأقتحام المهادنة، فإذا كان الأجل محدوداً فلا يجدى الخوف، والذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا حبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. اندفع المسلمون للفتح، وقضوا على الأمبراطوريتين، الفرس والروم، في أقل من ثلاثين سنة، وعمرّوا الأرض، وصعدوا الجبال بالاعتقاد بالقضاء والقدر، وثبتت أقدامهم للعلى، لافرق بين نساء وأطفال وشيوخ، وقد استكانوا اليوم بسبب الاستعمار الأجنبي. ويشهد التاريخ أن كل القائمين العظام كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر مثل كورش الفارسي (كخسرو)، والاسكندر الأكبر، وجنكيزخان، ونابليون. فالاعتقاد يخلص النفس من الجبن، وهو

^(١) القضاء والقدر، الأعمال ص ١٨٥-١٨٨.

الذى يعوق عن التمدن. ولم يجد الأفغانى إلا الغزالى للاستشهاد به على أن التوكل والركون إلى القضاء من مطالب الشرع، فى النشاط والعمل وليس فى البطالة والكسل. ليس التوكل هو سبب التخلف بل صدمة الاستعمار، من الشرق التتار ومن الغرب الأمم الأفرنجية. الإسلام لن يموت فالقائد حية. إنما المطلوب هو الاعتدال. وقد فتح العثمانيون البلاد بعد صدمة الصليبية والتتار، ودانت لهم البلاد الأفرنجية بفضل القضاء والقدر.

وكما حدث الخلط عند الأفرنج بين الجبرية والقضاء والقدر حدث خلط مماثل عند بعض العلماء المسلمين المزيفين بين القدرية وهم المعتزلة والجبرية. فهاجم أحدهم الزمخشري ومؤلفه "الكشاف" وأخرج من قرأه من عداد أهل السنة وأدخله فى زمرة الملحدين لأنه من المعتزلة المدافعين عن الجبرية! لذلك أدانته ابن خلدون لأنه أشعري، وكل من خالف ابن خلدون فهو مارق من الدين مضلاً للمسلمين. فالشيخ لا يعلم أن مذهب المعتزلة هو خلق الأفعال أى حرية الاختيار مع أنه يدعى أنه من كبار مدرسة السليمانية، درس كل العلوم العقلية والنقلية والخلافات. ويضع الجبرية والمعتزلة القدرية فى سلة واحدة. ويرى العالم المزيف أن كل الأفعال مسندة إلى الله كما يقول الزمخشري المارق المضل! ويذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية انتقاء لاثبات ذلك وينقد تفسير الفخر الرازى وشرح الكشاف لابن الطيبى. ويدافع الأفغانى عن المعتزلة ككل ولا ينفذ كل آرائهم. ففيها الحسن والقيح. ويمدح واصل بن عطاء لاعتزاله مجلس الحسن البصرى وخلافه معه فى مسألة مرتكب الكبيرة، وقوله بالمنزلة بين المنزلتين، بين الخوارج وأهل السنة. ثم ينقد الجبرية لتسيانهم الجزء الاختيارى الكسبى. فينتهى الأمر إلى المذلة. وقد ينطبق المذهب على العالم الروحانى أكثر من العالم الجسمانى لأن الأول خال من الإرادة وحرية الاختيار. وينقد تفسير "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" بأن التعموذ معرفة الله بالمحدثات كلها وسبق القضاء الأزلى. فالله أقدر من الشيطان، ومحيط بكل الكائنات والحوادث وهو تناقض. فأما أن يعصى الشيطان وهو ما ينال من القدرة الإلهية أو يكون مسلطاً على الإنسان مما ينال من الحرية الإنسانية. فعندما

يتهم العالم المزيف الجبرية قاصدا المعتزلة بالقول بأن الاستعاذة من الشيطان لا فائدة منها يكون اقرب إلى الجبرية وأبعد عن القول بالحرية الإنسانية عند المعتزلة. كما يدافع الأفغانى عن ابن خلدون ضد اتهمه بالتحذير من الزمخشري بإيراد نص منه. وينتهى الأفغانى إلى الدفاع عن القضاء والقدر لأنه حال الربوبية فى الخلق معيماً على الاستاذ على منلا خان بأن القضاء هو ما قضى به الله فى الخلق وسبق علمه فى اللوح المحفوظ أزلياً، والقدر ما نزل على الأرض بالتدريج حادثاً ومسبباً. ويكون محمد عبده قد تقدم خطوة على استاذة ببقائه أشعرياً فى التوحيد وتحوله إلى الاعتزال فى العدل لقوله بالحسن والقبح العقليين وبحرية الاختيار دون الاكتفاء بحسن تأويل القضاء والقدر^(١).

٢- العقل والتكليف

وإذا كان أصل العدل يشمل عقيدتين عند المعتزلة، خلق الأفعال، والعقل أساس النقل أو الحسن والقبح العقليين فإن الأفغانى يحاذى أصل العدل عن المعتزلة ولا يدخل إليه كلية كما فعل محمد عبده. فالعقل مناط التكليف قبل ورود الشرع عند الأفغانى. وهو أعظم ما خلق الله. كرم الله الإنسان به لأنه أشرف المخلوقات. وهنا يبدو الأفغانى معتزلياً قحاً. وإذا صح القضاء والقدر بمعنى الجبر بطل الثواب والعقاب. ويعتمد الأفغانى على منلا خان لإثبات إباحة الإسلام الجدل بالتي هى أحسن استجلاء للحقيقة أى استعمالاً للعقل. وتم تكليف الإنسان وحده دون الحيوان والجماد لتحمله مسئولية الأمانة باختيار حر. فعل الإنسان مرجح بين الفعل والترك، والأفعال خارج الترجيح لا ثواب ولا عقاب عليها. تسخير كل ما فى الأرض له وجعله خليفة الله فى الأرض. وهذا كله لا يتعارض مع علم الله بكل المحدثات وقدرته على كل شئ. فكلا الإثباتين شرعيان، عقل الإنسان وحرية، وعلم الله وقدرته.

(١) حاضرات ص ٣٢٩-٣٧٢.

خلق الله الإنسان وأودع فيه العقل لمعرفة أسرار الكون كما قال ابن عربي
وتحسب أنك جرم صغير .: وفيك انطوى العالم الأكبر^(١)

الإنسان نفسه من أكبر أسرار الكون. ويستجلى بعقله ما غمض عليه عن
طريق العلم. فما كان خيالاً أصبح حقيقة. يقلب الإنسان النظر في الفضاء والبحار،
ويقلد الطيور والحيثان فتتكشف الطيارات والغوصات والصواريخ، ويتحرر العقل
من الأوهام كل يوم. وليس بمستحيل إيجاد مطية توصله إلى القمر أو الأجرام
الأخرى (وقد حدث بالفعل). فالعقل ليس فقط مناطاً للتكليف وسنداً للحرية
والمسئولية متوجهاً نحو الفعل، ولكنه أيضاً الطريق إلى العلم واكتشاف قوانين
الطبيعة متوجهاً نحو العالم^(٢).

ويدافع الأفغانى عن السببية وانتظام حوادث الكون فى قوانين ثابتة يدركها
العقل، وينكر وقوع الصدفة فى الكون. ومن ثم يتأسس العلم، ويتم تفسير الظواهر
الطبيعية. وتخضع الأحياء أيضاً للقوانين مثل هروب الجرذ من الأفعى ولجوء
الإنسان تحت الشجرة للوقاية من ظواهر الطبيعة. ويحيل الأفغانى إلى القرآن
﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾. فالعلم هو العلم بتسلسل الاسباب. ولولا قصر العمر
لعلم الانسان أشياء كثيرة كما يقول القرآن. ﴿يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم
شيئاً﴾. لذلك كانت العلوم باستمرار ناقصة مثل علم الطب الذى يكتشف كل يوم
شيئاً جديداً. ولا يعرف كنه الكهرباء حتى الآن. عرفه القدماء فى شكل الحجر
الصوانى. ويقول علماء اليوم إن الأصل الماء - الحركة ومنها تتولد الحرارة، مثل
ما قاله أبو بكر ابن بشرون منذ أكثر من ألف عام. وإذا كانت حقائق الأشياء ثابتة
فإنه يتعذر على فرد واحد العلم بها لأن العلم تراكم معرفى تاريخى بين جماعات
متعددة وعبر العصور^(٣).

^(١) والبيث الصحيح الذى تسعف به ذاكرة الأفغانى هو :

وتحسب أنك جرم صغير .: وفيك انطوى العالم الأكبر

^(٢) خاطرات ص ٣٣٦ / ٣٤٣.

^(٣) الإنسان وحقائق الكون ، الأعمال ص ٢٦٢ - ٢٦٥ خاطرات ص ١١ - ١٢ / ١٩٥ - ١٩٥.

وبالعقل والتكليف والعلم تنشأ الصناعة وتعنى العمران كما هو الحال عند الطهطاوى. فالإنسان من الحيوانات الأرضية، وليس من الحيوانات السماوية كما كان يزعم حكماء الفرس والصين. نشأ فى الطبيعة راعياً وصانداً وزارعاً، يتعلم من الحيوان الدفاع والهجوم. لم يكن قد تربيع بعد على عرش الوجود بل كان جاهلاً بحقائق الكون، هيباً من العالم. هذا حال القبائل فى جنوب أفريقيا التى لم تختلط بالعالم ومازال فيها سذاجة الفطرة. ثم تحضر الإنسان بالكد والعناء وبقوة العقل فى التصريف. وقد تحقق ذلك فى الصناعة التى اخترعها بقرته العقلية لتكوين عوض له عن ضعفه. فصناعة الحياكة تحمى جسمه مثل الحيوان. وصناعة الحديد والأسلحة بدلاً من المخالب. ومن هنا أتت أهمية الصناعة وأقسامها الأولية. الصناعة قوة تتجاوز الأفعال الطبيعية مثل حرق النار، وتزداد قوة. وبالفكر الصحيح يتم اكتشاف نظام الكون. وتستعمل القوة ليس فقط لخدمة النفس كما يفعل الحيوان بل لخدمة الغير. العقل آلة الإنسان وقوته. وعمله الصناعة. فالصلة بين العقل والصناعة كالصلة بين النظر والعمل. ينظر العقل فى كلية العالم فيدرك النوع الإنسانى، ويعمل على حفظه وكماله. ويرى أن ذلك يتم بالاجتماع والزراعة والحداثة والتجارة والحياكة ثم التخصص فى بعض منها حتى ينشأ من مجموعها التعاون الإنسانى. وذلك مثل أعضاء البدن التى فى مجموعها وعلى تخصصها تكون البدن. وتتقسم إلى صنائع طبقاً للمنفعة والضرورة والكثرة والكمال والتمام إلى ثمانية: ناقصة ضرورية كالحداثة، ناقصة غير ضرورية كقص الثياب، نافع للإنسان وحده كالحكمة، خيرة بالوسط مثل الزراعة والكتاب، ولها غايات سوى نفس الإنسان ولكن تؤول إليه، كثيرة النفع كالنجارة والتجارة، قليلة النفع مثل صناعة الصيد، متممة لفعل الطبيعة مثل الطب المتمم لأفعال القوى الحيوانية المساعد لها على وظائفها، ومزينة له مثل الصباغة والنقش والتلوين. وتتفاوت هذه الصناعات الثمانية شرفاً وحكمة. أعلاها الحكمة لأنها تبحث فى كل شىء. فهى أشرف الصناعات، وغيرها خادم لها. وهو نفس تصور الفلاسفة القدماء خاصة الفارابى^(١). هنا يأخذ الأفغانى وجهة نظر أنثروبولوجية فى نشأة الصناعات تقليداً للحيوان فى الطبيعة.

(١) فلسفة الصناعة ، الأعمال ص ٢٥٥-٢٦٠.

ثم يتوجه الأفغانى بعد ذلك إلى نقد التصوف المناهض للعقل والتكليف والعلم والصناعة. وينقد الإباحية أى عدم العمل، ونفى الملكية وإباحة الشيوع، وترك الأعمال. وهى أمراض المجتمع مثل الفسوق والفجر. ومثلها البطالة وترك الأسباب بدعوى التوكل الكاذب ومعارضة سنن الله فى الكون، وانقطاعاً عن عالم الظواهر مع التخلي عن التعفف. ولا سبيل إلى تحقيق الصناعة إلا بتطهير المجتمع من كل هذه القيم السلبية التى يروج لها التصوف كما يتم التخلص من شر الأبط. إذ يدعو الصوفية إلى الزهد والبطالة وترك العمل، وهم أقرب إلى الطمع والرياسة الكاذبة والحدود والحسد ونهب أموال الناس بدعوى الإباحية. فلا قوام للإنسان إلا بالصناعة قوام البنيان الإنسانى^(١). وهنا يبدو الأفغانى كالعادة رافضاً الاشتراكية التى يسميها الإباحية، ويدافع عن الملكية الخاصة كما تفعل الاتجاهات الدينية الرجعية المحافظة فى المجتمع التجارى مدافعة عن الرأسمالية باسم الدين.

والعقل والفعل أو النظر والعمل ليسا بغريبين على الإسلام. العلوم والسياسة فى صلب القرآن. فكل شؤون السياسة من سلطان وحكومة وشورى فى القرآن فى سورة النمل، فى قصة سليمان والملكة سبأ والهدد. الملك يتفقد الهدد. فلا يجده. والهدد يأتية بالأخبار، امرأة ملكاً وقومها يسجدون للشمس، ثم رسالة من سليمان لها، ومشورة سبأ، وحكمها على الملوك والفساد واذلال الأعزة، وإرسال هوية إلى سليمان لعل المال يكون مطعماً له. فردها سليمان إيذاناً بالحرب. ثم نقل عرشها إلى القدس. كل ذلك مثل العلوم الحديثة، الطائرة واللاسلكى، والانتقال من البطء إلى السريع، من احضار سبأ قبل أن يقوم سليمان من مكانه إلى سرعة أكثر قبل أن يرتد إليه طرفه مثل المغناطيس. كما أشار القرآن إلى كروية الأرض ﴿والأرض بعد ذلك دحاه﴾، ودوران الشمس حول محورها ﴿والشمس تجري لمقر لها﴾، وانفصال الأرض عن الشمس ﴿كانتا رتقا ففتقناهما﴾ وقناء العالم باختلال النظام الشمسى بالزلزال ﴿إن زلزلة الساعة شئ عظيم﴾ ، ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾، ومحاور الأرض الأربعة ﴿وترى الأرض بارزة﴾ ، ومن علم الاقتصاد تجميع الثروة وجباية العشر وقت الحصاد كرسوم ﴿وأتواحقه يوم حصاده﴾^(٢). وواضح أن

(١) فلسفة الصناعة، الأعمال ص ٢٥٥ - ٢٦٠.

(٢) السياسة والعلوم فى القرآن، الأعمال ص ٢٦٧ - ٢٧٠ فيما اشتمل عليه القرآن من تدبير المسالك وأصول الحكومة الشورى ووظائف الملوك "إن الدين لا يبعى ولا يصح أن يخالف الحقائق العلمية ولزوم

رجوع التأويل"، المحاضرات ص ١١

الأفغانى من أنصار رأى المعاصرين أن العلوم فى القرآن، الطبيعية والإنسانية. كما يحدث، فى برامج "العلم والإيمان" وفى تيار أسلمة العلوم، أخذ العلوم الغربية ثم تأويل القرآن طبقاً لها سلباً أو إيجابياً. فالغرب يبدع والمسلمون يؤولون النصوص طبقاً لأبداع الغرب. مع أن القدماء أبدعوا العلوم بعد أن تحول النص إلى تحرير للعقل وتوجه نحو الطبيعة، اكتشاف السيادة والعلوم فى القرآن لا يؤيد ما يدعو إليه الأفغانى من عقل وتكليف وعلم بل يودى إلى الكسل والتقليد والنقل، النقل عن العلوم الغربية ثم الاكتفاء بتسليط الآيات القرآنية عليها قبولاً أو رفضاً، وتحكماً للنص فى العقل والتجربة. يوهم المسلمون أن القرآن به كل شىء، فيستفيدون من علوم الغرب نقلاً بعد ختمه بطابع القرآن. فإذا ما تغير العلم الغربى تغير التأويل والطابع والختم. فيصبح العلم الغربى هو الثابت، مع أنه متحول، ويصبح القرآن متحولاً مع أنه هو الثابت. ويوهم المسلمون بأنهم حصلوا على الحسنين فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا علم الغربيين الذين سخرهم الله للمسلمين، وإيمان المسلمين الذى حرم الله منه الغربيين. فالغرب لديه العلم دون الإيمان فهو الخاسر، والمسلمون لديهم العلم والإيمان، وهو الفتح المبين. وقد اعترف الغرب بفضل العرب على العلم الغربى نفسه مثل الجبر الذى وضعه أبو السمع والجادية التى اكتشفها أبو بكر بن بشرون قبل نيوتن فى القرن الثالث للهجرة واعترافه بوجود قوة حاسة قابضة منعكسة من المركز، الأرض، فى تفسير مركبات الكيمياء. كما اكتشف التحليل والتركيب تلميذ المجريطى فى القرن الثالث كما ذكر فى رسالته إلى أبى السمع التى يذكرها ابن خلدون بتعبير الحل والعقد. واكتشف ابن بشرون الفوسفور واستحضاره. ويقول المؤرخ الألمانى هوفر لتاريخ الكيمياء إنه وجد رسالة مترجمة إلى اللاتينية لبشير من علماء العرب يبين فيها استحضار الفوسفور من الأدرار، ويسميه الياقوت الجمرى الاصطناعى. واكتشف ابن بشرون استحضار الأوكسجين من حجر المغنيسيا، ويسميه روح حساسة أى غاز. وكذلك أكتشف الأيدروجين وخواصه مثل اطفاء الأجسام الملتهبة. واكتشف جابر بن حيان حامض الأزوت فى القرن الثانى. كما اكتشف الرازى حامض الكبريت فى القرن الثالث. وعرف استحضاره، وذكره فى الحاوى، وسماه روح الزاج. وبتقطير كبريت الحديد يستحيل إلى حامض الكبريت وهو أهم الحوامض وأنفعها فى الصناعة. واكتشف المجريطى الذى انتهت إليه الرياسة فى الاندلس فى القرن الثالث، فاعتبر الكيمياء ثمرة الحكمة، تم بالصناعة، وعمل المعادن الخسيسة، وتحولها إلى ذهب وفضة. وقد أنكر ابن خلدون على المجريطى وابن بشرون قولهما بصحة الكيمياء لأن رسالة

ابن بشرون من قبيل الأغاز مع أنها واضحة وفنية صرفة. وهو علم جليل أخذه الأوروبيون عن العرب قبل لأفوازييه. وقد دل ابن بشرون في رسالته إلى أبي السمع على الحجر الفلسفي أو حجر الحكمة. وذكر مع التحليل والتركيب التقلب وهو تغير جوهر الشيء. ويمكن بالتفاعل حدوث جسم معتدل منها البوتاس دون تمويه على المذج من انقلاب الورقة ديناراً. كما ذكر التثيف. فالصابون لا يمكن تثفيفه بالهواء ولا بالشمس أو الحرارة. كما ذكر التنقية أو التطهير. وذكر التكليس بالاحتراق أو ضغط الهواء. ومكتبة بغداد والاندلس والقيروان وماترجم في عصر العباسيين وما حققه العرب من المباحث كانت وأوروبا مازالت في عصر الجايد^(١). وهكذا يضع الأفغاني التقابل بين علم القدماء وجهل المحدثين، ويضرب المثل بعلم الكيمياء رافضاً استعماله كأداة من أدوات السحر. بل إنه ينقد ابن خلدون لهجومه على علم الكيمياء لادخالها كلمات أعجمية.

لذلك يرد الأفغاني رداً شهيراً على رينان الذي هاجم الإسلام في نقطتين: الأولى أن الديانة الإسلامية كانت بمالها من نشأة خاصة مناهضة للعلم. والثانية أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لعلوم ما وراء الطبيعة والفلسفة^(٢). ويرد الأفغاني على النقطة الأولى بأن مناهضة العلم ليست في الإسلام نفسه بل في صورة الإسلام في العالم أو في أخلاق بعض الشعوب التي اعتنقت الإسلام خاصة إذا كان هذا الاعتناق بالقوة. ثم يتحول الأفغاني من الدفاع إلى الهجوم مبيناً أن رؤساء الكنيسة الكاثوليكية مازالوا يحاربون التديليس والضلال ويقصدون به الفلسفة. ويرد على النقطة الثانية بأن العرب خرجوا بسرعة من حالة القبيلة إلى حالة الأمة، تعادل سرعتهم فتوحاتهم السياسية. وفي خلال قرن، عرفوا العلوم اليونانية والفارسية، وحفظوا آثار روما وبيزنطة. ثم وسعوها وأضافوا عليها. وهو ما لم يفعله الإنجليز والفرنسيون والألمان. وظلوا ناقلين لروما وبيزنطة اعتماداً على العرب وتراثهم في المشرق والمغرب. وقد أخرج العالم الإسلامي على مدى خمسة قرون مفكرين وعلماء، أدباء شعراء. ولكن رينان يعتبرهم من أصول غير

(١) أصالة العرب العلمية، الأعمال ص ٢١٢-٢١٣ فيما سبقت إليه العرب من العلوم والفنون، خاطرات

١٥٦-١٥٧/١٥٨-١٦٤.

(٢) الرد على رينان، دفاعاً عن العروبة والإسلام. الأعصاب ص ٢٠٨-٢١٠.

عربية، حرائية أو أندلسية أو قارسية. ويرد الأفغانى بأنه إذا كان العلماء فرساً فإن الحرائيين عرب، والعرب بعد فتح إسبانيا ظلوا عرباً. واللغة قبل الاسلام كانت لغة الحرائيين برغم كونهم من الصائبة. وكان أكثر نصارى الشام عرباً غسانيين. ولم يكن ابن باجة وابن رشد وابن طفيل أقل عروبة من الكندى. ونبليون نفسه ليس فرنسياً. وكثير من العلماء الذين استوطنوا ألمانيا أو إنجلترا أتوا من خارجها. لقد وحد الإسلام بين الشعوب، ولم تعد هناك جنسية غير الإسلامية. وإن تصور الجنسيات فى دراسة تاريخ الأمة الإسلامية هو إسقاط من الحاضر على الماضى، ومن الغرب على الشرق، ومن الثقافة الغربية على الثقافة الإسلامية^(١).

٣ - العلم والعمل

إذا كان العقل مناط التكليف وطريق العلم فإن العلم طريق العمل. ولا يحصل علم دون تحرير العقول من الأوهام. فإن قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام. العقل أشرف مخلوق. فهو عالم الصنع والإبداع ولا معطل له إلا الوهم، ولا يقعه عن عمله إلا الجبن. وهو الذى يخيل المفقود موجوداً والقريب بعيداً. وكل شئ فى هذا العالم خاضع لمطلق العقل الإنسانى. والمستحيل اليوم فى العلم يكون ممكناً غداً فى العلم والصناعة. وأن ثمرة العقول لا تجتنى إلا بإطلاقها من قيود الأوهام. والحقائق لا تزول بالأوهام بل العلم والتحليل والعقل. فالحقيقة تثبت وتقتضى على الوهم^(٢).

^(١) الإشارة إلى مقدمات العلوم والفنون الحديثة. فيما سبق إليه العرب من العلوم والفنون ، وأدلة الأفغانى على أن الكيمياء تم بالصناعة، وأنها ثمرة الحكمة، ويقتضى لها تحقيق ورسوخ فى عمليات تلك الصناعة وتفنيد لأدلة ابن خلدون، خاطرات ص ١١ استحسان الأفغانى كرنليس فان دايك المستشرق لمؤلفاته والثناء على صورته، أن العرب تركوا كنوز ومفتاحها النحو والصرف وتصورنا أن المفتاح هو الكنز ولم نفتح الباب، خاطرات ص ٣٩١.

^(٢) "قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام العقل أشرف مخلوق". "فهو عالم الصنع والإبداع، ولا معطل له إلا الوهم، ولا يقعه عن عمله إلا الجبن. وهو الذى يخيل المفقود موحوداً والقريب بعيداً". "كل عناصر الوجود فى هذا العالم الفانى خاضعة للعقل المطلق الإنسانى. فكل مستحيل اليوم فى الطب والصناعة سوف يكون غداً ممكناً" الأعمال ص ٣٢٤ "ثمرة العقول لا تجتنى إلا بإطلاقها من قيود الأوهام" الأعمال ص ٢٧٩ خاطرات ص ٣٩٤ "الحقائق لا تزول بالأوهام". "الحقيقة منها ما ثبتت وتغلبت على الأوهام" خاطرات ص ٣٩٥.

ولا يكتفى الأفغانى بهذه الأقال المأثورة عن العقل والوهم بل يحلل الوهم ويطبقه فى العمل السياسى. فالوهم ليس مجرد خداع فى النظر وخطأ فى الإدراك بل له تحقيقات عملية فى التوهم أى خداع النفس مثل التوهم بأن الإنجليز سيساعدون المسلمين ضد أطماع المستعمرين الهولنديين والبرتغاليين فيهم، وأنهم جاءوا إلى مصر لمساعدة توفيق ضد ثورة عرابى عليه، وجاءوا إلى الهند لحمايتها من الاستعمار البرتغالى والاسبانى. الوهم مرآة للمزعجات والمسرات، بصور الواقع على غير ما هو عليه، يحجب الحقيقة عند الرؤية، ويسلط على الإرادة. يجعل الضعيف قوياً، والقريب بعيداً، والأمان خوفاً. يصرفه الوهم عن حسه. يتخيل الموجود معدوماً والمعدوم موجوداً. كان الإنجليز أمة مجتمعة القوة، مستكملة العدد، مستعدة للفتوحات فى وقت كانت الأمم الشرقية مفككة جاهلة بأحوال الغربيين، يعدون كل غريب معجزة، وكل بديع سحراً أو كرامة. انتهب الإنجليز الفرصة، واندفعوا إلى الشرق ويسطوا سلطانهم على أرجائه، وأوهموا الناس بالأعاجيب والحيلة والمكر، وسلبوا أموالهم، وانتزعوا أراضيهم. ثم تنافست على ذلك الدول الأوروبية. والوهم يمثل للشرقيين أن الإنجليز أصدقاء، ويمثل للغربيين أن إنجلترا دولة منعزلة بعيدة. ذهب الإنجليز إلى الهند، وتسايقوا مع فرنسا وهولندا والبرتغال على الاستيلاء على أراضي الهند. وساعدتهم على ذلك غفلة الهنود، فمالوا إلى الإنجليز، وصدقوا أنهم يريدون تخليصهم من الدول الظالمة، فرنسا وهولندا والبرتغال. وأصبح للإنجليز سلطان على الهند والهند الصينية وبورما ولا تزيد قوتهم على خمسين ألف إنجليزى، مع أن الممالك الصغيرة يمكنها جمع قدر هذا العدد عشرات المرات، بالإضافة إلى ما عند الأهالى من سلاح. استولى الوهم على المشاعر فاستولى الإنجليز على الأراضي. وفى الدول العربية هناك من يهاب دولة الإنجليز تحت وهم أنهم سيدافعون عنها. وبعض الدول الأوروبية تهاب الإنجليز مثل إيرلندا. وينظر العثمانيون إلى الإنجليز كما ينظرون إلى الروس. ويظنون أن معارضتهم تجلب الضرر. وظنوا أن الاعتماد على إنجلترا يجلب النضج، والدولة العثمانية أكر عدداً وعتاداً. وإنجلترا توهم الهنود أنها خليفة الدولة العثمانية. ولوأن العثمانيين استعملوا سلطتهم على الإنجليز والهند لما ضاعت الهند. كما تعدت إنجلترا على حقوق السلطان فى المسألة المصرية وهى مسألة عثمانية.

وكان المصريون أيام عرابي قسمين، قسم من أنصار توفيق وقسم يميل إلى عرابي. الأول فشل، والثاني ارتاب. ولا عزيمة مع الشك. فدخل الإنجليز مصر بلا حرب، بالترهيب والترغيب والادسائس. ففترق الناس عن عرابي، وأوهموا أن الإنجليز يؤيدون توفيق. فتساهل المصريون معهم، وأحسنوا الظن بالإنجليز. فاستقرت أقدامهم مع أنه لا يوجد أحد من المصريين يميل إليهم. بل هناك من ييغضهم. لكن الوهم يكبح العزيمة. ذهل المصريون عن الأسباب التي مكنت الإنجليز من البلاد ظانين أنهم على كلمة واحدة في مدافعة الإنجليز مع أن الإنجليز دخلوا بمعونتهم. احتلت مصر بالوهم، وهم أن العساكر قادرة على قهر الأهالي، فاستسلموا، مع أن إنجلترا لا تستطيع أن ترسل إلى مصر أو السودان أكثر من عشرين ألف جندي لا يستطيعون مقاومة المصريين والسودانيين على سواحل مصر وبحيراتها. صحيح أن للإنجليز قوة بحرية ظهرت في سواكن ولكنها تعجز عن العمل أكثر من فرسخين مع منائئة الأهالي لهم من الأرض. لكن الوهم حجب الأبصار. وقد أزال الأوروبيون الوهم عن أبصارهم، وأدركوا ضعف الإنجليز. كذلك على الشرقيين إزالة الوهم وعدم إستبدال سيد بسيد^(١).

لا يستطيع الوهم أن يغلب الحقائق مثل خداع الشرقيين والمكر بهم. فللوهم آثار قوية في الأمم الضعيفة. له سلطان على الإرادة وحكم على العزيمة. يذهل الواهم عن نفسه ويصرفه عن حسه، يخيل الموجود معدوماً، والمعدوم موجوداً. الوهم كون غير موجود، وعالم غير مشهود. هو روح خبيث يلبس النفس وهي في ظلام الجهل. إذا خضعت الحقائق سادت الأوهام، وتسلطت على الإرادات فقاد إلى الضلالة^(٢).

ويرتبط الوهم بالجبن. فالجبن أب الوهم ومربيه. ويبدأ مقاله عن "الجبن" كالعادة بآيتين قرآنيتين ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾، وهو الذي قضى على دعائم

^(١) الوهم، الأعمال ص ٣٦٩-٣٦٥.

^(٢) الوهم، الأعمال ص ٣٦٥ / ٥١٧.

الملك، وقطع روابط الأمم، وأوهن عزائم الملوك، وأضعف قلوب الناس. يسهل على النفوس تحمل الذل والعبودية والهوان، وتلقى الإهانة بالصبر وطأأة الرأس. الجبن عار، وتخاذل النفس عن المقاومة، مرض نفسى، يرجع إلى الخوف من الموت ﴿وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾. الجبن فخ ينصبه الدهر، ينفع إلى خيانة الأوطان، والكذب والنفاق.

ومن يهن يسهل الهوان عليه .: ما الجرح بميت إسلام

والمسلمون أبعد الناس عنه. فلكل أجل كتاب ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال، لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾. الإدام فى سبيل الحق سمة المؤمنين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مهمة العلماء دون خوف أو جبن. وفرقة السيوف بغير فتك، والتبخر بلامه الحزب إبان السلم من الأدلة على الجبن فى مواطن القتال. الجبن لا يغنى، والشجاعة لا تنقذ فلم الجبن دون الشجاعة؟ لولا الوهم والجبن لما احتل الإنجليز الشرق. ولو أدرك الشرقيون قوتهم الطبيعية لا تكشف ضعف الإنجليز. ربح الإنجليز بالمكر والحيلة، وخسرت الأمة بالجبن والوهم. كان الإنجليز أمة مجتمعة القوة مستكملة العدد مستعدة للفتوحات، والشرقيون مخرقون فى حجب الجهل بالصنائع فأعدوا كل غريب معجزة، وكل بديع سحراً أو كرامة. فإذا انتهز الإنجليز الفرصة وسيطروا على الشرق، على الأمة إذن التحرر من الوهم والجبن وأن تعود كما كانت أسوداً تسترد المفقود وتحافظ على الموجود.^(١)

والوهم مثل الجهل ضد العقل والعلم. فما استحکم الجهل الا وتفرقت الكلمة. ووجود الجهل فى غياب العلم، وإذا وجد العلم غاب الجهل. وإذا خلا الميدان من العقلاء تسابق الجهلاء. وإذا ساد الجهال ساءت الأحوال. والجاهل الحى ميت، والعالم الميت حى. والعالم الفقير غنى بعلمه، والغنى الجاهل فقير بجهله. وانتهزام

^(١) الجبن، الأعمال ص ٣٧١/٣٧٤ خاطرات ١٩٤/٣٨٧-٢٥٨-٢٦٠.

العقلاء أما الجهلاء أولى من الظفر بهم. وشر الأزمنة أن ينبج الجاهل ويسكت العاقل، فالجاهل أعلى صوتاً والعالم أكثر صمتاً^(١).

والعلم هو العلم الواضح دون تطويل للمقدمات أو سقم للنتائج، ومع ذلك فالقياس منهج العلم. القياس هو البرهان وليس قال يقول، أقوال الناس. وإذا ما تعارض السماعي مع القياسي أى النقل مع العقل فإن فى أحدهما عوج أو انحراف. إذ لا يحق لأحدهما أن يمنع الآخر. فإذا ما جاز انحراف السمع فإنه لا يجوز أعوجاج العقل، ومن ثم فالعقل أساس النقل^(٢). لذلك ينقد الأفغانى رجال الدين الذين أضاعوا حقائق الدين بين سوء معقولاتهم وعدم تفهم منقولاتهم.

والعلم هو العلم الحى وليس العلم الميت، العلم فى الرأس وليس فى الكراس، العلم الشفاهى وليس العلم المدون، العلم فى القلب وليس العلم على اللسان. فالعلم الحى فى الصدر الحى. ومقبرة العلوم خزانات الكتب. كان مقر العلم فى الرأس والصدر ثم انحدر إلى الجبة والسطر. وأصبحت صورة العالم "عمامة كالبرج وجبة كالخرج". وكما أن عظمة الملك لا تكون بالتيجان فلن وقار العلم لا يكون بالطيلسان^(٣). وينقد الأفغانى رجال الدين الذين يطلون ويحرمون بغير نص. وقد نهى الرسول عن ذلك. وكان قد رأى شيخاً بعمامة كالبرج وجبة كالخرج أخذ بتلابيب رجل بجوار جامع الأستانة لأن لبس القميص حرام وكفر لأنه من صنع الأفرنج الكفار مع أن عمامة الشيخ وجبته من صنع الأفرنج. ولايستوى العالم والجاهل كما لا يستوى الملك والرعية والأمير والصعلوك وإلا لما نفع فى الشرق لسان أو قلب. والعلم نور داخلى. وعماء البصيرة أضر من عماء البصر. وكم من أعمى نبغ، حسده ويحسده المبصرون، وكم من أبكم بإشاراته أفصح من عيى بكلماته. ولذلك يتم الحجر شرعياً على الفرد السفية^(٤).

(١) الأعمال ص ٢٤٢: خاطرات ص ٣٨٩/٣٩٠.

(٢) خاطرات. ص ٣٢٩-٣٦٣-٣٨٣/٣٦٩.

(٣) خاطرات ص ٣٨٨/٣٢٩ ص ٣٢٩-٣٦٣/٣٩٧.

(٤) خاطرات ص ٣٩٤ / ١١.

والعلم للجهر والإعلان. فالصامت عن حقه محروم. وصاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته كان أولى بالخرس. وإن أكبر دليل على كبر الهمة مجاهرة المرء بمخالفته المؤلف إذا تحقق بطلانه. ويكون التعبير عن الحق بلا اختصار مخل أوتطويل ممل. فقلة الكلام لا تكون في الغالب دليلاً على الكمال. وليس في كل اختصار بلاغ. وفي نفس الوقت التكلف للسجع ينفر منه الطبع، ويحسن وقعه إذا جاء عفواً. وإن أحقر صناعة لنحات أنفع من نقعر النحاة. وأن أظهر الآداب وأليقهما بالعلماء والمتعلمين عدم قطع الحديث على المتكلم وتركه يتم ما يريد، أن يرويه من غير أن يسبقه إليه ولو كان من منسياته^(١).

والعلم الصحيح نسب صحيح بل وراثته الذبوة طبقاً للحديث المشهور "العلماء ورثة الأنبياء". العلم يتراكم حتى يحدث الوعي العلمي، والوحي يتوالى حتى يكتمل ويحقق غايته في إعلان استقلال العقل وقدرته على الفهم واستغلال الإرادة وقدرتها على الحرية والاختيار. وكل دعوة تستند إلى علم. فكثرة النصراء لداع أو لدعوة عن غير علم منهم بصحة الدعوى ذلة ومذلة. وقليل من النصراء لدعوة عن علم مكانة واستطالة^(٢).

والعلماء والعقلاء لا يصح أن يكونوا أكثرية في محيطهم. وحكيما عاقلان في أمة مجموعها مليون خير من ألف متعافل ومدعى حكمة فيها. ويقل العلماء حتى يكثر المتطفلون والمدعون. هنا يبدو الأفغاني من أنصار الأقلية المؤمنة والنخبة العالمية القادرة على قيادة المجتمع، نخبة العلماء والعقلاء والحكماء. فالعالم الحق يساوي نصف مليون من مجموعة الأمة. ومن ثم تكمن الخطورة في مدعى العلم والحكمة والمتطفلين عليهما^(٣). وهى النظرة النخبوية الموروثة عن تاريخ الأنبياء والنصابة والحواريين والتي مازالت مهيمنة حتى الآن على الجماعات الإسلامية المعاصرة. ومع ذلك علماء العصر يظهرهم العصر، وقادة الأفكار تبرزهم الأخطار في تفاعل جلى بين القيادة والجمهور والعصر. والعلم هو العلم

(١) خاطرات ص ٣٨٨-٣٨٩/٢٤٢-٦٥/٢٩١/٦٧-٣٩٥. الأعمال ص ٥٣٦-٥٣٧/٤٩٦.

(٢) الأعمال ص ٢٤٢ خاطرات ص ٣٨٧/٣٨٩.

(٣) خاطرات ص ٣٨٩.

بالغاية. إذ ليس فى الإنسان عضو يتحرك لغير قصد وغاية. فكل حركة يعملها الإنسان لا يعلم غايتها يحكم عليه بالجهل. العلم هو العلم بالعلة الغائية وليس بالعلة الفاعلة بالضرورة كما هو الحال فى العلم الطبيعى. العلم الإنسانى يتحدد بغاياته ومقاصده. العلة الغائية هى العلة الفاعلة بالحقيقة كما هو الحال عند إقبال وفشته. العلم على ما به من جمال لايرضى الإنسانية كل الارضاء لأنها تتعطش إلى مثل أعلى، وتحب التحليق فى الآفاق المظلمة التى لايسطيع الفلاسفة والعلماء ارتيادها^(١).

وصحيح العلم والذل فقيضان لا يجتمعان لأن العلم يهب القوة والعزة. وصاحب القلم لا يحتاج إلى عصا لأن علمه قوة. ولولم يتنازع الخلق على الحق لما كان ثمة باطل. فالعلم نضال بين الحق والباطل. وبعض الخلق يرضون بالموت خوفاً للموت، ويلبسون لباس الذل خوفاً للذل، فيموتون بالذل. ولكن بعض الشرقيين يرون الحقيقة مرارة، والوهم حلوة، والذل هناء، وطلب العلا والعز الشقاء والعناء. وقد شكى إليه مرة رجل من الأدباء عدم صرف رواتبه فشجعه جمال الدين لأن الدخول فى باب الذل يثمر الذل. والشرق فى فقر لخوفه من الفقر، وفى موت لخوفه من الموت. فالذهاب إلى السلطان بمنطق الاستغناء، ومنطق الهمة ورفع الصوت أدعى لاسترداد الحقوق. والذل نتيجة للجبن الذى يقعد بالنفوس عن العمل، وينحدر بها إلى مناطق الزلل. فالجبن يوهن دعائم الملك، ويقطع روابط الأمم، ويوهن عزائم الملوك. فتتقلب العروش، وتضعف القلوب، وتسقط الصروح، وتغلق أبواب الخير، ويسهل للنفوس احتمال المذلة، وتحمل العبودية. يلبس النفس عاراً وموتاً كل لحظة^(٢).

والعلم تواضع، والعلماء أول المتواضعين. والمبتدئ فى أوليات العلوم يظن أنه تبحر فيها وانتهى. والراسخ المحقق يعتقد أنه مازال فى الابتداء. ومحدث النعمة بالمال يستعرضه فى كل مكان، ومحدث النعمة بالعلم يلقه على كل إنسان. وقضايا الجهل فى الإنسان أكثر من قضايا علمه. وعمر الإنسان أقصر من أن ينله

(١) خاطرات ٣٨٨ الأعمال ص ٢١٠.

(٢) الأعمال ص ٢٢٦ / ٢٢١ / ٣٨٨ / ٢٥٤ - ٢٥٧.

ما يجب أن يعلمه. والعلم قشور وإباب. فالواقف على القشور يغرق فى بحر الغرور. والمغرور من لا يرضى إلا عن نفسه وعما يصدر عنه قولاً كان أو عملاً. وطالما كثر الإدعاء المجرد بالمصالح والإصلاح عم الفساد وشمل. ولا تطيب نفس الإنسان بالتواضع إلا إذا علم بعض العلم. فالتواضع لا يعنى الجهل حقيقة أو ادعاء. والإفراط فى التواضع دليل على الادعاء. ويدافع الأفغانى عن صديقه شبلى شميل وأتهامه بالغرور. ويعتبره عزة نفس على عكس السوفسطائى قليل العلم ويطلب الاحترام ويضع النياشين ويدعى أبيهة المنظر^(١).

ويسترسل الأفغانى فى بيان بعض الرذائل التى يمحوها العلم مثل الحسد والنفاق. فأتقّل الأعباء محاولة الحسد سترفضل المحسود. وكثيراً ما ينشأ النزاع بين العلماء لا بسبب العلم بل بسبب الحسد. فالاكفاء فى العصر لا يكونون نى الغالب أصدقاء وكأن السماء لا تسع إلا لكوكب درى واحد. والنفاق ادعاء، وإيجاد من لا وجود له. والمعوج الظاهر من الناس أقل ضرراً من المتلبس بالاستقامة. ومن ظن أنه خدع الناس بالباطل يكون أول مخدوع. والعجيب أن المنافق لا يتصور أن الناس تراه. فهو كالأعمى الذى يظن أن جميع الناس بدون أبصار^(٢).

وأخيراً يبرز الأفغانى ارتباط العلم بالعمل بطرق عديدة. يبدأ العمل بالمبادرة. فالعاقل من أعتقد بعجزه ثم سعى إلى العمل. والاعتماد على النفس والتوكل من أقوى عوامل الظفر. ومن فتح له الباب ولم يدخله. إن أولى بالطرد. والعمل لا يعنى فقط الجهد النظرى ولكنه يضم أيضاً العمل اليدوى. فأصغر صناعة لنحات أنفع من تقعر النحاة. وحمال الحطب للإتجار أنفع من حمار الذهب للادخار. ولا تنفع الحكمة أن لم يشفعها عمل. فطلاب الحكمة كثيرون ولكن ما أقل العاملين. ولا ينفع القول إن لم يتبعه عمل. فالقائد من قاد بأفعاله لا بأوامره وأقواله. والأمير بأفعاله خير من الأمير بأمواله. وألف قول لا يساوى فى الميزان عملاً واحداً. والعمل تحقيق لأمل. فالأمة أرضها الأمل وبنائها العمل. والاستقلال أمل يتبعه عمل وحمل النفس على المكافرة واقتحام المهالك والمصاعب. والحرية تؤخذ ولا

(١) الأعمال ص ٣٠٠ خاطرات ص ٣٨٨-٣٨٩ / ٣٩٥.

(٢) خاطرات ص ٣٩٤-٣٩٥.

تُعطى والاستقلال لاينال بالأقوال. وإذا لم تتذرع الأمة بشكواها من ظالمها بغير الكلام فاحكم عليها بأنها أقل من الانعام. والعمل هو الطريق إلى جنة النعيم حاضراً أو مستقبلاً. فالنعيم والجحيم يتجليان للإنسان فى صور أعمال فيتتعم بالحسن منها ويتألم من القبيح. وقلماً يأتى الحق بدون عناء. فالعمل جهد ومشقة . لذلك كان الأنبياء من كبار العاملين. فمحمد نبي مرسل. وكان قيل النبوة أميناً صادقاً. لم يقتنع بأسود بيته، حمزة وعلى وأبطال قريش والانصار. بل شاركهم فى الحرب، وتكسرت ثيابه. وتخضب وجهه بالدم انتصاراً للحق ومقاومة الباطل. كان معلماً بنفسه لغيره بقوله وعمله. ويتخذ الأفغانى الرسول قدوة صائحاً فى المسلمين "أين المسلمون اليوم من هذا الإقدام وتلك الهمة؟" (١).

(١) خاطرات ص ٣٨٧-٣٨٩/٢٤٢/٣٩٤ الأعمال ص ٢٤٨/٢٦٥/٢٧٠.

الفصل الرابع

الأخلاق الفردية والاجتماعية

١ - الفضائل الفردية

إن أهم ما يميز الإنسان على الحيوان هو الفضائل والأخلاق. فلا خير فى إنسان يفضلته الحيوان. فالإنسان حيوان أخلاقى. والأخلاق هى التى تدل على الإنسان وتعبّر عن جوهره. فأنتم شئ على الإنسان فضيلته ورذيلته^(١). وميسور على الإنسان فعل الأسود، وممتنع على الأسود عمل الإنسان. والإنسان مثل الحيوان قوة، والحيوان ليس كالإنسان فضيلة.

ويفسر الأفغانى مقولتى الحسن والقبح تفسيراً أخلاقياً مثل المعتزلة القدماء، مشيراً بهما إلى الفضائل والرذائل. فالفضائل سجايا للنفس للتأليف والتوفيق كالسخاء والعفة والحياء. أما الرذائل فهى كفيات خبيثة تعرض للنفس، تحلل وتفرق كالقحة والبيداء والسفه والبله والطيش والتهور والجبن والدناءة والجوع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق^(٢).

والغريب أن الأفغانى يجعل الأحكام بالحسن أو بالقبح نسبية على عكس المعتزلة، مرتبطة بحالة الإنسان فى الرضى والغضب. فمن الغرائب فى طبائع الإنسان أنه إذا رضى استحسن القبيح واستسهل الصعب، وإذا غضب عكس الأمر فيستقبح الحسن ويستصعب السهل. فلو مزج الإنسان ساعة رضاه فى ساعة غضبه لوقع على الهيئة المتوسطة وفاز بالفضيلة. فالحكم بالحسن والقبح يتبع الحالة الشعورية للإنسان. ولما كان الشعور فى حالتين متعارضتين كما هو الحال فى

(١) خاطرات ٣٨٧/٣٨٩٠ الأعمال ص ٢٢١

(٢) الحسن والقبح، الأعمال ص ٣٧٦-٣٨٢ خاطرات ص ٣٩٥.

أحوال الصوفية فإن الإنسان يصدر حكماً في حالة التوسط بينهما. وهي حالة افتراضية صرفة إذ إن الحكم الأخلاقي لا ينتظر هذه الحالة المتعادلة، ولا يصدر طبقاً لهذه القسمة الحسابية. ويضرب الأفغانى المثل على نسبة الحقائق والأحكام بأن لكل خط طرفين، ولكل إنسان وجه وقفاً، وهما الفضيلة والرذيلة. الفضيلة وجهه، والرذيلة قفاه. لذلك يختلف الحكم على الأشخاص باختلاف الزمان والمكان والموقف وقصد القائل، مما يجعل الإنسان قادراً على الاقتناع بالشئ وضده في موقفين مختلفين. ويوصل الأفغانى هذه النسبة - على عكس ما هو شائع - في حياة الرسول. فقد تعامل مع أبى سفيان بطريقتين: إذلاله بعبور جيش المسلمين أمامه، وإكرامه بعد الفتح لأنه من سادة قريش. وأثنى على تبختر أبى دجانة طالباً "قريش" للمبارزة، كما أثنى على الخل باعتباره نعم الأدم تطيباً لقلب الفقير^(١).

ثم يعدد الأفغانى بعض الرذائل وبعض الفضائل الفردية وآثارها على حياة الأفراد والجماعات. وربما تكرر البعض منها في "الرد على الدهريين". منها الجبن والذل. فالجبن لا يغنى والشجاعة لا تفقر. والجبن أقبح عيوب الملوك. إذ يحتاج الملك الجبان إلى الصعلوك الشجاع وبالتالي يستمد الملك الجبان وجوده من الرعية الشجاعة. ومن ثم يكون الجبن والشجاعة نقيضين، الجبن من الرذائل والشجاعة من الفضائل. ومن دواعى الذل المسكنة، والسودد مع عزة النفس. وأصغر الناس من يطلب موت الناس ليحيا، وأعظمهم من يستميت ليحيا ولو واحد من الناس. فالحقارة أنانية، حياة الفرد ولومات الآخرون، والشهادة غيرية، موت الفرد ليحيا المجموع. والتسفل أيسر من الترفع لأن الترفع يحتاج إلى جهد ومعاناة وضبط للنفس. وساقط الهمة من علم موقع الفضيلة وصدق الدعوة ولم يبادر إليها بل ينتظر أن يكون تابعاً مقلداً لغيره فيها. وخبت النفس من الرذائل. ومن خبت نفسه لان ملمسه وكثر ختله وخداعه. ومن الرذائل الإسراف في سوء استعمال الصحة. فإسراف الإنسان بصحته أضر من إسرافه بثروته. فالثروة تعوض، والصحة لاتعوض. ومن الأدواء

(١) الأعمال ص ٣٥٠ نسبة الحقائق والأحكام، الأعمال ص ٢٣٢-٢٥٣.

والأمراض ما هي عند أكثر الناس نعمة تفوق نعمة العافية. ومثال الأمراض النفسية جمع المال مع صعوبة التمتع به وتربية الأولاد ثم استطالتهم على الأبوين. ووباء الغرض أفنك من دواء الأمراض لأن فساد النية أخطر من فساد الجسد^(١).

ويعد الأفغانى بعض الفضائل وهي عكس الرذائل مثل الشجاعة والجبن، والترفع والتسفل، والرفعة والذل، والقناعة والطمع، والأمل وطلب المجد فى مقابل سقوط الهمة. وتبدأ الفضائل بحاسبة النفس أولاً، وأمر النفس بها قبل أمر الغير. لو يحاسب الإنسان نفسه كما يحاسب غيره لقل خطؤه وقرب من الكمال. ومن عجز عن إصلاح نفسه كيف يكون مصلحاً لغيره؟ وأقرب مواد العدل القياس على النفس، وعدم أمر الناس بالبر ونسيان النفس. والعاقل من مثل فى نفسه مثال ما استحسن من غيره، فالبداية بالنفس قبل البداية بالغير. والبداية بالنفس شىء طبيعى فى البشر نظراً لأن حب المحمدة هو الدافع لحسن الأخلاق. العالم الإنسانى كتاب مفتوح للنظر والقراءة، للعة والاستبصار لكل ما خطه القدر الالهى. فأول ما يلاحظ نهضة الشعوب وانهيارها وتبدلها فى أطوار مختلفة. فمن الناس من يراها أحداثاً بلا دلالات، ومنهم من يراها عظة وعبرة. والسبب فى ذلك أن الله قد أودع فى الإنسان ميلاً وهو حب المحمدة الحقّة، وحسن الذكر من وجوه الحق، ليس عن طريق الزور والغش والرياء. المحمدة غذاء روحى ومقوم نفسانى. ومن الفضائل التوسط وعدم الإسراف. فالإنسان مسرف فى كل شىء. أذلك كثر بين الناس المفرطون وقل المعتدلون. ومن أعظم مجال الحكمة المحافظة على الهيئة المتوسطة. والفضائل بلا شك هيئات متوسطة بين خلتين ناقصتين. ومن الصعب وضع حد للعة وحصرها بداية وانتهاء. فالعفيف فى المايات مثلاً إذا عف عن أخذ ألف دينار كيف يكون موقفه عن المليون إذا عرض عليه؟ فالفضيلة تختلف كما كاختلافها كيفاً. ومن يقطع اليد فى سرقة محفظة يترك من يسرق الملايين من

(١) خاطرات ص ١٨٧/٢٨٨-٢٨٩/٢٩٢-٢٩٦-٢٩٧ الأعمال ص ٢١٨/٢٢١/٢٣٩/٢٤٢ كم حكمة لله

فى حب المحمدة الحقّة، العروة ص ٢ ص ٦٤-٦٨.

ثروات الشعوب. وربما تكون القناعة أحد أسباب السعادة ولكن ليس لها حد معروف. ومع ذلك فإن أول صفة رافقت الإنسان الأول هو الطمع وفيه العناء وليس له حد. والقناعة وفيها الهناء وحدها ممكن وهو الاكتفاء بالموجود وترك المتشوق للمفقود ولكن لا يعمل بها أحد^(١).

وتتداخل القيم الأخلاقية مع القيم الدينية مثل الإيمان، وهو من أفعال الله كما هو الحال عند الاشاعرة. ومع ذلك ينقد الأفغانى ضعف الإيمان فى نفوس المسلمين وجعلهم مذبذبين، مسلمين فى النهار، منقلبين فى الليل، سنيين وشيعيين، وهابيين وإباحيين. ومن القيم الدينية الأخلاقية الصبر والثبات. وهما فضيلتان مثل باقى الفضائل الأخلاقية، الصدق والكرم والشجاعة. أثبتهما الشعراء مثل زهير والصوفية مثل الجنيد حتى لو كان على الرذائل مثل السرقة وقطع يد السارق ثم اليد الأخرى تم الرجل الأخرى ثم الصلب لأن السارق ثبت على السرقة. الثبات يعنى التمسك بالطبيعة والفطرة ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾، ﴿أولم يروا كيف بيده الله الخلق ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير﴾. والعجيب أن الأفغانى لا يجعل فضيلة الصبر والثبات فقط على الخير، مثل الثبات فى الجهاد من أجل النصر فى مواجهة الجبن، فلا يهزم جيش يتحلى قائده بالصبر والثبات واقتحام الموت قبل الجنود ولكن أيضاً على الشر. بل إن الصبر فضيلة فى الطبيعة، فى النبات. فالقوى من الشجر لا يعجل بلثم. ومن الفضائل الدينية الأخلاقية السعادة. فالسعادة فى الدنيا ضالة البشر. وإذا وجدها أحد قلما يدل عليها. وربما ليست من موجودات هذا العالم الفانى. يراها الأفغانى غاية قصوى يستأثر بها الفرد وكأنها أنانية لايجوز تعميمها على الغير. ويعتبرها خارج هذا العالم كما يفعل الصوفية^(٢).

ثم تعود الفضائل من جديد أخلاقية مثل الشرف. والشرف ليس تشييد القصور ولا الفاخر من الثياب بل حقيقة محمودة، بهاء للشخص وكرامة له. وحقيقة

(١) الأعمال ص ٤٧١/٢٤٨/٢٦٥/٢٢٩ الدافع لحسن الأخلاق، الأعمال ص ٢٨٤-٢٨٧.

(٢) خطرات ١١ ص ١٣٥-١٣٧/٢٢٩ العروة ح ١ ص ١٠٥-١٠٦.

الأنفة وعزة النفس عدم الاتكال على الناس. والأمل وطلب المجد والعلوم يدفع الإنسان إلى العلاء. ويبدأ الأفغانى بآيات قرآنية ﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَنْ يَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾. ويحولها إلى تحليلات نفسية وتاريخية، فردية وجماعية لاثبات أن الوحي الإلهي والفطرة الإنسانية شىء واحد، فالأمل وطلب المجد شىء فطرى. ومحبة الشرف فى قلب الإنسان. والإنسان يسعى إلى المجد بالإلهام الإلهي ويواجه المخاطر لأجله. وكل أمة نالت مطلبها من المجد نالت حظها من السؤدد، ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾. الأمل ينير الطريق، ويبعث الهمم، ويعيد الحياة للأموات. الأمل وحب الكرامة طبيعيتان فى الإنسان. ويعيد الأفغانى ذكر الآيتين الأوليين لبيان الوحي صاعدا من الطبيعة وكأنه يبين أسباب النزول. اليأس ضد روح الإسلام وروح التاريخ ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾. وإن كانت للعامة غفلة فليس للعلماء عذر، ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾. فالراحة بالرضا، والنصب بالطموح. والغرب على الهمة يركب الأخطار وغيره من الفرنسيين الأحرار. فلماذا تقعد الشرقيين الأوهام الباطلة والأحلام الكاذبة وقد كان لهم فى اسلافهم سنة حسنة؟^(١)

وتمثل مجموع الفضائل الأخيرة استرداد الحق ورفع الظلم واستعمال القوة. فلذة استرداد الحق لا تضارعها الهيبة والتهيب. وأمة ثبتت فى جهادها لأخذ الحق ساعة خير لها من الحياة فى الذل إلى قيام الساعة. وصاحب الحق قوى ولو كان ضعيفا، والمبطل ضعيف ولو كان قويا^(٢). واسترداد الحق لرفع الظلم. ولا يكفى فى ذلك الكلام. واعتماد المظلوم على وعود الظالم بالكلام أقتل له من المدفع والحسام. وإذا لم تنتزع الأمة بشكواها من ظالمها بغير الكلام فاحكم عليها بأنها أضل من الأنعام. والظلم حق باق حتى ولو لم يسترد. المظلوم حى ولوماته،

(١) خاطرات ١١/ص ١٣٥-١٣٧/ ٣٣٩ العروة ح ١ ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) خاطرات تنارح البقاء، الأعمال ص ٢٤٣-٢٤٥/٢٤٦-٢٥٢/٢٨٨-٢٨٩ الأعمال ص ٣٨٩.

والظالم ميت ولو عاش. المهم ألا يقع المنتصر للمظلوم فى شرك الظالم. وسجن الظالمين للمصلح رياضة، ونفيم له سياحة، وقتلهم له شهادة وهى أسمى المراتب. ولا خير فى حق لا تدعمه القوة. وإن أضعف ما فى هذا العصر حق لضعيف لا قوة له. وأقوى شىء باطل لقوى يجعل باطله حقاً. القوة صنم مرهوب، والضعف شبح مرهوب. ولا يؤمن بربوبية القوة إلا شبح الضعف. القوة قانون طبيعى، هو أساس تنازع البقاء. إذ تخضع الكائنات إلى ناموس عظيم هو القوة. وظهرت آثاره فى الحيوان والنبات والجماد والأفلاك. فكل حركة اضطرارية تأتينا طوعاً أو كرها. القوة طريق استجلاب المنافع ودفع المضار. وتسمى أيضاً الجاذبية لحفظ نظام الكون. بالقوة يحيا النبات، ويجذب الغذاء، ويدافع عن نفسه بأعضاء لافتراس الحشرات. وتظهر القوة فى عالم الحيوان. القوة مظهر الحياة والبقاء. والضعف يؤدى إلى الفناء. بالقوة تظهر المواليد، وبالضعف يبدأ الموت. القوة الذات تتطلب أضعاف الغير وتسخيرها. لذلك لا تتال الأمم المهضومة حقها إلا بالقوة. فقد امتلكها الاستعمار بالقوة. استعمر الانجليز الهند لضعفها. وامتلك الإسبان المغرب بالقوة. والتحرر لا يكون إلا بالقوة. وما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة. ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾. ولما يأتى الحق بدون عناء. والقبه الجوفاء لا ترجع إلا الصدى. والمصلح الزعيم من لا يفر ولا يتضعضع من أذية اللئام. والاسد لا يعدم فريسة أينما ذهب. ويبدو أن الأفغانى هنا أقرب إلى دارون وتنازع البقاء. ونبشسه وإرادة القوة، وإن رد على الدهريين لأسباب دينية خالصة تتعلق بالخلق^(١)

٢- فلسفة التربية

والتربية هى وسيلة الانتقال من الأخلاق الفردية إلى الأخلاق الاجتماعية. وترتبط فلسفة التربية بفلسفة الطبيعة وتدرجها من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان. وهذا يبدو الأفغانى أقرب إلى نظرية التطور منه إلى نقدها. فإذا توجه العقل إلى الأجسام الحية علم أن قوام حياتها بتفاعل عناصرها الداخلية دون غلبة أحدهما على

(١) خاطرات ص ٢٥٣/٢٩٥/٢٢١/٣١٦-٣١٩/٣٨٨.

الآخر من أجل، حدوث الوسط المتناسب أو التعادل بينها كما هو الحال عند القدماء. ووضعت علوم النبات والحيوان والطب لذلك لإعادة التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم للوصول إلى حالة الاعتدال حتى تحقق حكمة الله في بقاء الأنواع. وقد ارتبطت علوم الحياة بعضها ببعض، وازم الطبيب معرفة علم النبات وعلم الحيوان. والروح الإنسانية تعمل بالتضاد من أجل خلق هذا المزاج المعتدل، وروح الكمال الإنساني. وباجتماع أخلاق متضادة تقوم الأخلاق بالتعادل بينها. فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين التبخير والبخل كما قال القدماء. ويقع الفساد بتغلب أحد الضدين على الآخر. لذلك وضعت علوم التربية والتهذيب لهذه الغرض، المحافظة على فضائل النفس ضد الانحراف والتطرف مثل الطب، وعلاج الأرواح في مقابل علاج الأبدان. وكما يعلم الطبيب منافع الأعضاء يعلم عالم الأرواح منافع الأخلاق ومضارها. وكما أن الطبيب يتصف بأخلاق الشفقة والرحمة كذلك المربون فضلاء لضرورة تطابق الفكر والعمل. وكما لا يتخذ الطبيب الطب للوصول إلى أغراض شخصية كذلك المربي الناصح المرشد يقوم بتوجيه الأفراد نحو خدمة الأوطان والأقوام. هنا يبدو الأفغانى مثل القدماء فى الأتمثال بين طب الأجسام وطب الأرواح مثل الرازى والفارابى وابن سينا وإخوان الصفا. ويقوم هذا الطب على العلة الغائية. فليس فى الإنسان عضو يتحرك لغير قصد وغاية. كل حركة يعملها الإنسان لا يعلم غايتها يحكم عليه بالجهل. القصد هو أساس النظام. فالنظام هو ما انتظم به شمل عالم متفرق يصرفه لوجهة ناقصة. والحجر خير من بشر يقعد لغير علة ويحتاج بشراً مثله^(١).

والعلم هو طريق التربية والتحول من فضيلة للفرد إلى فضيلة للجماعة. فالعالم إن كان أعزلاً فهو بعلمه اجتماعى، والجاهل وإن كان اجتماعياً فهو بجهله أعزلاً. وهو صادق على مصر وفى هذا الزمان، زمن تحرير الأرقاء وإسارة الأحرار. وتهض الأمة ضد الوصايا عليها بإثبات كفاءتها وترقيتها بالعلم والأخذ بأسباب حكم ذاتها بذاتها. وهو ليس أمر سهلاً. العلم سلاح التحرر. كما أن القوة أداة

(١) فلسفة التربية، الأعمال ص ٢٧٢-٢٧٦، خاطرات ص ٣٨٨-٣٨٩.

الاستعمار. وإذا كانت الدول حفاظاً على مستعمراتها تحظر إدخال الأسلحة حتى لا تستعمل ضد الاستعمار فإنها تحجر على العالم لأنه ليس أقل خطراً من إدخال السلاح إلى المستعمرات. فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح، وموت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم. والعكس صحيح أيضاً من أجل بقظة الشرقيين، وحصولهم على الاستقلال بدأب متواصل، وهمة لا تقتر، وعزيمة لا تكل^(١).

والعلم هو العلم الوطنى. إذ يمنع الغربيون الشرقيين بطرق خفية ترقيتهم لأنفسهم بطريقة وطنية خاصة بهم، ويعرقلون مساعيهم، ولايسهلون وسائل تهذيب أخلاق مجموعهم بل يقومون بالعكس. وبالتالي لا يمكنهم من التوصل إلى الحكم الذاتى بأساليب المكر والمغالطة والاستعانة ببعض أهل البلاد عليهم من الإسقط هممة. مدارس الحكومة بها سموم للوطن يمكن أغلاقها والتعويض عنها بالمدارس الأهلية. مدارس الحكومة لا تسلم من ضرر لما فيها من علوم غير نافعة لاحتاجها المتعلم وفنون لا فائدة منها تترك التلميذ عليل الجسم والعقل، لا ينظر إلى كتاب، خيالياً، وهاماً، نفوراً من العمل، جامداً فيما تعلم، بليداً فيما يعمل. وتخشى المدارس الحكومية من المدارس الوطنية وحب الوطن لأنها تحت وصاية الأجانب حتى يظل الطلبة تحت الوصاية. وكلاهما مر. أما المدارس الأهلية الوطنية فهي التى تجمع بين العلم والوطن. فهي دور علم وعمل، ليس فقط داخل القاعات بل أيضاً خارجها لمزاولة العمل. كل علم بالعقل يتبعه عمل بالأعضاء. فيعمل الطالب بالحدادة والتجارة والبناء مع الرفاق، ويربى الحيوان، يحلب الأبقار، ويصنع الجبن، ويستخلص السمن والزبد مما ينفعه جسدياً، ويقيده مادياً بعد التخرج. هو رجل علم وعمل، لا رجل غطرسة وعجرفة وكسل، كل على أهله، كثر لا ينتفع بهم أحد. ومن فاته سن التعلم من الرجال والكهول بالدروس يمكن للوادر الوطنية والم.حاضرات العامة أن تقوم بنفس الدور، وكذلك باختلاط أبناء الطوائف ومعرفة طرق النهوض بالوطن بالخطب والمثال الحسن والتذكير والتحفيز أى بالنشاط

(١) فى التربية والتعليم، الأعمال ص ٢٧٨-٢٨٠ رآه فى كيفية الوصول لرفع ما وقع وميتع على الشرق وأهله من الحجر وحطورة ما يلزم ذلك من الأمر من الحكمة والتقدير ويبال وعورة المطلب، حاضرات

الثقافى الوطنى العام. والدين عبادات ومعاملات، العبادات للرب بمعزل عن الناس، لا يعارض غيره ولا يعارضه غيره، لكل وجهة هو موليها، نصارى ومسلمين ويهود، من نفس واحدة. أما المعاملات فهي للعموم، المساواة فى الوطن، والتعاون والتفاضل فيه، والعمل فى المدرسة سوياً والتخرج إخواناً مع الولاء للوطن والإخلاص له دون حل لرباط الوطن أونسيان عهد الصبا. هم فى جسم الوطن كأعضاء الجسد الواحد. إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء كما هو الحال فى الحديث المشهور. سماء واحدة، وأرض واحدة، ووطن واحد، ولغة واحدة، ومقاصد واحدة. وواضح أن تصور الأفغانى للعمل هو الزراعة وليس الصناعة التى لم تكن قد ازدهرت فى عصره. كما أن الزمن قد تغير من الدفاع عن التعليم الأهلى الوطنى إلى تحول التعليم الأهلى إلى خاص أجنبى فى عصر التخصصة. ولا ينسى الأفغانى من انتوياًه بضرورة تربية المرأة من أجل حسن تربية الأطفال والصبيان. فالأم تتعهد الطفل رضيعاً للكمال، الصحة والعقل، وترضعه حب الوطن مع التدرج فى العلوم، وإفساح المجال للنور الفطرى إبعاداً له عن الكذب. وتحبيب العلم إليه وتثمينه عليه^(١).

ويعطى الأفغانى عناية خاصة لموضوع المرأة. فالمرأة شريكة حياة الرجل. فإذا اتخذت المرأة لفضلها شريكة حياة نعمت الشركة وطابت الحياة. وإذا ما اتخذت لمحض الشهوات كانت شركاً للممات. المرأة عون الرجل، من صنع الأم، فكيف تترك هذه المنزل؟ وإذا كانت حاجة الكون للرجل مرة فحاجته إلى المرأة كرة. ومع ذلك عاش الأفغانى أعزباً. وكلما اشتكى له أحد كثرة العيال وقلة المال قال "وأثقلت ظهري بالذى خلف ظهري" ومستشهداً بقول أبى العلاء :

هذا جناه أبى على .: وما جنيت على أحد

لم يتزوج الأفغانى لأن الزواج يتطلب العدل وهو ما يعجز عنه. والطبيعة قادرة على التكيف. ومن ترك شيئاً عاش بدونه. يقوم الأفغانى بواجباته تجاه

^(١) كيفية تربية الطفل الذى سيكون رجل المستقبل، وتكون من تكونه أمة صالحة تحكم نفسها بنفسها وتخلص من حجر الغرب، خاطرات ص ١١.

السلطان. أما الزواج بالجارية الحسنة فلها أكفأؤها. وإذا أصر السلطان على ذلك فالأفضل للأفغانى أن يكون خصباً ويقطع أعضاء التناسل، وكأنه عدو المرأة كما يقال على بعض المفكرين المعاصرين. وقد قل من الرجال من يعرف الهناء بغير النساء، وندر منهم من لا ينسب شقاءه اليهن. والأقرب إلى الصواب أن يقال فيبين ما يقال في الأولاد : وجودهم بلاء وبلاهم بلاء! (١).

والموضوع الرئيسى الذى يتطرق إليه الأفغانى هو موضوع المساواة بين المرأة والرجل الذى طالما هاجم فيه المستشرقون والمتفرنجون الإسلام، بداية بموضوع السفور. فلا مانع من السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور. والحجاب له أنصاره وخصومه. وهو ستار إذا رفع فجأة تظهر شناعة الخلاعة والتبرج والفجور. أما السفور المعقول التدريجى فلا غبار عليه. وهنا يبدو الأفغانى انقلاباً ثورياً فى السياسة، تدريجياً فى التغيير الاجتماعى. لذلك لابد من تحديد صريح للمعانى المطروقة مثل مساواة المرأة بالرجل والحجاب ورفع حقوق المرأة والغاية المرجوة من ذلك حتى لا يتحول إلى هتك الحجاب وهو عند الأفغانى مثل هتك العرض.

والموضوع كله ناتج من تقليد الغرب من بعض الناشئة فى الشرق والمتفرنجين. فهم الذين يطالبون بمساواة المرأة بالرجل فى التكوين وهو مستحيل. فالمواهب الفطرية لا مجال فيها للاكتساب. والعلوم المكتسبة على نسب مختلفة. فهل تستطيع المرأة ذلك؟ ويستشهد الأفغانى بالمتنبى فى نقده للشرقيات المقلدات للغربيات ومدح أخلاق البداوة ونقد أخلاق الحضارة :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية . وفى البداوة حسن غير مجلوب
أقضى ظباء فلاة ما عرفن بها . مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

(١) الأعمال ص ٢٦٥ ص ٣٥٠ - ٣٦١ خاطرات ص ٣٩ فى تكليف السلطان عبد الحميد أن يزوجه من إحدى جواري قصره ورفضه وكلامه فى لحكمة الزوجية ومساواة المرأة بالرجل وضجة المستشرقين والمتفرنجين فى إعادة حقوق المرأة الميضومة، خاطرات ص ١٠ / ١٢١ - ١١٢.

ولابرزن من الحمام مائلة .: أوراكهـن ثقيلات العراقيـب

وينتهى الأفغانى إلى أن المساواة بين المرأة مع الرجل ضد الطبيعة. إذ يقوم المجتمع على دعامتين : المرأة والرجل . ولكل منهما تكوينه الخاص طبقاً لعلم التشريح. وهذا من حكمة الطبيعة التى احكمت الصنع، فتبارك الله أحسن الخلقين. الرجل للعمل فى الخارج والمرأة للعمل فى الداخل. وهذا ليس رفعة من شأن الرجل أو حطة فى شأن المرأة . وإذا لم تساو الطبيعة بين الرجل والمرأة بالتكوين فعبثاً نحاول مساواتها بالأقاول. وعمل واحد تختص وتقوم به النساء تعجز عنه رجال الغبراء. وقوة المرأة بضعفها. وتبلغ المرأة بضعفها ما لا يبلغه الرجل بقوته. الموضوع إذن به سفسطة كبيرة بالمطالبة بمساواة المرأة بالرجل بالرغم من الفروق الطبيعية. ويستعمل الأفغانى نظرية التطور التى تقدمها من قبل فى "الرد على الدهريين" مبيناً أن المرأة والرجل كانا فى مستوى واحد من التطور ثم سبق الرجل المرأة. وقوته أتنه تدريجياً عبر العصور بعمله فى الخارج ومصارعته الحيوانات وعمله فى الأرض والحرب. ويذكر دعاة المساواة التاريخ، تاريخ مساواة المرأة بالرجل أيام الرومان، ويستلهمون عصر شيوع المرأة، وأن الولد لم يكن يعرف أباه بل كان ينسب إلى أمه. ولا يمكن الدعوة إلى ذاك اليوم. والتطور يخلق الأنسب والأنفع والأصح صناعة وأخلاقاً واجتماعاً . انتقل الإنسان من العصر الحجرى إلى العصر الحديدى لمنفعته. ولا يمكن للتاريخ أن يرجع إلى الوراء . وقد ولد شيوع النساء وعدم طهارة الأزواج الزنا والسفاح وما يسببه من أمراض. الدعوة إلى المساواة ضد حكمة الوجود وثنائية الرجل والمرأة كى يصبح فى الكون جنس واحد، رجلاً أو امرأة، وتغيب الأم مربية الرجال. واجب المرأة فى البيت. وأهم واجبتها صناعة الرجل. المرأة هى التى تهى الرجل للمجتمع، وهى أسمى مهمة للمرأة. قوة المرأة فى ضعفها، وفضل الرجل فى قوته وضعفه امام المرأة. والمساواة خروج على الفطرة والطبيعة. غاية التطور بقاء الأنواع. ومع ذلك يعتبر الأفغانى أن للهيئة الاجتماعية دعامتين : الرجل والمرأة. ولكن الرجل تطور وارتقى، والمرأة جمدت وتوقفت. ويجعل الرجل مسؤولاً عن ذلك، يقتل مواهبها باسم الدين مرة، وباسم ضعفها الجسمانى مرة أخرى، مع أنها فى البداية كانا

متساويين في التكوين. الاستثناء الوحيد الذي يعترف به الأفغانى خروجاً على القاعدة هو عائشة وركوبها الجمل. ولا يعتبر ذلك فخراً تتشبه به النساء. وقد تنبأ به الرسول وأدانه. أما ذهاب النساء إلى ساحات الحروب لخدمة الجيش فهو مستحسن إن لم يكن هناك زوج قعيد أو والد ووالدة وأطفال. فالجهاد فرض على كل مسلم ومسلمة. واستثنى منه المعيل، واشترط موافقة الوالدين. فخدمة الوالدين جهاد. فإذا لم يكن للجهاد مانع، زوج أو ابن أو أقارب كانت خدمتها في الجيش حسنة.

كتب القتل والقتال علينا . وعلى الغائبات جر الذبول^(١)

ولا يشير الأفغانى إلى تعدد الزوجات ولكنه يرى استحالة عيش النساء في بيت واحد لأن الفصل في نزاع نساء البيت ينغص الحياة. وأن أعدل قضاء في الدنيا يعجز عن إرضاء متخاصمتين من النساء على رجل واحد أو شيء. كما يتعرض لعلاوة الحماة بكنيتها. فإذا كانت الأم تسعى وتتصور من وراء زواج ولدها النعيم فإن زوجته ترى نفسها في الجحيم. ويوصى بعدم سكن الأولاد مع الآباء. فإن أعقل الآباء من لا يساكن أولاده بعد الزواج، ويستعيز بالتراور عن التجاور. وهذه كلها آراء لها ما يشابهها في القرن الماضي عن الغربيين خاصة فنته^(٢).

ويتعرض الأفغانى لبعض قضايا التربية الاجتماعية مثل الشباب والقضاة. فالشباب جسر من جنون لا غنى للعقلاء من المرور عليه. ومن الطبيعي للثائر أن يجعل الشباب في مقدمة الثوار. فالثورة روح الشباب. ويركز الأفغانى في على ضرورة إنصاف القضاة. فإذا لم تنصف الحكومة القضاة فأحرى بها أن تجعل الذئاب رعاة لأن إنصاف القاضى واجب قبل انصاف المتقاضى. وإذا كان القاضى يتظلم فكيف لا يتألم المظلوم؟ ونظراً لأهمية القاضى العادل يرى الأفغانى أن قاضياً في الجنة وقاضيين في النار^(٣).

(١) مركز المرأة في المجتمع ، الأعمال ص ٥٢٤ - ٥٣١ خاطرات ص ٣٨٩-٣٩٠ ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) خاطرات ٣٨٥-٣٩٦ انظر دراستنا : المرأة المرحل : تصور المرأة عند فنته ، هاجر، كتاب المرأة، سيناء للنشر ، القاهرة ١٩٩٤ ص ٥٩ - ٧١.

(٣) خاطرات ٣٩٢ - ٣٩٣ الأعمال ص ٣٢٦٥ / ٥٢٩.

وتبدأ الفضائل الاجتماعية بتجاوز الأنانية وحب الذات إلى الغيرية وإنكار الذات. تظهر الأنانية وحب الذات إذا ما ظهر اعتقاد النفس وكمالها ونقص الغير، والرضا عن النفس واحتقار الغير. فيضيع الاعتدال، ويختل التناسب مادام الخير في الذات والشر في الغير. ويظهر ذلك في علاقة الآباء بالأبناء وحال المواطنين في مدينة واحدة، وحال الملوك والرعية، كل طرف يدعى أنه على حق، والآخر على باطل. بل إن الحكماء والعقلاء أيضاً وقعوا في ذلك، وظن كل حليم أنه على صواب والآخر على خطأ. فاختل ميزان النظر. وعادة ما يكون المحب للذات من أزدل الأخلاق واشنع الخصال، قاسياً ظاناً أنه رحيم، متكبراً واهماً أنه متواضع، يصغر عيوبه ويكبر عيوب الآخرين. هذا هو داء حب الذات. وهو غشاوة على العقل تمنعه من استطلاع الحقائق. وطريق الخلاص هو أن ينظر الإنسان إلى نفسه في مرآة غيره وليس في مرآة ذاته. فالإنسان جميل في مرآة ذاته، قبيح في مرآة غيره. خير الأخلاق إذن إنكار الذات. وأعظم الدلائل على إنكار الذات الأعمال. والإصلاح يبدأ بالنفس قبل الغير. ومن عجز عن إصلاح نفسه كيف يكون مصلحاً لغيره؟ الإنسان من وقر نفسه، وعرف حق غيره من جنسه. (١)

ثم تبدأ الفضائل الاجتماعية بعد تجاوز الأنانية إلى الغيرية. فلهينات في الاجتماع، حكومية كانت أو غير حكومية إنما هي خليط من أفراد يقوم على مراعاة التنازل والتجانس فيها وإلا فسد الخليط. وعدم التنازل من أعقد المشاكل. ولكن بالضغط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة. فالأزمة تلد الهمة. وإذا ما تكونت الهيئة الاجتماعية سرت العدوى الاجتماعية أي الترابط الاجتماعي بين أفرادها. فالأجرب يعدى السليم، والمرتكب يعدى المستقيم (٢).

(١) الأنا، الأعمال ص ٤٠٢-٤٠٧. خاطرات ص ٣٨٦-٣٩٠.

(٢) الأعمال ٢ ٤٩٩ خاطرات ٢٤٨/٢٩٦/٢٩٤.

الفضائل مناط الوحدة الاجتماعية. ومجموعها العدل في الأعمال. وهي قوة الحياة المستكملة في كل عضو. فهي فضائل وسطية عضوية حيوية. وهي فضائل إجتماعية وسياسية. فالأمة التي تسودها الفضائل تقوى وتنهض لأنها تكون متحدة مجتمعة. يقوم كل فرد فيها بدوره، وتتمثل فضائل العقل والتروى وانطلاق الفكر بين قيود الأوهام والعفة والسخاء والقناعة والدمائة والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والإيثار والنجدة والسماحة والصدق والوفاء، والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والعفو والرفق، والمروءة والحمية، وحب العدالة والشفقة. فإذا تحلت أمة بها غلبت. لذلك قال النبي "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". فإذا تغيرت هذه الفضائل إلى نقائضها من رذائل هلكت الأمة ﴿وما كان ربك ليهلك القريء بظلم وأهلها مصلحون﴾. فالرذائل تورث العداوة والبغضاء، والخلاف والشقاق. تقضى على الأمة، وتجعل البأس بينها شديد ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾. هذه علل الخراب. وقد ظهرت في طائفة الدهير ومنك في الهند المعروفين عند الأوروبيين بطائفة باريا ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم﴾. فالفضائل والرذائل ليست فقط فردية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية بل هي أيضاً قوانين للتاريخ، لنهضة الشعوب وسقوطها. فحياة كل أمة بيدها. يبدأ التغير منها ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يعيروا ما بأنفسهم﴾. والشر من النفس ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾. وذلك مهمة العلماء ﴿ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾، ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾. ووعد الله حق ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾. وإن لم يبدأ الأفغانى بآية قرآنية تغنى عن قانون التاريخ فإنه يضع هذا القانون بالعقل والتجربة. ثم يبدأ ببيان تجليات هذا القانون العام في الأفراد والمجتمعات والتاريخ. ففى مقاله عن "الأنا" يبدأ بتعريف الممكن مع وضع مقدمات تنتهى إلى إثبات الموضوع وهو أن السعادة ممكنة التحقيق مثل الصحة للبدن التى تقوم على الاعتدال والتناسب كما تقوم العلاقات الدولية على المحافظة على الحقوق المتبادلة بينها^(١).

(١) الحسن والقيح، الأعمال ص ٣٧٦-٣٨٢ الأنا ص ٤٠٢-٤٠٧.

وأهم فضيلة اجتماعية هي الاشتراكية. وهى نوعان اشتراكة غربية مادية تقوم على الصراع، واشتراكية إسلامية روحية تقوم على المحبة والإخاء. الاشتراكية فى الغرب تودى إلى الضرر مثلما تودى إلى النفع لأنها تقوم على حاجة الانتقام من جور الحكام وعوامل الحسد فى العمال من أصحاب رؤوس الأموال، وكرد فعل على حياة البذخ والترف. فكل إفراط يودى إلى تقريط. وينتهى الأمر إلى فوضى فى الغرب تنتقل إلى الشرق . الشركة شرك. إذا لم يصطاد الشركاء غيرهم اصطادوا بعضهم^(١).

أما اشتراكية الإسلام فإنها نابعة من الإسلام. عمل بها الخلفاء. وهى من مقتضيات البدواة أى أنها محلية وليست وافدة من الغرب. اشتهر بها حاتم الطائي فى السنوات المجدية. ذبح فرسه لإطعام امرأة وأطفالها الجياع. وتبرع طلحة الطلحات بسيفه وفرسه ورمحه وجهاز ألف فارس. تظل الثروة مع الأفراد ولكن مع حسن استعمالها حتى تصبح الاشتراكية أمراً مقبولاً، لا أنانية ولا أثر، لا استغلال على الفقير، ولا عدوانا على الغنى. وهى قائمة على القرآن، مساواة الجميع أمام الله والحمد لله رب العالمين. وقد خاطب القرآن القادة والغزاة وأرباب القوة مؤكداً حق الجميع فى الثروة ﴿واعلموا أنما غنمتم من شئ فإن الله خمسه وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، والله على كل شئ قدير﴾. فالله والرسول وذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل لهم نصيب من المال. كما نقد القرآن اكتناز الذهب والفضة. وعقد الرسول الإخاء بين المهاجرين والأنصار، وأشركهم فى الأموال. وخير الأمور الوسط. والزكاة من أركان الإسلام بالإضافة إلى الغنائم والصدقات. وحرّم الربا ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرّم الربا. فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف، وأمره إلى الله. ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها

(١) الاشتراكية، الأعمال ص ٤١٤-٤٢٣ خاطرات ص ٣٩٥.

خالدون. يمحى الله الربا، ويربى الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم ﴿١﴾. وأيضاً ﴿٢﴾ يأيتها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة، واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴿٣﴾. وحث الإسلام على الصدقات ﴿٤﴾ إن تبدوا الصدقات فنعما هي، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفر عنكم من سيئاتكم، والله بما تعملون خبير ﴿٥﴾، ﴿٦﴾ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ﴿٧﴾ وأيضاً ﴿٨﴾ إن الحنات يذهب السيئات ﴿٩﴾. والتفاوت فى الثروات يجلب الحسد كما قال زهير.

ومن يك ذافضل ويبخل بفضله .: على قومه يستغن عنه ويذمم

وبالإضافة إلى تأصيل الأفغانى للاشتراكية فى الإسلام فإنه يوصلها أيضاً فى البدوة والمساواة الطبيعية التى لا تقوم على الحسد أو الانتقام. ثم جاء الإسلام فجالس الرسول الفقراء وشاركهم فى الحياة العامة طبقاً للطبيعة البدوية. وسار أبو بكر على سنة الرسول مع أنه كان تاجراً غنياً ولكنه كان يعيش عيشة الفقراء. وسار عمر على أثره بالرغم من اتساع الفتوحات وازدياد الثروات. وراقب سير عماله، معاوية فى الشام، وعمر و فى مصر، وغيره فى العراق، وحذرهم من سيرة الأكاسرة^(١). واضح أن تصور الأفغانى للاشتراكية أنها دينية فقهية، وأنها أخلاقية تطوعية تقوم على إعطاء الصدقات، وأنها سلمية تنبذ العنف والحق، وأنها بدوية محلية تقوم على حياة الفطرة والمشاركة فى المجتمعات الأولية كما فعل كاوتسكى فى "المسحية البدائية". ويظل السؤال : هل يمكن من المبادئ الأخلاقية العامة تأسيس أيديولوجية اقتصادية متكاملة؟ وهل يمكن من هذه المبادئ العامة أن تتحول إلى ممارسة فعلية؟

ويجيب الأفغانى نفسه على بعض هذه التساؤلات جواباً على سؤال أحد الجالسين عن تكفير مشايخ الإسلام للاشتراكية بأن الاشتراكية وإن قل نصرأوها

(١) رأيه فى الاشتراكية (السوسيالست) وأنها لا تخالف الدين بل يقول بها، خاطرات ص ١١٧-١٩٠.

اليوم فإنها ستسود العالم عندما يعم العلم الصحيح ويشعر البشر بأنهم أخوة، وأن التفاضل بالأنفع للمجموع وليس بالسلطان السياسى أو المالى أو العسكر. وإنما يحتاج الأمر إلى الشجاعة والبسالة والجرأة بالحق كما قال المسيح "بئس بيت الصلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة للصوف".

ثم تغير الأمر، وتبدلت الأحوال. وخاطب عمر بن الخطاب واليه عمرو بن العاص على مصر بأنه لم يقطع مصر له ولقومه، وأنه يحيا حياة الأمراء بينما يموت باقى المسلمين جوعاً وقحطاً، يبنى القصور والدور وغيره فى العراق. وهدد معاوية فى الشام وحذره من غطسة هرقل وتعاضم الاكاسرة. وطالبه بمشاركة الناس فى الأموال، وأعطى عمر النموذج والقذوة. فلبس مثل باقى المسلمين، وأكل وشرب وسكن مثلهم دون تملل أو تذمر من أحد. ولما جاءت خلافة عثمان ثم الأمويون من بعده، تذمر الهاشميون خاصة والقرشيون وفى مقدمتهم أبناء الصديق والفاروق. فقد تغيرت الحياة الروحية فى الأمة، وقرب عثمان ذوى القربى وأرباب الثروة، طبقة فوق طبقة، أمراء وأشرف، فى ثروة وثراء وبذخ. ونشأت الطبقات الاجتماعية. فقام أبو ذر الغفارى وخاطب معاوية فى الشام وأمره برد الأموال إلى الفقراء. ورد معاوية بأنه يستحيل العودة إلى الوراء، إلى الصديق والفاروق. إنما الصدقات واجبة، والوعظ ضرورى لتخفيف حسد الفقراء للأغنياء. استمر أبو ذر فى النصيح، وعادود مذكراً بسيرة السلف الصالح. فأرسل له معاوية ألف دينار ليلاً لامتحانه وشرائه فوزعها أبو ذر على الفقراء. فلما أراد معاوية استردادها لأنها أتت إلى أبى ذر خطأ أمره باستردادها من الفقراء. فلما علم معاوية صدق أبى ذر أرسله إلى الخليفة عثمان فى المدينة. ولكن أباذر استمر فى دفاعه عن الفقراء، وذكره بأحاديث الرسول إذا واصل التمييز بين الناس فى العطاء واستعلاء الأغنياء على الفقراء. ووجبت الهجرة على أبى ذر. فترك المدينة وفى قول آخر نفاه عثمان إلى الربذة.

وظل الأفغانى يركز على القيم الاجتماعية مثل المساواة دفاعاً عن الفقراء. فالفقر عدو الفضيلة، والثراء نصير الرذيلة. ولا فضيلة لفقير لأن الصراع من أجل البقاء يأتى أولاً. ولا فضيلة لغنى لأن الثراء يودى إلى الانحلال. الغنى غنى النفس، والفقير فقر الروح. وكمن غنى محمود بمظهره فقير مقهور فى حقيقة أمره. ومع ذلك فالمال عصب الحياة. ووضع الحسب يستطيل بالقليل من المال على غيره^(١).

ويتناول الأفغانى قيم الزراعة والصناعة والتجارة. فالزراع قيمة. ولو لا الزرع ولو لا القرع ما كان سرف الاغنياء ولا ترف الأمراء. والصناعة قيمة. وموقف الزراعة والصناع من الحضارة أنفع من موقف الإمارة. أما التجارة فهى فضيلة واحدة بصرف النظر عن المتاجر فيه. فبائع الدر وبائع الفحم يشاويان بالاسم ويختلفان بقدر المباح. والتجارة فضيلة إنسانية والهيبة. لذلك استعملها القرآن لشرح العلاقة بين الإنسان والله للمجتمع التجارى دون نقد أخلاق التجار كما يفعل ابن خلدون^(٢).

ثم ينتقل الأفغانى من الفضائل الاجتماعية والاقتصادية إلى الفضائل السياسية: النخبوية، والسلطة، والعدل، والديمقراطية، والأمة. فالنخبوية فضيلة. والحق مع الأقلية وليس مع الأكثرية دائماً أو على الأقل أحياناً. والدليل خروج الحق عما افته الأكثرية، وقدرة الأقلية على تغييره. واعتناق الأكثرية المؤلف أحياناً لا يفيد إذ يتحول إلى تقليد بلابرهان. وقد انتشرت الحقائق بأفراد قلائل، وقاومها المجموع. لم يتجرأ أحد على مقاومة جوبتر وانتهت ديانتته. وموسى كفر بالوهية فرعون. وعيسى كان معه نفر قليل من الحواريين ضد مجموع اليهود. ومحمد آمن معه نفر قليل وقاومه الجموع، والملايين اليوم تدين باليهودية وبالمسيحية وبالاسلام. والسبب فى ذلك أن تعاليمهم جاءت موافقة لروح البشرية. هى حق فى ذاتها حتى ولو خالفت المؤلف. وقد اعتنق المخالفون لهذه الديانات الثلاث هذه الديانات بعد ذلك بفضل الصمود للمؤمنين الأوائل. وكانت الدعوة

(١) الأعمال ص ٢٢١ خاطرات ٢٨٩.

(٢) خاطرات ص ٣٩٥ الأعمال ص ٢٩٦ / ٢٤٨.

للحرية فى فرنسا من الأقلية، وسالت من أجلها الدماء. وكذلك كانت دعوى الاشتراكية وان قل أنصارها فإنها ستسود العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح وتسود البشرية روح الإخاء والمساواة. إنما يحتاج الأمر إلى الشجاعة والبسالة والجهر بالحق كما قال المسيح "يبتى بيت الصلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة للصوف". وكسر محمد الأصنام، وأبى قبول الملك من قریش. وأصر موسى أمام فرعون على إخراج اليهود من مصر. الأقلية تعلن، والأكثرية تستجيب. والساكت عن الحق شيطان أخرس. ولا يوجد فى هذا الكون من القول أو الفعل ما يستدعى الكتمان إلا ما كان فى علانيته مضر. الإعلان كمال للبشر، والكتمان نقص. ولاخير فى دولة تعتمد عن أمتها أمورها. "من أحب فليعلن". والمحبة معنى مطلق أى حب الخير والمعرفة للناس. حب الصدق الجهر به، وحب الكذب كتمان، وحب الخير إعلان عنه. والقيبح فقط هو الذى يتم التستر عليه. لذلك عرفت المروءة بأنها عدم العمل فى السر ما يستحق منه فى العلانية. ولما كانت الحاجة من حيث هى حاجة ذلا، والذل من حيث هو ذل قبيح فإن أقل الناس حوائج أكثرهم جهراً، وأكثرهم حوائج أكثرهم كتماناً. وقد كانت أقصى مطالب ديوجينس وهو فى برميله لا يحول أحد بينه وبين الشمس كما طلب من الإسكندر. فالطبيعة ملك الجميع، والشمس تعلن عن أشعتها جهراً للجميع^(١).

ثم يتناول الأفغانى قضية السلطة. فيميز بين السلطتين الزمنية والروحية أى المياسية والدينية ثم يوحد بينهما. إذا لا يستغنى البشر عن سلطتين زمنية وروحية. غايتهم واحدة، وجوهرها واحد، وأصلهما واحد. وإذا طرأ على أحدهما الخلل يعمل الآخر على إصلاحه. السلطة الزمنية، ملكاً أو سلطاناً، تستمد قوتها من الأمة لقمع الشر وصيانة الحقوق العامة والخاصة، وتوفير الراحة للجميع، والسير على الأمن، وإقامة العدل، ورعاية المنافع العامة. فإذا ما جهلت السلطة وعتت وفسدت فإنها تتحول إلى تسلط، وتصبح مشيئة الملوك قانون المملكة. ومن هنا لزمّت مقاومة الشعب لاسترداد إرادته وحرية يعد أن أكره عليها وإلا ظل الشعب كالانعام السائمة. والسلطة الروحية تعنى كل ما للدين من نفوذ معنوى. وهى قوة أحياناً

(١) الحق والأكرمية، الأعمال ص ٤٢٥-٤٢٧ الإعلان والكتمان ص ٥٣٦-٥٣٧ خاطرات ص

أقوى من السلاطين والشرطة. هي القضاء العادل. تقف بالمرصاد للسلطة الزمنية، تراقبها وترشدّها، وتقتص منها في حالة انتهاك المحرمات وسفك الدماء. فإذا انحرفت تمت مقاومتها لا رجاءها إلى الصواب^(١). إذا سار الدين نحو غايته الشريفة حمدته السلطة الزمنية، وإذا سارت السلطة الزمنية نحو الغاية المقصودة وهي تحقيق العدل المطلق حمدتها السلطة الروحية. فلا تتأفر بين السلطتين إلا إذا خرجت كل منهما عن أصليها وقصدتها ومسارها. الدين رادع عن رضى في السر، والسلطان وازع في الجهر بالقهر، هذا هو الفرق بين الرقابتين، رقابة كل منهما على الآخر، الدين سرّاً، والسلطان علناً، الدين من الداخل، والسلطان من الخارج. الدين صوت الضمير، والسلطان صوت المصلحة العامة والأمن الجماعي. ولا فرق بين الأديان الثلاثة فيما ينفع المجموع البشري، الخير المطلق ورفع الشر، دون أن يعلن الأفغانى أنه لا فرق أيضاً بين سلطة وسلطة. فالوظيفة واحدة، حماية الأمن وتحقيق المصلحة العامة. ثم يضرب المثل بضرورة السلطتين وتلازمهما بالجسم والروح. فكما لا يوجد جسم بلا روح، لا يوجد مجتمع بلا سلطة. ولكن القضية في الروح. فالروح الإنسانية إما النبوة وإما الحكمة. النبوة منحة الهية يختص بها الله من يشاء من العباد، والثانية اكتساب بشري بالنظر والفكر. الأولى لا تخطئ والثانية معرضة للخطأ. الأولى ملزمة الطاعة، والثانية ملزمة أيضاً عن طريق الأولى والأفضل بشرط عدم مخالفة الشرع. هذا هو جسم السعادة الإنسانية. وهي نفس ثنائية النبوة والحكمة عند القدماء. يحاول الأفغانى هنا أن يشق طريقاً بين السلفيين الذين يوحّدون بين السلطتين الدينية والسياسية، والعلمانيين الذين يفرّقون بينهما. كل منهما رقيب على الآخر. إنما تختلف شكل الرقابة، داخلية في الدين من وازع الضمير، وخارجية في السياسة. وهي تفرقة أيضاً غير دقيقة. فالدين رقيب من الخارج عن طريق الحسبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقضاء. والسياسة رقيب من الداخل عن طريق مبادئ العدل والشورى كأساسين للملك. كما أن هذا الطريق الثالث لا ينتهي بالضرورة إلى السلام بين السلطتين. فما

(١) السلطانان الزمنية والروحية، الأعمال ص ٣٢٢-٣٢٤ محاضرات ٢٦-٣٠.

العمل إذا لم تطع إحدى السلطتين نصيحة السلطة الأخرى؟ ولمن تكون الغلبة في حالة الصراع؟ ولمن يكون الحكم بينهما في حالة الخلاف؟ ويبدو أن الأفغانى لا يتصور السلطة الدينية سلطة رجال الدين بل مجرد وازع أخلاقى داخلى. فلا توجد إلا سلطة واحدة فعلية هي السلطة السياسية. فالإيمان واليقين ليس معناه عبادة رؤساء الدين. لذلك كثيراً ما ينفذ الأفغانى رجال الدين ويعتبرهم مسؤولين عن انهيار الدولة وفساد السلطة السياسية. فإذا ما أمكن تحرير السلطة السياسية من سيطرة السلطة الدينية يلزم أيضاً تحرير السلطة السياسية من رجال الدولة ويطانة الملك. وكما أمكن تحرير الدين من رجال الدين كذلك يمكن تحرير السياسة من رجال السياسة، من دسائس البلاط وجماعات القهر السياسى داخل الدولة، من الوزراء أو المستشارين أو الشرطة والجيش أو الأجانب. ويبدأ الأفغانى بوضع قانون عقلى تجريبى عام مثل "كيف يجب أن تكونوا" وآية قرآنية تصديقاً لهذا القانون تأويلاً ﴿يأياها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم. قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر. قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾. وأحياناً يضع الآية القرآنية أولاً ثم يثنى بالقانون التاريخى تنزيلاً. ثم يشرح الأفغانى القانون والآية بأن البلاد تصان بحرس الملك والبروج والقلاع والجيوش والأسلحة. ولكنها لا تعمل بذاتها إلا من خلال البشر والرجال من ذوى التدبير والحزم والدراية، يقومون بشئون المملكة، ويوظفون الأمن، وقيمون العدل، ويطبقون الشريعة، ويراقبون الممالك الأجنبية. ومن ثم يكون السؤال: كيف للحاكم أن يحصل على بطانة للمملكة من ذوى الرأى السديد كيف له بعقلاء رحماء، أباء أصفياء، لهم الشفقة والرحمة والحمية والذعرة على الملك والرعية من الأمة، على الفطرة، يرتبطون معاً برابطة الجنس أو الدين، فلا ينفذ مصرى سوريا أو سورى مصرى لانتمائهما معاً بعروبة واحدة؟ أما الأجانب الذين لا يرتبطون بهاتين الرابطتين الجنس أو الدين، فهم كالأجراء في المملكة، لا يهمهم إلا استيفاء الأجر، ولا يباليون بعد ذلك إذا انهدم الملك أو قام. هذا إذا صدقوا في الاعمال، يؤدون للدولة قدر ما يأخذون منها. لا ينتشر الأجنبى بشرف الأمة، ولا يمسه شيء مما

يمسها لأنه منفصل عنها. يعود إلى منبته إذا ما أصابها سوء، ويخدم غيرها. لا يحزن على خير فقدته، ولا يفرح لشر تجنبته، على فرض عدم وجود دوافع أخرى لديهم مثل الحقد والخديعة والتآمر. هذا حال الأجانب في الممالك الإسلامية، يعتمدون على الغش والخيانة. ويثبت التاريخ أن الدولة التي تعتمد على الأجنبي لا تبقى. ودخول العنصر الأجنبي في الدولة إيذان بخرابها. ويأسف الأفغانى على أمراء الشرق خاصة أمراء المسلمين الذين سلموا أمورهم إلى الأجانب يحمونهم، ويوالون الغرباء ويتقون بهم، مستشهدين بآيتين ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾، ﴿إن تمسكم حنة تسؤمهم، وأن تصكم سنة يفرحوا بها﴾. هذه سنة الله في الكون^(١). وما يقال على الدولة يقال أيضاً على الجيش. فإن قبول الدخلاء والمتطوعة أى المرتزقة فى الجيش مفسدة للنظام ومن عوامل الانهزام^(٢).

والعدل أساس الملك. وهو من أشرف الصفات وأسمى الفضائل. يحفظ المجتمع الإنسانى، وعليه تقوم الممالك ويتأسس العمران. وهو وسط بين الجور والظلم من ناحية والخرق والتسيب من ناحية أخرى. ويلجأ الأفغانى هذه المرة إلى قانون التاريخ استقراء وليس إلى الآية القرآنية استنباطاً. فالتاريخ يشهد على أن دول المؤابيين والرومان والأشوريين والمصريين والتتار وحكامهم كانوا على نوعين: الأول فاتح لا يأبه إلا بالغنائم والقتل والغزو، اعصار ينتهى. والثانى يحكم بالعدل فيدوم الحكم ويبقى أثره مثل كسرى أنوشروان الذى كان عادلاً بالفطرة ومثل الفاروق الذى كتب إلى عمرو بن العاص "أكسرى أعدل منا؟". وأمره يهدم حائط مسجد بعد أن أخذه عنوة من يهودى وبغير رضاه بناء على حب العدل لذاته. فى حين أن أحد أجداد كسرى وهو أبرويز أحب فتاة فرغ الظلم عن قريتها، ليس حباً فى العدل بل حباً للفتاة. فانقضى العدل بانقضاء الغرض. وقد عدل المسلمون الفاتحون مع الرهبان والولدان والشيوخ وبناء على وصايا الصديق والفاروق والخلفاء الأمويين والعباسيين، بلا غرض أو غرور بل حباً للعدل فى ذاته. أما سلاطين آل عثمان فلقد فتحوا البلاد بدافع الغرور بما لديهم من قوة وبأس، وما

(١) رجال الدولة وبطانة الملك، الأعمال ص ٣٩٨-٤٠٠.

(٢) الأعمال ص ٥/٨.

اعتقدوه رحمة وعدلاً. كان العدل عرضياً لا جوهرياً. لذلك سمح آل عثمان للأجانب كمترجمين بالتواجد في الدولة حتى تحكموا في البلاد. واستطالوا على العباد، وصار الوطن محكوماً ذليلاً للأجنبي. إذا قُتل اليوناني العثماني انقذه القنصل كما كان معروفاً في المحاكم المختلطة في مصر إبان الاحتلال الإنجليزي، اعتبر الانجليز أنفسهم من طينة غير طينة الآدميين، ولا يجرؤون على مثل ذلك مع باقي الأوروبيين مثل البلجيك أو السويسريين والدانماركيين. هناك إذن فرق بين عدل يأتيه الفاتح عن علم وحب بإجراء العدل والأخذ به وبين ما يأتيه من غرور واثيان العدل لبواعث من خارجه. وأقرب موارد العدل القياس على النفس، وقبول للغير ما يقبله الإنسان لنفسه. بالعدل تتحقق المساواة والوفاء والوئام، وبالأثرة تتحقق الأنانية والنفرة والخصام. وكان الأفغانى يقسم بالعدل، "وعزة الحق، وسر العدل" (١).

ويقرن الأفغانى العدل بالقوة. فخير ما يحتاجه الشرق من الملوك القوى العادل. ولاخير في العادل الضعيف كما أنه لاخير في القوى الظالم. وهو الموقف الفقهي القديم في الجمع بين العدل والقوة. والجبن أقبح عيوب الملوك لأن عيب الكبير كبير. ويحتاج الملك الجبان للصعلوك الشجاع. فالشجاعة قوة، والجبن ضعف. وعظمة الملك لا تكون بالتيجان بل بالقوة والعدل. ولكن أكثر أمراء الشرق إذا ألقى أحدهم في أضيق جب من الاستعباد وحفظت له ألقابه الضخمة مجردة حسبها عرضها السموات والأرض، لأنه أصبح أنعوبة في أيدي الأجانب. ومع ذلك لا يكون الملوك القائم على العدل والقوة مظهر رهبة من الناس. فمن رهب الملوك بغير جريرة فهو الصعلوك، ومهابة تصدر عن كرسي الحاكم لا عن عدله وفضائله أقرب للسخرية منها إلى الاحترام (٢).

والحكم العادل القوى هو الحكم الديمقراطي. والتحول من التسلط إلى الديمقراطية سنة تاريخية وسنة الهبة، لافرق بين قوانين التاريخ والآيات القرآنية. الحكم للعقل والعلم. وإذا ما تحول إلى جهل يظهر الحكم المتسلط. والتفرد بالسلطة

(١) العدل، الأعمال ص ٤٠٩-٤١٢ / ٣٩٢ خاطرات ٢٣٢-٢٣٦/٣٨٧.

(٢) خاطرات ص ٣٨٩/٣٩٢-٨١-٨٣.

وسوق الأمم على هوى انفراد يزيل العالم ويحوّله إلى خراب. والأمة التي لا تستشار في مصالحها وليس لها حل ولا عقد في إرادتها تكون خاضعة لحاكم واحد، وإرادته قانون، ومشيتها نظام. لا ينضبط لها سير، ولا تثبت للرجال، وتتأرجح بين السعادة والشقاء، بين العلم والجهل، بين الغنى والفقر، وبين العز والذل. فإن كان الحاكم حازم الرأي، رفيع الهمة، قويم الطبع، عدل السياسة صلت بالأمة. وإن كان سىء الطبع، سافل الهمة، خسيس النفس، فسدت الأمة. فساد الأمة بفساد حاكمها إذا كان الحكم فردياً. لذلك وجبت استشارة أهل الرأي. هنا يقترب الأفغانى من نظريته الشيرة فى المستبد العادل، الذى يجمع بين العدل والقوة وإن ضحى بالشكل الديمقراطى. فقد لا يحكم قوم من غير قاهر من أهله وكأن الاستبداد طبعى فى الحكام. وقد يعبر الأفغانى هنا عن عصر محمد على وبسما رك وقصر روسيا وعصر الميكادو فى اليابان وربما عن نظرية الاستبداد الشرقى عند مونتكيو. ولكنه يسخر فى النهاية من الجبروتية والفرعونية التى تساق بسياسة بقرونية. فالفرعون الجبار لا يسوق شعبه إلا بسياسة الأبقار. ويستشهد الأفغانى بتاريخ الغرب وصراعه من أجل الديمقراطية. فالبرغم من تجزئة الغرب واستقلال عناصره بميزات قومية إلا أن الغربيين تساوا نسبياً بينهم بالفضائل وأهمها العلم بالواجبات والحقوق، مالمهم وما عليهم. فانتفى منهم التفرد بالسلطة وسوق الأمة على هوى السلطان. وسينتهى الحكم المطلق فى التاريخ تدريجياً طبقاً لمقتضيات الفطرة كما حدث فى الغرب. إذ تحكمه الشورى. وصارت كل أمة فى مأمن من أن تغزوها الدول المجاورة. ومضى ساد العلم فى أمة فإن أول ما تناهضه هو هذا الشكل الفردى فى الحكم وتعمل على التخلص منه. هذه سنة الله فى الكون **﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾**. هنا تصدق الآية القرآنية قانون التاريخ، ويكون القانون تحقيقاً لمناطها كما يقول الأصوليون. لذلك اشتمل القرآن على تدبير المالك وأصول الحكم الشورية ووظائف الملوك، والإشارات إلى مقدمات العلوم والفنون الحديثة^(١).

وعلى هذا النحو يحتاج الملك إلى أمة أكثر مما تحتاج الأمة إلى ملك. فقد رأينا شعباً يعيش بدون ملك ولكن ما رأينا ملكاً يعيش بدون شعب. ومع ذلك فسودد الأمة معقود بقادتها طالما وجد الاثنان، الشعب والملك. لذلك تحتجب الحقائق عن

(١) خاطرات ص ١٥١-١٥٥/٢٨٨ العروة حد ٢ ص ١١٠-١١٢ السياسة والعلوم فى القرآن، الأعمال

الملوك بقدر تحجبهم من الأمة. الملك هو العالم بأحوال شعبه وليس الذي يسكن فى قصره بمعزل عن الناس. والصراحة هى أساس العلاقة بين الحاكم والمحكوم منعاً لازدواجية الخطاب والسلوك بينهما. يقول الحاكم ما لا يفعل، ويؤيد المحكوم وهو لا يرضى. والأمة التى تطعن حاكمها سرّاً وتعبده جهراً فإنها لا تستحق الحياة. والأمة بأفرادها. والشمم بالتجرد عن النفع الذاتى وطلبه فى النفع العام. فالفرد للجماعة والجماعة للفرد. وما مات أحد فى حب أمة إلا وأحبته. ومن أحب الحياة فإنه يموت فى سبيل حياة أمته. ومن طالب الموت فى سبيل حياة الوطن إما أن يموت بطلاً شهيداً وإما أن يعيش سيّداً عزيزاً. ولا أمة بدون أخلاق، ولا أخلاق بدون عقيدة، ولا عقيدة بغير فهم. وخير موازين الأمم أخلاقها^(١).

(١) الأعمال ٢٩٦/٤٧٥/٢٢٦/٢٤٨/٢٥٣ خاطرات ٣٩٥.

الفصل الخامس

الأنا والآخر

١ - الأصالة والتقليد

وانتقالاً من الفلسفة النظرية إلى الممارسة العملية يضع الأفغانى ثنائيات الصراع بين الأنا والآخر التى تتجلى فى الأصالة والتقليد، والإسلام والنصرانية، والشرق والغرب. فالتقليد أياً كان اتجاهه يؤدى إلى سقوط الهمة والعجز. فساقط الهمة من علم الفضيلة وصدق الدعوة ولم يبادر إليهما بل ينتظر أن يكون تابعاً ومقلداً لغيره فيهما. والتقليد يرفض الدين، وليس مصدرأ من مصادر العلم عند المتكلمين والفلاسفة والأصوليين. ومن قال إن الدين يأمر بالعسر دون اليسر بالضرار دون النافع لمجرد التقليد والمألوف فهو كذاب. فالحقيقة لا تؤخذ إلا بالبرهان ولا يُحصل عليها بالتقليد. والطريق الصحيح للمعرفة، وهو البرهان، أضمن للمعرفة ذاتها بالتقليد. و لو كان لابد من تقليد خاصة بالنسبة للعامة، فتقليد نافع ثبتت منفعته أولى من تقليد مألوف ثبتت مضرته. فالتنع هنا شفيق لنقص الاجتهاد. ويظل التوازى قائماً بين الاجتهاد والتقليد، والمنفعة والضرر^(١).

ويكون التقليد لجهتين، تقليد الغرب وتقليد القدماء. تقليد الغرب غالباً من الشباب، وتقليد القدماء غالباً من الشيوخ. يقند الشباب الغرب بمجرد تعلمه لغته والتأدب بأدابه دون فهم لتجربة الغرب وتدرجها ومعناها. ويعتقد أن كل العيوب والردائل ومظاهر الانحطاط ومعوقات التقدم فى قومه. فيسير فى تقليد الغرب، يجل الآخر، ويسفه الأنا. يعطى الآخر أكثر مما يستحق، ويعطى الأنا أقل مما تستحق. يأنف من الاشتراك فى أى عمل وطنى، ويسارع بالاشتراك فى عمل الأجنبى ولو كان اسماً. يعيب كل شىء فى قومه، ويقدر كل شىء عند الغريب. يسهل له

(١) مخاطرات ص ٢٨٧/٢٩٤ الأعمال ص ٢٧٦.

مقاصده، ويطلعه على معاييب قومه، ويساعده على أهله. وقد يصل الأمر إلى حد الخيانة للوطن، واستعباد الغرب له، مؤثراً مصلحته الخاصة على مصلحة الجماعة. وسواء تم ذلك عن علم أو جهل فقد ابتلى الشرقيون بهذه العلة. والأزمة في ازدياد حتى يستيقظوا عندما يصل الأمر إلى دين لا يتعبدون به، وتجارة دون مال أو مال، وفقدان الحرية الشخصية، ووقوع في القهر والذل. ولا فرق في ذلك بين مسلم ومسيحي. فكلاهما في التقليد سواء لأن التقليد موقف حضارى لا ينبع من دين أو طائفة. وقد يشعر المسيحي ببعض الميزة على المسلم في تقلد الوظائف لمسيحيته ومعرفته باللسان الأجنبى فيقر به الأجانب ويوالوه. فيقع التناقص، وتحدث الفارقة في الأمة. وكلاهما متساويان في المذلة والهوان. والعجيب أن هذه الأمة التى وقعت في تقليد الغرب كانت مبدعة في ماضيها. أمة لم تكن شيئاً، وأصبحت كل شىء في العلم والعمران، ودانت لها الشعوب والأقوام. ثم وهن البنیان، وضعف التعاون، وتقطعت الأوصال. ومن ثم فإن هذه الأمة في حاجة إلى تربية جديدة حتى تبدع في الحاضر. كما أبدعت في الماضى. ويضع الأفغانى قواعد لتربية الأمم لا عن طريق الجراذل الأجنبية بل عن طريق تعلم القراءة والكتابة لفهم الحياة الوطنية، وليس عن طريق إنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة على النموذج الأوروبى لحاجة ذلك إلى سلطان قوى بل عن طريق المدارس الأهلية القادرة على التعليم الوطنى. ولا يتم ذلك تدريجياً بالضرورة لأن الأمة لاتعرف هذه العلوم الغربية عنها ولا كيف بدأت وفى أى تربة نبتت. ويكفى نقلها كما فعل العثمانيون والمصريون لأنها ارتبطت بالبيئة التى نشأت فيها، وبنظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى. لذلك لم ينجح النقل من الخارج. وبدلاً من الشدق بالألفاظ الحرية والوطنية دون فهم لمعانيها يمكن البحث عن هذه المعانى أولاً والتعبير عنها بعدد من الألفاظ الموروثة أو الوافدة. ويمكن أيضاً تغيير عادات الشرقيين وقلب أوضاع المبانى والمسكن وتبديل هياكل المأكّل والملبس والفرش والتنافس مع الأجنبى فيها بعبادات أصيلة جديدة أكثر قدرة على مواجهة تحديات العصر. لكل أمة طورها الحضارى، ولا يمكن انتحال طور أمة

لأمة أخرى أو تقليدها كما حدث للأفغان من تقليد الإنجليز، فأصبحوا أعواناً لهم وامتداداً. ولا يمكن النضال ضد الاستعمار بتقليد المستعمر بالرغم من مقولة ابن خلدون بأن المغلوب مولى بتقليد الغالب إما إحساساً بالنقص أمامه أو لمحاربتة بسلاحه^(١).

وقد يكون التقليد أيضاً للقدماء والأسلاف وهو الأقل شيوعاً عند الأفغانى. فتقليد الغرب أخطر من تقليد القديم الذى يمكن محاربتة بضرورة الاجتهاد. ومن الطبيعى أن يقلد المسلمون آثارهم القديمة، آثار العرب والعجم المدفونة عند القدماء، الآثار العلمية والعملية، آثار الفتوحات والنهضة والعمران. ومع ذلك فالمسلم، عربياً كان أم أعجمياً، إنما يعجب بماضيه وتراث الأسلاف وهو فى أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف يجب أن يكون .

ليس الفتى من قال هذا أبى .: ولكن الفتى من قال ها أنذا^(٢)

ويأخذ الصراع بين الأصالة والتقليد شكل الصراع بين الأجداد والاحفاد. يعيب الأفغانى على الاحفاد عدم اتباع سنن النبى، والفخر بالثبات والصبر والاقدام واليسالة والاعتصام بحبل الله، ويدعوهم إلى استلهاهم الأجداد. ويستفترهم للتمسك بالأصالة التى يرمز لها الأجداد. فلاحفاد حق فى ميراث الاجداد. وفى نفس الوقت يؤيد الأفغانى الشباب فى معركتهم ضد الشيوخ. فمن سفه الراى أن يعتقد الرجل أفضليته على الغير بالعمر والمشيب فقط. وربما أفادت السنون تجارب ولكن الأقدمية لا تجدى الأفضلية غالباً. ليست الأفضلية بالعمر والزمن ولكن بالعمل. وتجربة العمر قد تكون أقل من علم الشباب. العلم قد يكون فى الأحداث ولكن التجارب لا تكون إلا فى الشيوخ. وبالرغم من أن كثيراً من الآباء يستميئون ليحيوا أبناءهم فقليل من الأبناء لا يستقلون طول حياتهم ويستعجلون موتهم. فالآباء أكثر رحمة من الأبناء، والأبناء أكثر قسوة على الآباء^(٣).

(١) الأصالة والتقليد، الأعمال ص ١٩٠-٢٠١.

(٢) خاطرات ص ٢٨٩-٢٩٢/٢٨٧/٣٩٦ بين الأحاد والاحفاد، الأعمال ص ٢٠٤-٢٠٦/٢١٠/٣٨٢.

(٣) قوله فى الباشقة الشرقية استحساناً واستبحاناً، خاطرات ص ١٢-١٣.

والسبيل إلى تجاوز التقليد هو العودة إلى الأصول الأولى المبرأة من البدع،
والتي تودى إلى الاتحاد ولم الشمل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة، والحث
الفضائل. والدليل على ذلك تاريخ الأمة العربية ونبوغها العلمى فى الماضى بعد أن
عرفت طب بقرط وجالينوس وهندسة أقليدس وهينة بطليموس وحكمة أفلاطون
وأرسطو. ودليل آخر اليابان الحديث. ليس صحيحاً أن اليابان قد ارتقت بتقليد
الغربيين دون توسط الدين. فاليابان مثل الصين أخذت بالأفضل، تركوا الأوثان
وأخذوا العلم، وقلدوا الغرب على نحو صحيح، وأقاموه على قواعد المدنية السليمة
والمتفقة مع أخلاقهم وعاداتهم، ونبذوا ما كان مألوفاً فى الغرب ولا يوافق طباعهم.
أخذوا بالتدريج والارتقاء، لا فرق بين ذكر وأنثى فى التربية على حب الوطن. لم
تقم اليابان حضارتها على وثنياتها بل على العلوم الحديثة وعلى أخلاقها وآدابها.
اليابان أمة شرقية مثل الصين ومصر تعتمد على العلم والعقل كما نص القرآن
﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾، ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، وكما
أوصى الحديث "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد". ومما ساعد اليابان فى نهضتها
العمرانية ميل الأمبراطور الميكادو (العادل) إلى تقييد الحكومة بالدستور وقبوله
الشورى. فبعث البعثات إلى أوروبا لتعليم أسرته أشكال الحكم النيابى الدستورى
وقواعده حتى تعجب أمبراطور النمسا من شدة رغبة أمبراطور اليابان فى الحكم
الدستورى النيابى، وهم يريدون التخلص منه فى الغرب. وذهب تعجبه عندما أخبره
أمبراطور اليابان بأنه يقيم حياته على أربعة أشياء : بلاده، ورعيته، والعدل،
وأخيراً احترامه لنفسه. ولا تتحقق هذه المبادئ الأربعة إلا بالحكم النيابى
الدستورى. تعلمت اليابان أنه لا قوة مع الجهل، ولا ضعف مع العلم. فتحملت جور
الغربيين، وأخذت بالتقليد الصحيح، وأرسلت البعثات إلى أوروبا بالبعثات فى العلوم
والفنون. وبعد ربع جيل انتظمت المحاكم وعم العلم، وانتشرت المدارس الوطنية،
وأسست هيئات إجتماعية وقومية حديثة صحيحة دون تقليد للأفرنج. ورفعت التهم
عن الشرقيين بأنهم لا يحسنون الإدارة أو معرفة الحقوق أو العدالة. استعملت

اليابان أولاً عدداً من الأخصائيين الأجانب ثم تفوق اليابانيون عليهم وأخرجوهم من بلادهم بعد أن أصبحت اليابان دولة شرقية مفتوحة، مع أن مصدر شقاء باقي الشرقيين الامتيازات الأجنبية، والمحاكم المختلطة الأجنبية التي تحايى الأجنبي على الوطنى. والذاس أبناء ما يحسنون. ولله فى خلفه شئون^(١). فواضح إعجاب الأفغانى بتجربة اليابان التى يقارنها بتجربة محمد على، الجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين الماضى والحاضر، بين العلم والحرية. ولايفصل الصين كما يفصل اليابان.

والاجتهاد عند الأفغانى طريق التمسك بالأصالة والمعاصرة فى آن واحد، والبعد عن تقليد القدماء والمحدثين. الاجتهاد ضد التقليد. فباب الاجتهاد مفتوح. ولم يغلق باب الاجتهاد لانصا ولا عقلاً ولا واقعاً. وينكر الأفغانى كل قول يسد باب الاجتهاد. بل إن الاجتهاد عند الخلف أكثر منه عند السلف. فما أقل المجتهدين فى السلف وما أكثرهم فى الخلف. ويرفض قول القاضى عياض فى إحدى المسائل. فهذا اجتهاده الذى قد يؤدى إلى الجمود. ويحق لغيره ومن يأتى بعده أن يجتهد من جديد نظراً لتبدل الأزمان. فلماذا يقال باب الاجتهاد مسدود؟ وأى دليل نص أو عقلى أو تاريخى يدل على ذلك؟ وأى أمام قال إنه لا ينبغى لأمر أن يجتهد بعده والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان؟ ولوعاش أبو حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل اليوم لجددوا مذاهبهم القيمة طبقاً لظروف العصر. واجتهاد القدماء ما هو إلا قطرة من بحر ﴿وأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء﴾. لقد نزل القرآن بلغة العرب ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾، ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾، ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾، وذلك من أجل أن يفهم وأن يعمل الإنسان بالعقل للتدبر معانيه وفهم احكامه ومقاصده. وفكر الأفغانى هو فكر شرعى يقوم على الاجتهاد عن طريق الالتحام المباشر بالواقع والتظير المباشر له اعتماداً على روح الإسلام ومقاصد الشريعة وليس القياس الفقهى القديم الآلى الذابت، تعدية الحكم من الأدل إلى الفرع

^(١) الأعمال ص ١٩٨-٢٠١ أمثلة فى التقليد النافع، وضربه المثل بدولة اليابان الشرقية، خاطرات ص

١٣ قوله فى الناشئة الشرقية استحساناً واستيحاناً وأمثلته على التقليد النافع وضربه المثل بدولة اليابان

الشرقية وذكره انجح الوسائل للنهوض من السقوط، خاطرات ص ٢٩٩ - ٣١٥.

لتشابه بينهما في العلة. فالنص هو الواقع، والعلة مقاصد الشريعة، والفرع أحوال المسلمين من استعمار وقهر وتسلط وتخلف وجزئنة، والحكم هو النضال والثورة. يعتمد على المعقول والمنقول والمعاش. والاجتهاد مذكور بنص القرآن. ﴿وَلَكِنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ . لقد أضر جمود بعض المستعلمين بالاسلام والمسلمين. لذلك يفخر الأفغاني بصفات العقل والتروى، وانطلاق الفكر من الأوهام. نعم، في الإمكان أبدع مما كان. وتعجز العين المجردة عن رؤية الاشباح والأجرام البعيدة، وتستعين بالمجاهر والنظارات. وإذا كان على مستوى الخلق ليس في الإمكان إبداع مما كان فإنه على مستوى الصنعة هناك باستمرار في الإمكان إبداع مما كان. والعصامي قد يكون لمن يخلفه عظاماً. والعصامي فقط قد يبقى وارثاً للعظام^(١).

٢- الإسلام والنصرانية

ويتجلى الصراع بين الأنا والآخر في الإسلام والنصرانية أو الشرق والغرب، أو التحرر والاستعمار أو السقوط والنهضة. ويبدأ الأفغاني بآية قرآنية ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ من أجل النظر في التاريخ والإجابة على سؤال شكيب أرسلان تلميذه: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ ويبدأ بتقرير واقع حسي بديهي، أن الله خلق الإنسان عالماً صناعياً، ويسر له سبل العمل وهداية إلى الإبداع والاختراع، وقدر له الرزق من صنع يديه، يفلح الأرض ويرعى الحيوان، ويخيط الملابس، ويبني المساكن تحقيقاً لفكره وإبداعه. ولولم يعمل ويجتهد لعاش عالة على غيره يستجدي العون. وهو في فكره وعمله في حاجة إلى من يرشده ويعلمه وهو الدين. فالدين مرشد للحياة. وتتنازع في الإنسان صفتان متناقضتان: الشجاعة والجبن، الجزع والصبر، الكرم والبخل، القسوة واللين، العفة والشرة، الكمال والنقص. لذلك احتاج إلى التربية منذ طفولته الأولى لتنشئة الإنسان على الفضائل دون الرذائل. وتبدأ في الإنسان ثلاثة بواعث: الأثر

(١) باب الاجتهاد مفتوح، الأعمال ص ٣٢٩-٣٣٠ ص ٢٤٨/٥٣. الرد على الدهريين ص ١٧٨-

خاطرات ١١/١٦٧-٣٦١/٣٩٢-٣٩٦.

يرفعه نحو الأسماء الإلهية وبالتالي اكتشاف الدين، والثاني نحو الخواص الطبيعية وبالتالي اكتشاف العلم، والثالث نحو الحقائق الإنسانية وبالتالي اكتشاف العلوم الإنسانية. ويعتمد في إشباع هذه البواعث على كل ما اختزن الآباء والأمهات والأقوام والمربون. أما التكوين البدني فلا شأن له بالا استعدادات الذهنية إلا قوة أضعفاً. الاستعدادات موجودة بالطبع، ويختلف الناس فيها قوة وضعفاً، فطرة واكتساباً. قد يتفوق فيها السابقون على اللاحقين، وقد يتفوق فيها اللاحقون على السابقين. ويظل الروح سلطان على البدن والذهن كما يقضى بذلك العقل.

والدين وضع إلهي، والبشر هم الداعون إليه. تتلقاه العقول عن المبشرين المتذرين. فهو مكتسب لمن لم يخصهم الله بالوحي ومنقول لهم بالإبلاغ والدراسة والتعليم. وهو أول ما يمتزج بالقلوب، ويرسخ في الأذهان، وتصطبغ به النفوس، وما ينتج عنه من عادات وممارسات بدنية، وعزائم وأدوات. فهو سلطان الروح ومرشدها لتدبير البدن وكأن الإنسان مجرد لوح أبيض ينقش عليه الدين أول ما ينقش. ولو خرج الإنسان على الدين لم يخرج عما تركه فيه من صفات. واضح أن الأفغانى يجعل تقدم النصرانية وتخلف الإسلام إنما هو راجع لقانون تاريخي، القدرة على السيطرة على العالم وإعادة تصنيعه بهدى الدين. وأن الإنسان به الخير والشر، ورسالته في العالم تقتضي غلبة الخير على الشر. وأن الإنسان في بواعثه إما يكون عالماً إلهياً أو عالماً طبيعياً أو عالماً إنسانياً. وهي مقدمة ضرورية للإجابة على سؤال تخلف المسلمين وتقدم النصارى وإرجاع ذلك للدين دون أن يطور ملاحظاته بأن النصارى تركوا الدين القديم وأخذوا دين العقل والعلم والإنسان والطبيعة فتقدموا وأن المسلمين أخذوا الدين الشعائري العقائدي الفقهي وتركوا الدين العقلاني العلمي الإنساني الطبيعي فتخلفوا^(١).

(١) النصرانية والإسلام وأهلهم، الأعمال ص ٢٨٢-٢٨٨ نظريته العامة في الإسلام والمسلمين وأسباب ما ألم بهم من الانحطاط مع توفر ما في الدين من دواعي العوض وأسباب الرقي على عكس من نهض وليس في دين ما يحمله عليه. وفيه من أخذ العادة والنهضة المشوذة فيهم وفلسفته بذلك خاطرات ص

وقامت المسيحية على المساومة والمياسرة فى كل شىء، ورفع القصاص، وطرح الملك والسلطة، ونبذ الدنيا وبهرجها. وأوصت بطاعة ملوك الدنيا وترك ما القيصر لقيصر وما لله لله، والابتعاد عن التنازع والاحقاد والأهواء كما هو الحال فى الوصايا على الجبل. هذا على مستوى النظر، وهى مبادئ صحيحة فى كل دين. أما على مستوى العمل فقد قام المسيحيون بعكس ذلك، النفاث على الدنيا، والمفاخرة والمباهاة، ورغد العيش، والصراع بين الممالك، والتغلب على الأخطار. يبدعون فى فنون الحرب، ويستعملونها ضد بعضهم البعض ضد الغير، فانقلب المثل إلى ضده. وتحول المسيحيون إلى وثنيين، وبدلاً من تطبيق محبة الجار طبقوا شريعة الغاب. وقام الإسلام على طلب الغلبة والشوكة والفتح والعزة، ورفض كل قانون يخالف شريعته، ونبذ كل سلطة لا تقوم على أساسه. فهم أهل قتال وحرب، وعلم وقوة، «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة». لذلك حرمت الشريعة المراهنة إلا فى السباق والرماية أى فى الفنون العسكرية. وهى مبادئ صحيحة للإسلام ولكل دين يبنى العزة لقومه فى الدنيا والنجاة فى الآخرة. أما على مستوى العمل فإنهم مستضعفون متخلفون مستعمرون أذلاء، فاقتهم الأمم الأخرى فى الفنون العسكرية وأصبحوا مقلدين لها. عاشوا تحت سلطة مخالفيهم، ورضخوا لهم. لقد اخترع أهل النصرانية مدافع الكروب والميترايوز وبندقية مارتين، وأحكموا الحصون، وأقاموا البواخر قبل المسلمين. وهنا تكمن المأساة، تحول النصارى إلى مسلمين فتقدموا، وتحول المسلمون إلى نصارى فتأخروا. كل فريق عمل عكس ما تروى به تعاليم دينه، فتقدم النصارى، وتخلف المسلمون.

ويتساءل الأفغانى: ألم ترسخ الديانتان فى قلوب الناس، هل نبذت كل ملة عقيدتها وكتبها المقدسة؟ هل تبدلت سنن الكون؟ هل طغت الابدان على الأرواح؟ هل طغى الخيال على العقل؟ هل انقلب الناس على الدين وعصت النفوس؟ هل السبب اختلاف الأجناس مع أن البشر متقاربون وينتسبون إلى أصل واحد؟ هل السبب اختلاف الأقطار وطبائع البلدان؟ ولا يجيب الأفغانى على هذه التساؤلات

ولكن يعطى حجة تاريخية. فالتاريخ خير شاهد. فقد تمثل المسلمون الأوائل الإسلام فبهروا الأبصار. وانتصر العرب والفرس والترك بفضل الإسلام. وكانت للمسلمين فى الحروب انصليية آلات نارية مثل المدافع أفزعت المسيحيين. وكان محمود الغزنوى يحارب الوثنيين فى الهند بالمدافع فهزمهم عام ٤٠٠هـ قبل أن يعرف النصارى عنها شيئاً. فلماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ تقدم النصارى ضد قواعد دينهم، وتخلف المسلمون ضد قواعد دينهم كذلك. كان سبب تقدم النصارى أنهم أبقوا على عادات وطبائع الرومان، وبقيت فى الاعماق. وجاءت النصرانية ولم تغيرهم فى شىء. بقيت النصرانية فى الكنائس والأديرة، خارج الحياة العامة. ثم شرعوا الحروب انصليية فانتهت النصرانية، وتزعزت العقائد، وعادوا كلهم إلى الوثنية التى نشأوا عليها. وأصبحوا مسيحيين فى الظاهر، وماديين فى الباطن. أما المسلمون فبعد تمثلهم الأول للإسلام وأصوله ظهر أقوام بلباس الدين، وأدخلوا فى أصوله ما ليس منه. فانتشرت عقائد الجبر والاستكانة بالإضافة إلى ما أدخله الزنادقة والاسوفسطائيون فى القرنين الثالث والرابع، ووضع الأحاديث المهيطة للعزائم. وتحول السم من الخاصة إلى العامة خاصة بعد انحسار التعليم والتقصير فى الارشاد. ولم يبق الدين إلا عند خاصة الخاصة. ومع ذلك لو أصبح المسلمون مسلمين، أو عادوا إلى الأصول لخفت العوارض ومالحو بهم من تخلف فى التاريخ. هذه المقارنات بين المسلمين والنصارى تقوم على المرأة المزدوجة، قراءة الأنا فى مرآة الآخر وقراءة الآخر فى مرآة الأنا مع بيان أوجه التشابه والاختلاف بين التجريبتين التاريخيتين كما فعل الطهطاوى فى "تخليص الإبريز" وكل أدب الرحلات الذى حاول "علم الاستغراب" تحويله إلى علم دقيق^(١).

(١) الأعمال ص ٢٨٤-٢٨٨ أنظر أيضاً دراستنا: جدل الأنا والآخر، قراءة فى تخليص الإبريز للطهطاوى، هموم النكر والوطنى ح ٢٠ دار قباء للطباعة، القاهرة ١٩٩٨ وأيضاً "مقدمة فى علم الاستغراب"، المدر الفينة القاهرة ١٩٩١.

وإذا كانت أوروبا قد وصلت إلى مبادئ الإسلام ومقاصد الشريعة بالعقل فإن أهل أوروبا يكونون مستعدين لقبول الإسلام إذا أحسنت الدعوة إليه. فالإسلام مقارنة بالديانات الأخرى يتسم ببسر العقائد وقرب تناولها. وأقرب الناس إليه الأمريكيون. فلا يوجد بين الإسلام وأمريكا عداوة كما هو الحال بين الإسلام وأوروبا. وقد تحققت نصف نبوءة الأفغانى، وانتشر الإسلام بين الأفريقيين الأمريكيين، الإسلام الأسود، وأصبح قوة مؤثرة فى حياة الأمريكيين فى الداخل والخارج بما يمثله من دعوة إلى الفضائل وسياسة خارجية لصالح الشعوب. ولم يتحقق النصف الآخر وهو تحول أمريكا إلى عدو للإسلام مع أوروبا خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والبحث عن عدو جديد. وقد لفت القرآن نظر الأفرنج إلى حسن الإسلام لأنه يدعوهم بلسانهم، العقل والتجربة. ولكنهم يرون سوء حال المسلمين فيترجعون عن الإسلام. ومن ثم يكون السبيل إلى الدعوة إلى الإسلام، التغيير العملى والتحقق بالإسلام. فالقرآن أول من دعى إلى الوصول إلى الحقائق بالبراهين الفلسفية والبحث عن العلل. وقد كان العرب فى الجاهلية لاشئ معهم. وبفضل القرآن ملكوا العالم، وفاقوا الأمم علما وصناعة، فلسفة وحضارة. وإذا استطاع القرآن ذلك قديماً فهو قادر على أن يصنعه اليوم. العيب فى المسلمين والتبعية على الأمة، الانصراف عن الأخذ بروح الإسلام والعمل بمعانيه ومضمونه، وانشغال المسلمين بالانفاظ والإعراب، والوقوف على الباب دون الدخول إلى المحراب. وكما لخص تلميذ الأفغانى القضية عند ما ذهب إلى الغرب فقال . رأيت إسلاماً بلا مسلمين، وعندنا مسلمون بلا إسلام^(١).

٣- الشرق والغرب

الشرق والغرب أحد مظاهر ثنائيات الأنا والآخر على مستوى المواجهة وكما بدت فى الاستعمار الحديث. ويرسم الأفغانى صورتين للشرقى والغربى ويحدد معالهما وخصائصهما التى تجعل الغربى يستعمر الشرقى، والشرقى يقبل استعمار الغربى. ويأخذ الإنجليزى نموذجاً للغربى. فالإنجليزى قليل الذكاء عظيم الثبات، كثير الطمع والجشع، عنود صبور متكبر، على عكس ما هو شائع من ذكاء

(١) أوروبا والإسلام، الأعمال ص ٣٢٦-٣٢٧ انظر أيضاً دراستنا "مناهج التفسير ومصالح الأمة" فى الدين والثورة فى مصر، ج٧ اليمين واليسار فى الفكر الدينى، مذبولى، القاهرة، ١٩٨٩ ص ٧٧-١١٦.

العربي. وواضح أن هذه الصفات إرادية أكثر منها ذهنية، رومانية أكثر منها يونانية. ويأخذ العربي نموذجاً للشرقي. فالعربي أو الشرقي على عكس الإنجليزي كثير الذكاء، عديم الثبات، فنوع جزوع، قليل الصبر متواضع. فواضح أن صفات الشرقي هي العكس، صفات ذهنية، وعيبه ضعف الإرادة وجزعه وعدم ثباته وصبره ونقص طموحه. فكان من الطبيعي أن يستعمر الغربي الشرقي بهذه الصفات المتباينة. فالاستعمار إرادة بلا عقل. كما يثبت الإنجليزي على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره، والشرقي لا يثبت على الصواب ولا على طلبه. فيفوز الإنجليزي على العربي بفضيلة الثبات، ويخسر العربي أو الشرقي كل حق لرذيلة التلون والتردد وقلة الثبات وعدم الصبر. استعمر الغربي الشرقي لثبات الغربي وتردد الشرقي وهي صفة أيضاً من صفات الإرادة إيجاباً وسلباً. والأفغاني يعيش في عصر نيتشه، وتوفي قبله بثلاثة أعوام. وما أكثر ما ورد في القرآن من ذكر للصبر ﴿اصبروا وصابروا﴾ ، ﴿والذين صبروا﴾ ، ﴿ولو أنهم صبروا﴾ ، ﴿ويشر الصابرين﴾. والأمة العربية خاصة والمسلمون عامة أحوج ما تكون إلى الصبر والثبات. يستهويها الوعد الكاذب وترضى به ولا تصبر على الوعد الصادق، وتخسر في الحالتين. فالأفغاني لا يشخص الداء ولكنه يشير إلى الدواء. وربما تغير الأمر الآن بعدما أصبح الصبر داء لا دواء.

والمصريون خاصة والشرقيون عامة في لقائهم مع الإنجليز أو الغرب مثل رجل مثر ترك من الأموال والأموال وخلفه ورثة سفهاء مبذرين. لذلك قضت الشريعة بالحجر على الوارث. وهذا الوصي هو الغرب، وفرق بين حجر الشريعة الذي يمكن أن يرفع وبين وصاية الغرب الباقية إلى الأبد فنتحول إلى استعمار وتملك واستعباد. ويتخذ الغرب ذريعة حفظ حقوق السلطان أو اخماد فتنة ضد الأمير أو إنقاذ نصوص القرامين أي صكوك الدائنين أو حماية حقوق المسيحيين أو الأقليات أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم أو دفاعاً عن حرية الشعوب المقهورة أو تعليم أصول الاستقلال أو إعطاء الشعب حقوقه تدريجياً من الحكم الذاتي أو إغناء الشعب الفقير بالاشراف على موارد ثروته. ويصدق الشرقي هذه الدعوى كما قال الشاعر.

ما زال يغلق آلاء ويشفعها . بما يفوق أمتي النفس بالعظم

فيطيع الشرقي الغربي منتظراً تحقيق الوعود. والغربي نفسه يعتبر الشرقي خاملاً جاهلاً متعصباً. أراضيهِ خصبة، ومعادنه كثيرة، ومشاريعه كبيرة، وهو آواه معتدل. والغربي أولى بالتمتع بكل هذا عن الشرقي، ويضع خطة للاستيلاء عليه. فالبقاء للأصلح. ويستعمل لذلك عدة أساليب منها : اقضاء كل وطني يمكن أن يجهر بمطالب وطنية، تقرب الاسقط همة، والأبعد عن المطالبة بالحق، تفريق البلاد طوائف وشيعاً، وإثارة واحدة على الأخرى حتى يقع الشقاق بينهما، ويتقارب كل منهما للأجنبي طالبا العون والتأييد ضد الطوائف الأخرى^(١).

ولا يتم مطلب الاستقلال الا بتربية النفس بالعلم الصحيح، والوقوف على مواطن الضعف، ومعرفة الواجبات، وكيفية تحقيق الهدف، واقتصاص الضعيف من القوى، واتفاق الكلمة، وجمع الأهواء. نهض الغرب بالعلم والعمل، وانحط الشرق بالجهل والكسل. اداء دفين في جسم الشرق يجب معرفته قبل طالب الدواء. والدواء هو العزة كما قال الشاعر :

عش عزيزاً أومت وأنت كريم - بين طعن القنا وخفق البنود
لايسلم الشرف الرفيع من الأذى - حتى يراق على جوانبه الدم

وهو دواء أخذه الغربيون فحقق لهم العظمة والاستعلاء. ووجدته الشرقيون مرأ فطرحوه جانباً كما قال الشاعر :

ولا يقيم على ذل يراد به إلا الأذلان غير الحي والودد

والأديب في الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً، بينما الأدباء في حياتهم أقفر الفقراء فإذا هم بعد الموت يصيرون بالثراء وحفلات التآبين أغنى الأغنياء. فلا يلتفت إلى عظمائه إلا بعد مماتهم.

(١) الغرب والشرق، الأعمال ص ٤٥٣-٤٥٨ رأيه في الأنكليز ووصفه الأنكليزي والعربي وفلسفته في الحجر الشرعي على نفوذ الفيه وشكل تطبيقه اليوم على أهل الشرق من الغربيين، خاطرات ص

الشرق فى حاجة إلى عمل جديد، وجيل جديد، وعلم صحيح، وفهم جديد لحقيقة معنى السلطان على الأجساد والأرواح وهو الدين، وجمع شتات أهل الأديان، وقبول الموت فى سبيل الحياة، حياة الوطن. وقد تأسست جمعيات أهلية لتكوين جيل جديد لا يقرع باب السلطان ولا تضعف إرادته، ولا تهين عزمته، ولا يغريهم الوعد بالمنصب، ولا تلهمهم تجارة أومكسب، وارتياذ المكاره لنجاة الوطن. ويؤول الأفغانى حديث الرسول "اشتدئ أزمة تنفجرى" بأن الأزمة هى تلك الهمة التى يستثيرها فى الشرقيين، وهى سنة الله فى الخلق وأداة تحريك التاريخ كما قال الشاعر:

ومهما ادلهم الخطب لا بد أن ينجلي .: وأظلمت الدنيا فلا بد من فجر

هذه الهمة هى التى خلقت مجد الأقدمين فى العراق والشام والاندلس ضد روح اليأس والفتوط. لقد حاول الغرب أضعاف لغة الشرقيين والتدرج بقتل التعليم القومى، وتشجيع احتقار اللسان القومى، وإيهامه بعجزه عن الإبداع الأوروبى حتى ينفر الشرقى من لغته وآدابه ويقع فى الرطانة الأعجمية واستجداء المناصب من الغربيين. ويمكن مواجهة ذلك بتعليم وطنى، تكون بدايته الوطن، ووسيلته الوطن، وغايته الوطن.

لا ينفع فى الشرق لسان ولا قلاب طالما خلق المالك والمملوك، الأمير والصعلوك، العالم والجاهل، سواء فى العالم الصورى قبل الخلق المادى، وطالما يرى الشرقيون فى الحقيقة مرارة، وفى الوهن حلاوة، وفى الذل هناء، وفى طلب العلا والعز الشقاء والعناء. المشكلة فى الشرق إذن مشكلة سياسية، السيد والعبد، الراعى والرعية. وطالما لا يتم القضاء على هذه الثنائية، ثنائية الأعلى والأدنى، التصور الرأسى للعالم، الاستبداد الشرقى ينتهى كل إصلاح فى الشرق إلى طريق مسدود. ويظل الشرقيون ضحية الوهم، ويعوج الشرقى باعوجاج حاكمه، ويستقيم إذا استقام. لذلك لا ينطبق على الشرقيين "مثلما تكونوا يولّ عليكم" بل ينطبق عليهم "مثلما يولّ عليكم

تكونوا" ليس الحاكم من نوع المحكوم، بل المحكوم من نوع الحاكم. الأول طريق الديمقراطية والشورى، والثاني طريق الدكتاتورية والتسلط والقهر^(١). وكما لاحظ ابن خلدون من قبل أن المغلوب مولع بتقاليد الغالب.

ولهذا التقابل بين الشرق والغرب طمع الغرب فى الشرق. وامتدت مطامع الغرب إلى عموم دول الشرق. وأصبحت ممالك الشرق وأهله مهددة بأن يكون مصيرها مثل مصير مصر والاحتلال. والاحتلال سبب الفوضى وارتكاب المنكرات والتعدى والسرقا. فالشراك منصوبة والسقوط قريب إلا إذا نهضت الأمم الشرقية ووحدت كلمتها ونشطت عقولها وعمل أولو العزم، وحفظت أسباب الملك، ومقومات الحرية والاستقلال. وشر أدواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف. وبعد تقسيم الدولة العثمانية إلى عشر خديويات، لكل منها استقلالها الذاتى فى نظام لا مركزى، تطالب إيران وأفغانستان والهند الآن بالاعتماد على السلطنة حماية لها من مطامع الغرب وحتى يعود الشرق للشرقيين. كان هدف الأفغانى اذن إيقاظ المسلمين والشرقيين بالحجج والبراهين وإظهار فظائع حكمهم ليبين لهم أسباب الاستعباد والذل والمهانة لمن لم يسقط بعد من ممالك الشرق فى يرثى الاستعمار أو ليؤجل سقوطه ويلم شمله. ولكن انهيار ممالك الشرق كان لايمكن إيقافه وهو فى الانحدار لبعده عن الدين. والمسكنات لا تغنى عن المرض والموت، وموت الأموات خير من ميت الأحياء، وكأن الأفغانى هنا مع حتمية التاريخ فى السقوط والنهضة.

ليس من مات فاستراح بميت .: إنما الميت ميت الأحياء

وبسبب هذا الطمع، وهو الباعث، الأخلاقى على نشأة الاستعمار، وسع الأوروبيون ممالكهم، وتفننوا فى ذلك بالحرب والقتال والغزو أو بالدهاء والحكمة

(١) الأعمال ص ٣٥٣ / ١٩٠ / ٢٣٩ - ٢٤٢ خاطرات ٣٩٦.

واللين والخديعة. وقد أدى كلاهما إلى الاستعمار، وتحويل ممالك الشرق إلى مستعمرات، وحكامه إلى مستعمرين. ونفط "الاستعمار" من الاضداد فإنه يعنى الأعمار والتعمير حسب الاشتقاق ولكنه فى الواقع يعنى التخريب والاسترقاق والاستعباد. ولا تستعمر إلا البلاد الغنية فى ثرواتها ومعادنها وترتبتها لجهل أهلها وخمواهم. ولانتفع المقاومة الضئيلة أمام المعدات الحديثة. وقد يدخل الاستعمار بلعبة حربية، انتصاراً لأمير أو تثبيتاً لملك أو قمعا لثورة وبدعوى الصداقة وحب الشعب ورقية. الاستعمار تسلط دول وشعوب قوية على دول وشعوب ضعيفة وجاهلة. فالقوة والعلم أسباب حركة الشعوب، والتاريخ إلى مناطق الضعف والجهل. فهو قانون تاريخى ثابت. والدول تخضع لقانون الحياة، الأقيام والسقوط، النهضة والانهيار، وهى قوانين الحياة والموت. الضعيف يخشى من القوى ويرهبه، والقوى يستذل الضعيف ويستعبده. استعمر الإنجليز الأمريكيين، فقام الأمريكيون بثورة ضد الانجليز، وتحرروا من الاستعمار دون اللجوء إلى الشكوى. وقاد استقلالهم جورج واشنطن طبقاً لقول الشاعر :

السيف أصدق أنباء من الكتب . فى حده الحد بين الجد واللعب

كما استقلت ولايات العثمانيين، اليونان والعرب والجبل الأسود وبلغاريا ورومانيا وهى دويلات صغيرة مدافعة عن الحرية والاستقلال. لا يفرق الأفغانى إذن بين استعمار إنجلترا لأمريكا واستعمار الأتراك لدول شرق أوروبا، ويأخذ صف المستعمرين حتى ولو كانوا من النصارى ضد المستعمرين حتى ولو كانوا من المسلمين. لم يكن حضور آل عثمان فى دول البلقان حضور الفاتحين المسلمين الأوائل، حضور العدل والحرية والمساواة والتعريب بل كان حضور المستعمر الأجنبى، حضور الظلم والقهر والاستغلال والتتريك^(١).

^(١) الاستعمار، الأعمال ص ٤٤٧-٤٥١ رآيه فى المستعمرات والمستعمرين وأن الاستعمار لأى دولة منها تعاضلت قوة واقتداراً، فمستعمراتها أن هى إلا أبواب عارية قابلة للاسترداد والأدلة على ذلك، حاصرات ص، ١٢ أن الغربيين ساعود بالمطامع نحو الشرق، ورآيه فى كيفية الوصول لرفع ما وقع وسيقع على الشرق وأهله من الحجر، وعطر ما ما يلزم ذلك الأمر من الحكمة والتدبير وزعورة المطلب، خاطرات ص ١١.

ويحلل الأفغانى بمزيد من التفصيل وكثير من التكرار وعدم الترتيب سياسة انكلترا فى الشرق واستعمارها لمصر والهند والسودان وقمعها لثورة عربى فى مصر وثورة المهدي فى السودان وقضائها على إمبراطورية المغول ثم على ثورات الهند المتعددة منذ القرن الماضى. ويبدأ بصورة فنية، وهو الخطيب الثائر "هلع على ما فى البيت فهلوع لاغلاق الباب، فاتخلع المصراع، وانفض الجدار من ورائه". هذا حال بريطانيا فى الهند وقناة السويس. كانت تريد باب أمن، فانخلع الباب وانهدام الجدار. أرادت إنكلترا بعد احتلالها مصر أن تدخلها تحت حمايتها، وتبدل بالجيش المصرى جيشاً إنجليزياً. وتقيم فى السودان سلطة مستقلة، وإرضاء المصريين بتنظيم أموالهم وتسكين روع العثمانيين. ثم قسمت الممالك فى الهند، وأقامت لكل قسم حامية فيها حتى استولت على الهند تحت غطاء الإحسان الإنجليزى والاستبشار العثمانى بما يحدث فى مصر والهند.

ثم ظهرت الدعوة المهدية فى السودان. وسارعت إنكلترا بالتدخل فى مصر كطريق للهند. وسالت الدماء على سواحل البحر الأحمر. ونفرت القلوب من الانجليز. وبدأ الخوف فى المغرب الإسلامى وطرابلس الغرب والشرق الإسلامى. فجزيرة العرب باب الهند. وأرسلت إنكلترا جوردون باشا إلى السودان لتفريق كلمة المحاربين فشتتهم ظلماً، وجلب قساوسة بروتستانت من السويد لنشر المسيحية بين المسلمين لاختماد الثورة. وأراد منح المهدي لقب أمير كردفان. ولكنه أخفق فى سعيه. فذهبت قوة إنجليزية بقيادة الجنرال جراهام إلى سواحل البحر الأحمر لاسترجاع شرف بيكر وهس من الضباط الإنجليز الذين هزمهم أنصار المهدي. وغلبوا ثلاثة آلاف من العراة السودانيين، وقتل منهم ثمانمائة بدوى ومع ذلك لم تجبن القبائل وظلت تحارب وتقاوم. وقد فتك المهدي بعشرة آلاف جندي بريطانى مرة، ومرة أخرى بألفين وخمسمائة، وكلهم تحت مشاهير قواد جيش إنكلترا. فلا يفت فى عزمه انهزام بعض المنتسبين إليه. تخيلت إنكلترا أنها نجحت وهنأتها الدول على انتصارها فى معركة وكأنها نابليون الأول أو غليوم الثانى. وليس فى أفكار غوردون أن يخمد الثورة ولكنها قد تهدأ قليلاً بفضل العثمانيين والمصريين المتعاطفين مع المهدي.

كان يكفي إنجلترا حفظ باب الهند بتأييد العثمانيين والمصريين. ولكنها التفتت إلى تقوية باب الهند الشمالي، أفغانستان وباكستان. ولم يغن الباب عن انهيار البناء كله. فقد لجأ التركمان في مرو إلى روسيا بعد أن كانوا مستقلين. وقد يتبعهم تركمان سرخس وينضمون إلى فارس، وهم مخالفون لهم في المذهب فيفتح بذلك الطريق إلى روسيا إلى فراه ثم إلى قازين ثم إلى سجستان ثم إلى الهند. وهناك قبائل أفغانية في ضجر من حكومتها قد تتبع أبناء عمومته التركمان. وقد تخرج قبائل أخرى على الأفغان ضد سلطة أهل السنة، وقد كانوا في الحرب الأخيرة مع الإنجليز. وقد يتجاوزون إلى روسيا لوعودها لهم، فيمتد سلطان روسيا إلى شمال الهند، وتهدد الهند، وربما يمتد إلى قناة السويس، والايقاع بقبائل الأفغان واختلافها على الإمارة بعد أن تقربت إلى ألمانيا والنمسا، وعقدت معاهدة معهما على حفظ السلام في أوروبا حتى تتفرغ لآسيا. فهل يمكن للإنجليز تفهم الخطر القريب وألا يقعوا في شرك المسألة المصرية. يخافون منها ويقعون في شركها، وهم لا يقدرون عليها إلا بمعونة العثمانيين وبعض المصريين؟ فواضح أن الأفغان هنا يؤسس سياسة ضرب إنجلترا بروسيا، وضرب روسيا بإنجلترا، واللعب على تناقض المصالح بين القوتين الكبريتين في عصره، تخويف إنجلترا بروسيا، وتخويف روسيا بإنجلترا كما حدث نفس الشيء، بعد ذلك أثناء الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وقيام حركات التحرر الوطني وقادة العالم الثالث خاصة عبد الناصر بالاستفادة من التناقض بين المعسكرين المتنازعين لصالح الاستقلال الوطني للشعوب المتحررة^(١).

ومع ذلك يبدو الأفغان أكثر تعاطفاً مع روسيا كما كان عبد الناصر فيما بعد، وأكثر عداوة للاستعمار الغربي ممثلاً في إنجلترا كما كان عبد الناصر معادياً للاستعمار الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. فبريطانيا تفتح البلاد وتوقع

^(١) سياسة إنجلترا في الشرق، الأعمال ص ٤٦٠-٤٦٤ الإنجليز والإسلام، المعروة ص ٦٨-٧١ رأيه في

الإنجليز ووصفه الإنجليزي والعربي، حضرات ص ١١.

بين أهلها البغضاء، وتدخل في أمور الشرق، وتستعمر الهند ومصر لاستعباد أهلها. الانجليز في ذاتهم أمة من أرقى الأمم تعرف العدل في الداخل، ولكنها تمارس الظلم في الخارج. الإنسان له حق الحياة. وهو الإنجليزى، ولغيره من البشر الموت. ليس في الوجود إلا الله وحق الإنجليزى. اطمع دافعه . وكل بقعة غنية في العالم له. لذلك لا يصدر عنهم في الخارج إلا الظلم. ووسليتهم المكر والخديعة. ومن السفه مطالبة الشرقيين الإنجليز بالعدل أو الانصاف لأن معنى العدل هو التخلي عن البلاد وهو ما لن تقبله انجلترا. يكشف المعيار المزدوج لإنجلترا العدل في الداخل، والظلم في الخارج، التشنق بالعدل كمبدأ عام ثم تخص نفسها بالوصاية على النوع الإنسانى.

ومما ساعد على استعمار الشرق من الغرب، تفكك عرى الأمة الإسلامية وعدم الاتصال بين الأقوام مثل الأفغان والإيرانيين. فقد وقعت ثورة الهند عام ١٨٦٠ ولم تصل أخبارها إلى إيران وأفغانستان إلا بعد أن تمكن الإنجليز من أخمادها. وكذلك لا يعرف الهنود أخبار إخوانهم المسلمين. فالتركي والمغربى، والتونسى والجزائرى والمراكشى يعلمون أنه توجد مقاطعة اسمها الهند بها ملايين من المسلمين الهنود. ويعلم الهنود ان على الأرض دولة عثمانية إسلامية، يفرحون لفرحها. ومع ذلك تجهل كل أمة أحوال الأمم الأخرى. فلا يدري أحد أخبار الهند باستثناء وقوعها تحت الاستعمار الإنجليزى. والهند درة غالية فى آسياء كانت هدف الفاتحين منذ القدم ومطمح أنظار الملوك والسلاطين. زحف إليها الاسكندر، ودخلها فاتحاً من الشمال كما فتحها جيش الحجاج من الشمال، من بخارى وكابل. ثم أعاد فتحها السلطان محمود الغزنوى. وعطش الجيش فى الطريق فأعطى خادم السلطان له قرية ماء فأراقها أمام الجيش "لاخير فى حياة إذا هلك الجيش" وفضل الموت إذا كان فيه سلامة العسكر فتحمس الجند، وساروا حتى وصلوا إلى مكان المياه ثم انقضوا على حصون الهند، ودكوها بالمدافع ثم فتحها تيمور لك ثم نادر شاه الإيرانى وأخذ من خزانها وأموالها. وفتحت الهند بعد ذلك عدة مرات بحروب ومخاسر عديدة.

أما الإنجليز فقد ملكوا ثلث العالم بلا مخاطر ولا دماء ولا أموال. بل استعملوا سلاح الخديعة والحيلة، أسودا في ملمس جلود الأفاعي. يعرضون أنفسهم خدما صادقين وأناسا ناصحين، داعين إلى الأمن واستقرار النظام، وتثبيت الأمراء، وتنفيذ الفرائض، وتأييد السلطان. فإذا تصدى لهم ملك شرقي حلاق شوشوا عليه، وألبوا عليه الرعية، وأثاروا عليه الأحقاد، وأيدوا، بدلا عنه، السفهاء من الأمراء، ودعوا إلى عصيانه أو الاتفاق معهم على خلعه، وتنصيب أمير ضعيف أحق أوصى لم يبلغ بعد سن الرشد من ابنائه أو أقاربه. فعلوا ذلك بالهند، انتشروا كتجار، وفروا كلمة الأمراء، وأقروا الراجات، وطالبوهم بالاستقلال والانفصال عن الدولة التيمورية لتقسيم الهند إلى ممالك صغيرة. وأغروا كل أمير بقلب. فإذا ما احتاج إلى المال عاونوه، مرة بالذهب، ومرة بالسيف. ونفروهم من عساكرهم، واتهموهم بالضعف والجبن والخيانة والاضلال، وطالبوا باحلال الإنجليز محلهم لما هم عليه من قوة وبسالة ونظام وقيادة إنجليزية مع بعض الجنود الهنود. ووضعوا على كل عاصمة فرقة إنجليزية لحماية الحاكم، وأعطوها أسماء محلية مثل العمرية للحكومة السنية، والجعفرية للحكومة الشيعية، والكشمية للحكومة الوثنية. فإذا ما فرغت خزائن الحكام فتح الإنجليز خرائطهم، وأقروضوهم بفوائد كثيرة أو قليلة. فإذا ما عجز الأمير عن السداد طالب الإنجليز بقطعة أرض للاستفادة منها وسداد الدين وأرجاعها، فيضعون أيديهم على أخصب البقاع، ويؤسسون فيها القلاع والحصون على أبواب العواصم. ويغرون الأمراء بمزيد من الإسراف والتبذير، ويغرون الحكام بالحروب بينهم، ويأتون لمساعدتهم، ويجبرونهم على الصلح في مقابل تنازل المهزوم عن جزء من أرضه للمنتصر، وهم الخدم الصادق والناصر الأمين، حتى إذا ضعف الجميع قادوهم إلى السيف بجنوده أو خلعوه، وأدلو محل أحد أعضاء العائلة المالكة بشرط أن يقطع لهم أرضاً أو يمنحهم امتيازاً، ويقع الكل في مخالب الإنجليز^(١).

(١) الهند والاستعمار، الأعمال ص ٥٠٨-٥٢٩ حديثه عن الهند وملكها ورضى من سيرة السلطان محمود الغزنوي بفتح ثلث الأقطار، والمقابلة بين حالة مصر في عهد محمد علي باشا وحالتها بعد الاحتلال، مخاطرات ص ٢٤٩-٢٧٢.

ويستمر الأفغانى فى هذا الوصف التفصيلى المعروف فى مصر أيضاً فى عصر إسماعيل وتكبيله بالديون ثم شراء أسهم قناة السويس وخلعه ووضع سعيد ثم توفيق مكانه حتى احتلال مصر، مركزاً على شبه القارة الهندية خاصة فى الشمال. فعندما وقعت الحرب بين الأفغانيين والبنجابيين خاف الانجليز من تسلط الأفغان. فتدخلوا للصلح بينهم. وسحروا الأفغانيين بلين القول حتى تركوا لهم بيشاور وما يليها، وأجلى الأفغان بنجاب . وبعد ذلك بعشر سنوات زحف الإنجليز على بنجاب وافتتحوها بأنفسهم، واستولوا على بيشاور، وأدرك الأفغان الحيلة بعد فوات الأوان. وقد حدث أيضاً أن خلع الانجليز فى الهند أميراً رأوا فيه البصيرة والحزم. وأقاموا بدلاً منه ابنة، وجعلوا أنفسهم أوصياء عليه. واستولوا على خزانته، وأداروا مملكته، واستولوا على عسكره، ولم يبق له إلا الاسم. وتم لهم ذلك تحت راية العدالة والاصلاح واستقرار النظام، والمحبة والاخلاص. وإذا اشتكى الملك إلى لندن تركوه حتى يجوع. وأمراء الشرق تلهيهم الالقاب والاسماء والالفاظ حتى ولو كانت مجردة من أية حقوق يلتذ بها مثل : نائب، راجا، خديوى، سلطان. وفى نفس الوقت يستولى الانجليز على كل الوظائف السامية. ويوزعون بعضهم على الطوائف لتقريب بعضها على البعض الآخر مثل الفرس أولاً الذين على دين زرادشت، وهم المجوس، ثم الوثنيون وأخيراً المسلمون. فليس للمسلمين حظوظ فى الوظائف الا ما يتركه المجوسى والوثنى، وفى نفس الوقت يدعى الإنجليز أنهم أولياء المسلمين، وينفون علماء المسلمين المذنبين يؤمنون بآيات الجهاد فى القرآن الكريم.

تحولت الهند إلى خراب بفضل الإنجليز بعد نهيبها وتقطيعها. وأهان الإنجليز الهنود، يركلونهم بالعصى لأنهم ليسوا من البشر. وتسلط الإنجليز فى الأماكن العالية مع أن البراهما الذى فتح الهند قادمة من إيران لم يذل الهنود مع أنهم كانوا يعتقدون أنهم من سلالة الآلهة، واشركوا الهنود معهم. وفتح المسلمون الهند، وعاملوا الوثنيين مثل معاملة المسلمين حتى أوقع الإنجليز بينهم الشقاق، يتهمون المسلمين بالتعصب مع أن فى حكومة المسلمين سنة وشيعة ووثنيين وفى حكومات

الإنجليز لا يوجد هندی فی وظیفہ شریفہ. ولكن النعمة تجلب النعمة. ونعمة الهند جلبت نعمة الإنجليز لا على مما يحيط بالهند لأن الإنجليز يعتبرونه من خلال ما يجب تأمينه حفاظاً على الهند. أتت النعمة على العثمانيين ومصر. فقد استولت إنجلترا من العثمانيين على قبرص بحجة المحافظة على ممتلكات إنجلترا في شرق المتوسط، وربما كانت نفس الحجة لاحتلال مصر وقناة السويس باب الهند والسودان مصوع وسواكن وعدن وباب المذهب وجبل طارق، وكلها أبواب للهند وأفغانستان وإيران. وقد حاول الإنجليز نفس التحايل على أفغانستان قم تفاح فأنت بجيش قوامه ستون ألف جندي لاحتلاله وهم في أعلى درجات التسليح ولكن هزمهم الأفغان. فعاد الإنجليز إلى الحيلة. أما بلاد العجم فقد تم تقسيمها إلى مناطق نفوذ بين إنجلترا وروسيا اقتصادياً، ملاطفة الأفغان مرة والقسوة على إيران، وملاطفة إيران مرة للقسوة على الأفغان، ضرباً للأخ بأخيه، والعدو كاسب في كلتا الحالتين، توحيد الأعداء، وتقريق الأصدقاء. ولم يأت الأفغانى الهند ليخيف بريطانيا أو لأحداث، شغب عليها واكن، خوف بريطانيا من عالم أعزل تثبت ضعفها وعدم أمنيا من حكمها. إنما مهمة الأفغانى استنهاض الهنود ويقظة الشرق في مواجهة الاستعمار.

ويستعمل الأفغانى أسلوب الرمز. ويشرح أسطورة هيكل عظيم خارج مدينة اصخر لم يأوه أحد الا مات دون معرفة سبب موته. فأتاه شخص يحب الموت. وسمع أصواتاً مزعجة تريد الفتك به. فرحب بها لأنه سئم الحياة. ثم اختفت الأصوات داخل الطلسم، وتناثرت الدراهم والدنانير. وفي الصباح أتوا لتشييع جنازته فوجدوه حياً مستبشراً. وذلك لأن هلك من هلك إنما كان بالفرع مما لا حقيقة له. فكذلك بريطانيا هيكل عظيم يموت الداخلون فيه من الفرع. هكذا حال الهنود، يخافون من شبح لا وجود له. فقد ذهب الإنجليز إلى الهند قوة مجتمعة، وتسابقوا مع الفرنسيين والهولنديين والبرتغاليين إلى أراضي الهند الواسعة، وغلبوا طيبة قلوب الهنود، وأوهموهم بتخليصهم من الأمم الظالمة، فرنسا والبرتغال

وهولندا. سيطر الإنجليز فى الهند والهند الصينية وبرما على نحو مائتى وثمانية مليوناً من الشرقيين. ولو كانوا ذباباً لأصموا الأذان بالطنين. ويصيح فيهم الأفغانى صيحه الشهيرة "لو كنتم وأنتم تعدون بمئات الملايين نباباً مع حاميتكم البريطانيين، ومن استخدمتهم من ابنائكم فحملتهم سلاحها لقتل استقلالكم وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الألوف، لو كنتم أنتم مئات الملايين كما قلت نباباً لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى، ويجعل فى آذان كبيرهم المستر غلاد ستون وقرا. ولو كنتم أنتم مئات الملايين من الهنود وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة وخضتم البحر وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى هندكم أحراراً....اعلموا أن البكاء للنساء والسلطان محمود الغزنوى ما أتى إلى الهند باكياً بل أتى شاكياً السلاح. ولأحياة لقوم لا يستقبلون الموت فى سبيل الاستقلال بثغر باسم"^(١).

وهذا ما حققه غاندى بعد ذلك بالساتياجراها، تحويل الملايين من الهنود إلى قوة بشرية فى مواجهة الاستعمار الإنجليزي. وهوما استأنفه غاندى وسعد زغلول وعبد الناصر ونهرو وعرابى والمهدى من قبل وليس كما يحدث الآن من تفتيت للسودان وعزلة عن مصر، واتجاه مصر غرباً.

(١) الأعمال ٥١٨-٥١٩ حديث له عن الهند محتيلاً وشيء من سيرة السلطان محمود الغزنوى بفتح تلك الأقطار ، خاطرات ص ١٢/٢٥٨-٢٥٩، الهند ومصر ، خاطرات ص ٢٦٦-٢٧١.

الفصل السادس

مصر والشرق

١- المسألة الشرقية

سواء بدأ الأفغانى من العام إلى الخاص، من الشرق إلى مصر أو بدأ من الخاص إلى العام، من مصر إلى الشرق فإن النهاية واحدة، مصر بؤرة الشرق، والشرق مركزه مصر.

ويبدأ الأفغانى بتأصيل الموضوع فى المسألة الشرقية فى الماضى والحاضر والمستقبل. فقد انتشر الإسلام فى الشرق، ومصر والمغرب العربى جزء من روح الشرق. انتشر حرباً أم صلحاً فى أقصر عصر، انطلاقاً من شبه الجزيرة العربية إلى الشام والعراق ومصر وفارس والهند وتركيا بدافع دينى يقوم على المساواة والترابط الاجتماعى وانتشار الآداب واللسان العربى والأخلاق الفاضلة مثل الصدق والوفاء بالعهد والعدل والحرية والمساواة وإغاثة الملهوف والكرم والشجاعة. لذلك سقطت العروش. وتحولت مصر الرومانية إلى إسلامية عربية، وكذلك سوريا والعراق. كانت الفضائل وسيلة التعرب وكذلك الآداب. فقد كان العرب الأوائل، حتى قبل الإسلام، يقدرون آداب الغير، ويحلون بها لسانهم مثل كسرى أنوشروان. وظهر من بينهم الحكيم الطبيب مثل الحرث بن كلدة يماثل حكماء الفرس. وكان للشاعر فى قبيلته المكان الأول. وإذا ما استعمرت أقوام وحافظت على لسانها فإن ذلك يكون أحداً أسباب تحررها.

أما الفتح التركى فقد كان عسكرياً وليس ثقافياً. توغل الاتراك فى كبد أوروبا حتى فينا، واستولوا على بلغاريا والصرب والجبل الاسود، ولكنهم لم يتركوا آثاراً كما ترك العرب فى مصر والشام والعراق والاندلس وكما قال الشاعر :

هذه آثارنا تدل علينا . فانظروا بعدنا إلى الآثار

تعرب الأتراك ولكن الاتراك لم يعربوا غيرهم أو يتركوه. لذلك ثارت دول البلقان ضدهم. عزب العرب بالحكمة والتسامح واللين، والتركى لم يترك أثراً

باعتراف الأتراك أنفسهم مثل ضيا باشا. فتوحات العرب حضارية وفتوحات الأتراك مجرد غزو. لم تتبع الأتراك سنة محمد الفاتح والسلطان سليم، وهو قبول اللسان العربى. أخذ الأتراك الإسلام الشعائرى العقائدى البدوى، ولم يتركوا وراءهم الإسلام الحضارى للناس وللشعوب المفتوحة. وانغمسوا فى السفه والترف والبذخ والاسراف. وكلها عوامل اضمحلال وانقراض وزوال للعمران. الأتراك مسلمون كالعرب ولكن شكلاً دون مضمون. وفضل العرب على الأتراك ترك الآثار والعمران. والفرنسيون كالعرب يتركون الآثار فى حين تظهر عيوب الألمان لفرنسا فى الحروب السبعينية. ويستشهد الأفغانى بأية «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» ويفسر السعى بأنه ترك، الآثار. وهو سبيل النجاح. لقد أثر العرب فى الشعوب باعطائهم أفضل ماديهم، اللغة والعلم. وانتشر الإسلام باللغة والحضارة فى كل الأرض القديمة بآداب الدين وليس بالجزية، ونشر قيم المساواة وحفظ كيان المجموع بحرية دون اكراه مع الابقاء على التعددية اللسانية والفكرية والاجتماعية. وسبب ذلك أخلاق العرب، واستحسان الأمم أخلاق الوافدين، والاعجاب بلسانهم. انتشر اللسان العربى ليس بسبب الفتح بل بسبب الآداب العربية، الحكم والأمثال والمواظ. وقد ساهم فيها البدو والحضر. ولكن العربية وسعها البدو فى البرارى والقفار وضيقها الحضر فى المدن والأمصار. وكان التحول من البدو والحضر خسارة للغة وانتقال لها من الطبيعة الى الصنعة، ومن الحرية والإبداع الى التزمّت والتقليد، لا فرق فى ذلك بين الأفغانى وروسو. لذلك لزمّت التربية الوطنية للشرقيين بعد أن حظر الغرب ادخال الاسلحة والتعليم اليها أى القوة والعلم لابقائهم تحت الوصاية وابعادهم عن الوطن والعمل له. فحياة الشرقيين بالعلم الصحيح موت لحكم الغرب فيهم وفك الحجر عنهم^(١). يدرس الأفغانى المسألة الشرقية كفيلسوف.

^(١) بين العرب والأتراك، الأعمال ص ٢٢٢-٢٢٥ تفسير لما أشكل على المؤرخ والشاعر التركى ضيا باشا من عدم ترك الأتراك أثراً بعد أن توغلوا فى أوروبا ولم يكن لهم ما للعرب فى فتوحاتهم ورحح جمال الدين وأيضاً العرب والتعرب، الأعمال ص ٢١٩-٢٢٠ قوله فى تأثير فضائل الوفود والفتاحين وضربه المثل بالعرب فى فتوحاتهم وانتشار لسانهم، خاطرات ص ٨٤-٩٠ فعاليات آداب اللسان، الأعمال ص ٢٢٠-٢٢١ تأثير آداب اللسان، خاطرات ص ٩٣-٣٩٦/٩٤. المسألة الشرقية وما ارتآه فى حلها-

سياسة وفيلسوف تاريخ نظراً لارتباط فلسفة السياسة بفلسفة التاريخ. السياسة محرك التاريخ، والتاريخ مجال النشاط السياسى. ويقصد بها الخلافة العثمانية وضعفها وتفككها وطريقة فتوحاتها للبلقان وشرق أوروبا وحال ولاياتها مثل مصر. وجوهرها الصراع بين الغرب والشرق، واستعمال الدين لصالح كل منها. يتذرع الغرب بالنصرانية والشرق بالاسلام، وأهل كل دين صامت خامل لا يتحرك. يسخر قادة النصرانية الدين من أجل الدنيا، ويحسنون أحوالهم، ويسخر قادة الاسلام الدنيا من أجل الدين، ولا يعملون بأحكامه ففسروا الدين والدنيا معاً. فى الغرب الدين وسيلة والدنيا غاية. وفى الشرق الدين غاية والدنيا وسيلة. سبب نهضة الغرب التحول من احياء علوم الدين إلى احياء علوم الدنيا، وسبب وتخلف المسلمين التحول من احياء علوم الدنيا إلى احياء علوم الدين^(١).

لقد ولد فتح محمد الفاتح القسطنطينية حقد الملوك المسيحيين ضد المسلمين، وأخذوا فى الكيد لهم، وناصبوا الدولة العثمانية العداوة والعمل على اضمحلالها وسلب فتوحاتها منها. ويحمل العثمانيون جزءاً من المسؤولية لأن استمرار الحروب والتغلب والانتصار فيها لا يكون إلا بالقوة والعلم وليس بالقوة وحدها. ولو أن الدولة العثمانية راقبت حركات الغرب وجارته فى مدينته وحضارته وعمرانه، وزاوجت الفتوحات المادية بالقوة العلمية كما فعلت اليابان لما كانت هناك مسألة شرقية، ولما ظهر هذا التباين بين قوة وجهل عند العثمانيين، وقوة وعلم عند

=توجيه لفكرة السلطان محمد الفاتح والمطابق سليم باتخاذ اللسان العربى لساناً رسمياً والأخذ بتعليمه، خاطرات ص ٢٠٩. ويراينه على استحالة مطلب تترك العرب خصوصاً وأن شواهد التاريخ من الأدلة القاطعة إذ تهرن على أن كثيراً من الأعاجم استعربوا ولم يسمع أن عربياً استحم، وبالأحمال نتيجة ما ارتآه فى حل المسألة الشرقية على توسع فى الموضوع وتناوله حالات العناصر فى المملكة العثمانية من حيث روحها وذكره الأسس الثابتة للأقوام من مدنية ولسان وتاريخ وما لذلك من التأثير، وفيه إفاضة ذكره الفرق بين عدل يأتيه الفاتح من علم وحب بإجراء العدل والأخذ به وبين ما يأتي من ذلك عن غرور وعزة وإتيان العدل إذ ذاك عرضاً، خاطرات، ص ١٢.

^(١) انظر دراستنا : التصوف والتنمية، احياء علوم الدين أم احياء علوم الدنيا ؟ فى الإسلام فى العالم الحديث، ح ١ الدين والايديولوجية والتنمية، الانجلو المصرية. القاهرة ١٩٩٥ ص ١٦-٤٣ (بالانجليزية).

الغربيين، ولما انهزمت حكومة الجهل على يد حكومة العلم. يهزم الغرب المسلمين الآن بالعلم مصدر القوة. وينهزم المسلمون الآن أمام الغربيين بالجهل مصدر الضعف. إذن ليس الدين وحده سبب المسألة الشرقية. فقد فتح آل عثمان الممالك، وبقي أهلها نصارى أشد تمسكاً بالنصرانية. فتحوا البلاد ولم ينشروا الاسلام ولا لغته، ولا عملوا بأدابه وتعاليمه. انتصر الأتراك أولاً على الأوروبيين بالعلم العربى، وقد كان الأوروبيون أولاً جاهلين به. وجمعوا بين القوة والعلم كما يفعل الأوروبيون الآن. وجمع السلاطين بين القوة والعدل. وظل النصارى فى طاعتهم طالما كانوا يجمعون بين القوة والعلم فى الحكم، والضعف والجهل فى المحكوم. ثم انعكس الأمر فتحول الحاكم إلى محكوم، والمحكوم إلى حاكم بنفس القانون، «ولنك الأيام ندولها بين الناس»، وهو قانون ثابت، «ولن تجد لسنة الله تبديلاً»، «ولن تجد لسنة الله تحويلاً».

قامت الدولة العثمانية فى القرن السابع الهجرى بآسيا الصغرى. واستخلص السلطان عثمان الأول ما بيد السلجوقيين من الملك من الشرق، والروح من الغرب. وركزا على شبه جزيرة البلقان، وهى منطقة التقاء آسيا وأوروبا. وقد كانت فى المملكة الشرقية بعد قسمتها إلى شرقية وغربية. وفيها غير تركيا اليونان والصرب ورومانيا والجبل الاسود. ولكل أمة منها مطامع وعروق وطوائف وميول سياسية. وقد كانت البلقان مهد الفتن والقتل والاضلال ولا تزال. كل دولة صغيرة تطمع فى توسيع نطاقها على حساب جارائها أو ابتلاعها كلية من الدول الكبرى كروسيا والنمسا اللذين ساعدا البلقان على الاستقلال تحت ذريعة الدفاع عن العنصر السلافى والصربى مثل حجة النصرانية وتخليصها من الحكم الاسلامى.

افتتح السلطان مراد الثانى بلغاريا عام ١٣٨٢م. وبقت تحت حكم الاتراك أربعة أجيال. وهم قوم أشداء من أصول مغولية مثل المجريين والفنلنديين، نزحوا من قازان فى روسيا وأوروبا، ونزلوا البلقان فى القرن السابع الميلادى. تعودت على الاستقلال منذ نشأتها. وقد خشىها البيزنطيون. ثم تفهقرت وتخلفت فاستولى

عليها الروس. ثم استقلت وضعفت حتى فتحها الروم، وصارت جزءاً من المملكة الرومانية الشرقية. ثم استقلت وضعفت مرة ثانية ففتحها العثمانيون. ولكن العثمانيين لم يتركوا شيئاً وراءهم ولم يبخلوا شيئاً، وتركوا البلقان لجاهاتهم ودينهم ولسانهم ولتاريخهم، يتطورون مع الغرب. والحكام الاتراك قاعدون في فخخة وغطرسة وفخر بالاسلام. فنهضت وبدأت تهدد العثمانيين.

وفتح مراد الثاني الصرب عام ١٣٨٩م. وظل الاتراك بها مدة أربعة قرون بالرغم من ثورتهم أربعة عشر عاماً حصلوا بعدها على نوع من الاستقلال الجزئى أولاً ثم النهائي ثانياً عام ١٨٧٨م مثل بلغاريا. كما أخضع العثمانيون اليونان حتى عام ١٨٢٩م. ثم استقلت بمناصرة الغرب، وبعد حروب دامت سبع سنوات اشترك فيها الاسطول المصرى بقيادة إبراهيم باشا. وأخضع العثمانيون رومانيا وأدت لهم الجزية حتى عام ١٧١٦م، وظلت تحت الحكم العثمانى حتى استوات عليها روسيا. ثم ثارت عام ١٨٦٦م، وأصبحت ملكية. ثم فتح السلطان سليمان القانونى الجبل الأسود وسكانه من الصقالبة. ثم استقل عن العثمانيين عام ١٨٦٢م. والخلاصة أن الدولة العثمانية لم تكن تحسن الاستعمار. وكانت سداً تمنع الشعوب من التقدم والرقى^(١).

شعوب البلقان أمم وممالك، لها تاريخ ودين ولسان، وعادات وأخلاق، على طرفى نقيض مع العثمانيين. لم يوحدها العثمانيون ديناً أو لساناً أو ثقافة كما يفعل المبشرون. بدأوا باللسان التركى لتعميمه دون الدين، فكان لغة المستعمرين. وتحررت شعوب البلقان طبقاً لسنة الكون على عكس فتوحات المسلمين الأوائل فى مصر والشام. ولو أن الاتراك نشروا اللسان العربى والدين الإسلامى لا ستمرت البلقان تحت حكم العثمانيين. وبدلاً من تعريب الترك بدأ تترك العرب، فبدأ النفور بين العرب والاتراك، لم يقبل العثمانيون فكرة السلطان الفاتح والسلطان سليم بتعميم اللسان العربى. وقد توغل العثمانيون فى أوروبا والبلقان، وجعلوا القسطنطينية

(١) المسألة الشرقية، الأعمال ص ٢٢٨-٢٤٣.

عاصمة لهم، مع أن المدينة المستعمرة لا تكون عاصمة للملك لأنها قابلة للاسترداد. كانت المدينة مثل دمشق وبغداد عواصم وسط المحيط العربى وليست على الأطراف. وأن فتح الأتراك القسطنطينية أمر عظيم بعد أن فشل فيه يزيد وخالد وأبو أيوب الأنصارى والعباسيون واكتفى الرشيد بالجزية مع أن الرسول تنبأ بفتحها "لتفتحن القسطنطينية، فنعلم الأمير أميرها، ونعلم الجيش ذلك الجيش" إشارة إلى السلطان محمد الفاتح. العيب أن الأتراك جعلوها العاصمة. ولو فتحت قديماً لكان عليها من الولاة مثل مصر والاندلس والهند وبخارى وفارس^(١).

كان فتح البلقان إذن مظهر ضعف فى الدولة العثمانية نظراً للقلق والفتن وإعداد الجيوش لسفك الدماء. لذلك لم يكن البقاء فى البلقان مضموناً، وكان استقلالها معروفاً للعقلاء. وهو رأى على باشا الصدر الأعظم بعد أن رأى مخاسر تركيا. ولكن الدولة العثمانية لم تأخذ برأيه، جعل الخلافة فى بغداد وسط الأمة. وربما لم تصدق نبوءة الأفغانى هنا. فالقسطنطينية مازالت باقية فى يد الأتراك، وتشهد نهضة اسلامية معاصرة. ولو كانت إمارة لشجع ذلك الغرب على استردادها كما استرد الاندلس.

لو عمر الأتراك الأرض، وعدلوا فى أهلها، وجروا على سنة الرشيد أو الأمامون، وقد كانوا أغنى أمم الأرض وأكثرهم سلطاناً ! لم يحسنوا إلا الحرب دون العمران، ولم يقبلوا اللسان العربى، لسان الدين والأدب، الذى دخل اللسان التركى فأغناه. ولو خلا اللسان التركى من الكلمات العربية والفارسية لكان من أفقر لغات الأرض، ولعجز عن التعبير عن حاجات الأمة البدوية، وإما كان للأتراك شعر ونثر وبيان. فكيف يعقل تنريك العرب، وقد تبرك العجم بالاستعراب، وأصبح اللسان العربى غريب المسلمين لساناً؟ لقد خاطب الأفغانى السلطان عبد الحميد فى الأمر ولكن السلطان لم يكن جيد الاصغاء. وكان لا يرى أن فضل اللسان العربى كما كان يرى سليم أمراً صائباً. وكان لا يريد الاعتراف بأن توغلهم فى أوروبا

^(١) المسألة الشرقية، الأعمال ص ٢٢٨-٢٤٣.

وفتح شبه جزيرة البلقان كان خطأ. وواضح أن الأفغانى هنا ضد الاستعمار، واحتلال أراضي الشعوب بالقوة والقهر حتى ولو كان من جانب المسلمين الأتراك. فالفتح الإسلامى ليس استعماراً للشعوب ولكنه تحرير لها، وليس احتلالاً للأرض بل فتحاً لها. لم يحتل المسلمون العرب مصر وفارس والشام بل فتحوها فى حين احتل الأتراك العثمانيون شبه جزيرة البلقان ولم يفتحوها^(١).

لقد ساءت الأمور، فى رأى الأفغانى. وانقضى وقت الإصلاح، وإخراج التصورات من ميدان النظر إلى ميدان العمل، بعد أن كانت الدولة العثمانية فى عنفوان قوتها وأوج عزتها. أصبح الأمر الآن للقوة وحدها. ينتصر القوى على الضعيف. ولم يعد فى إمكان السلطان عبد الحميد ما كان يفعله السلطان الفاتح أو السلطان سليم أو السلطان سليمان. لم يعد الأمر الآن، فى رأى الأفغانى، تحقيق ما ينبغى أن يكون بل الاعتراف بما هو كائن، وليس تحقيق الواجب بل تحقيق الممكن، وبلغة الفقهاء، ليس تحقيق المنفعة بل الإقلال من الضرر، ليس العمل إيجابياً بل العمل سلباً. ليس طلب المستحيل، إبقاء الدولة العثمانية فى أوروبا، بل تحقيق الممكن وهو إبقاء الدولة العثمانية فى غير أوروبا. وقد حادث الأفغانى عبد الحميد فى تصوراته عن الإصلاح، ورفض تدوينها حتى يظل الأمر سرّاً لا يطلع عليه أحد، وجوهرها تحويل الممالك إلى خديويات وليس إلى مجرد ولايات يرسل إليها الولاة من الأستانة مثل باكير باشا ومحمد على باشا لجمع الأموال من غير حق وإرسالها إلى الأستانة، وتوزيعها على رجال الدولة. إن نظام الولايات ليس خيراً لها بل هو خير للسلطنة. أما نظام الخديويات، فهو خير للولايات، وحفاظ على السلطنة كما فعل الانجليز فى الاستيلاء على الولايات باسم السلطنة وحفاظاً عليها. وأيهما أفضل أن يأتى الوالى بأمر السلطان، وتكون العساكر المصرية عثمانية تنفذ

^(١) فى تأثير فضائل الوفود والفاحين والمستعمرين وضربه المثل فى العرب وفتحاتهم وانتشار لسانهم، وتغيير ما أشكل على المؤرخ والشاعر التركى ضيا باشا من عدم ترك الأتراك أثراً بعد أن ترغلوا فى أوروبا ولم يكن لهم ما كان للعرب فى فتحاتهم وبيان الأسباب، وتأثير آداب اللسان، واستتاجه أن ترك الأثر مع التبريط فى صون الملك وعدم حفظه أدعى للتأثر وليس فيه شيء من الفخر، خاطرات ص ٨٤-٩٠..

الأوامر بالحقاق بجيوش السلطان، وأن يكون الشعب المصرى رعية خاضعة طائعة للسلطان أم أن تصبح الولاية خديوية، وأن يكون الخديوى معيناً من السلطان ولكنه منفذ لمصالح الخديوية وشعبها؟ كان الأفغانى من أنصار اللامركزية وإعطاء الاستقلال الذاتى للولايات. ولكن السلطان كان يخشى من أن يتحول الاستقلال الذاتى إلى استقلال كامل وبالتالي تنفتت الدولة العثمانية، وتضيع الخلافة. وكاد محمد على وإبراهيم باشا أن يستقلا بمصر. إن السلطنة العثمانية تتألف من ثلاثين ولاية، ومساحتها فى آسيا فقط ٦٦١,٠٠٠ ميل مربع على حين أن مساحة بريطانيا وإيرلندا معاً ١٢٠,٠٠٠ ميل مربع. يمكن أن تتحول الولايات إلى خديويات فى بغداد والبصرة والموصل وبغروت وسورية وحلب والقدس والجزائر والحجاز مع تعزيز أساطيل الدولة لحماية الخديويات من الغزو الأجنبى. تقتصر مهمة الدولة المركزية على الدفاع عن الخديويات اللامركزية كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى قديماً، وكل الدول الفيدرالية مثل ألمانيا. وتتحول تركيا ذاتها إلى ثلاث ولايات، لكل منها منفذ على البحر. كما تصبح البانيا خديوية، ويكون مجموعها عشر خديويات أو ممالك كل واحدة منها أعظم من اليونان. ولا يعوقها عن التقدم والحقاق بما خسرت من الانفصال عن الدولة العثمانية إلا شكل الحكم التسلطى والسلطة المركزية البيروقراطية القائلة للهمم والموهنة للعزائم. والدولة العثمانية اليوم لا ترسل من الولاة إلا أحد رجلين : إما الخامل البليد الذى همه جمع المال، وإما الرجل النشيط العاقل ولكن ليس له من الأمر شىء، يستأذن الباب العالى فى ترميم جسر فى بغداد سقط منه جبران فلا يأتى الإذن إلا بعد أشهر وأعوام يكون طغيان النهر قد جرف الجسر كله ! وما يقترحه الأفغانى أن يفوض السلطان آل عثمان إلى الخديويات بدلاً من قعودهم مع النسوان، وتقريبه الخصيان. ويكون مع كل أمير وزير فاضل وأمين من غير حاشيته التى تحاصره وتكذب عليه. كان هم الأفغانى إذن الحفاظ على الدولة العثمانية وحمايتها من التفكك وتوحيد أجزائها وفى نفس الوقت إعطاء الولايات قدراً من الحكم الذاتى، وربما فيما بعد، وهو ما لم يصرح به الأفغانى، تعيين حكام وطنيين من أهل البلاد وليس من الأتراك بالضرورة، وتعزيز أساطيل الدولة لحماية الولايات من الغزو الأجنبى. هذا هو الحل الوحيد لأية دولة فى حالة اتساع ملكها. اتبعه العباسيون قديماً،

ولا يغيب عن تصور الإنجليز حديثاً، هو النظام الفيدرالى الذى يحافظ على الكيان الوطنى القومى فى إطار من وحدة الأمة.

ولكن السلطان عبد الحميد شعر بأنه لم يبق له من السلطة شىء بعد أن سمع هذا التصور الفيدرالى للدولة العثمانية والاستقلال الذاتى للولايات. لم يبق شىء لتخت آل عثمان. ورد الأفغانى عليه بأنه يبقّى له ملك الملوك وعرش العروش، ربما للإبقاء عليه بلا سلطات من أجل القضاء عليه وربما اقتناعاً باللامركزية من أجل الحفاظ عليه وعلى الدولة فى آن واحد. كان السلطان عبد الحميد سىء الظن، لا يأمن لأحد. وظن أن الأفغانى بتصوره عن اللامركزية العثمانية يعمل لحساب إسماعيل كمال الذى عيّن لولاية طرابلس الغرب، وطلب توسيع صلاحياته وحق عقد قرض لتحسين الولاية وإصلاحه. وإذا كان الأفغانى لا يعمل لحساب إسماعيل ضد العرب فإنه يعمل لحساب إسماعيل التركى. ولكن السلطان رأى أن الأمر قد فات أوانه، ولا يمكن عمل شىء الآن مستعملاً المثل التركى "أن الجواد اجتاز اسكدار".

والعجيب أن يمدح الأفغانى بعد ذلك السلطان عبد الحميد. فلو وزن السلطان عبد الحميد مع أربعة من رجالات العصر ليزهم ذكاء ودهاء. لقد ذلل لملكه الصعاب، وصمد أمام دول الغرب، وحول العدو إلى صديق من دول الغرب، واقتنع الجميع بحججه. يعلم دقائق السياسة ومطامع الغرب، ويخرج سالماً من كل أزمة. ولكن عيبه هو العجز عن اتخاذ القرار، والجبن من أكبر عيوب الملوك، وعيب الكبير كبير، مع أن السلطان قد قبل بارتياح أفكار الأفغانى عن اللامركزية ومحاسن الحكم الدستورى، والإسلام أول من أقامه، وحسنت نواياه لاقامة الدولة للامركزية، المناطق بها نهضة المسلمين. وأعد كل شىء حتى لا تنفق أوروبا على عمل خطير ضد لممالك العثمانية. وأقنعها أن ذلك سيكون خراباً على نفسها. فبقيت لدول البلقان الصغيرة التى أحدثتها أوروبا للتدخل فى شؤونها ولتقطع أجزاء من إمبرمكتة. وكلما حاولت أوروبا توحيد البلقان ضده استطاع بدهانه تقريق ما جمعه.

فخضع له أمير البلغار، ولبس الشعار العثماني (الطربوش)، وافتخر برتبته المشيرية، وانتظم في حفلة صلاة الجمعة. وكان أمير الجبل الأسود يعتبر نفسه كالابن أمام والده، يطلب الإعانة لمساعدته في تجهيز ابنته. فدفع ذلك أوروبا إلى تحريض اليونان على حرب السلطان. والأعجب من الأفغانى مدح أبى الهدى الصيادى وهو المدافع عن السلطان والخلافة بأى ثمن. "أما الرجل (أبو الهدى الصيادى) فهو خير عربى صحب السلطان. وقد درأ شراً واستدر ما استطاع من الخير لقومه. وفى الرجل هزة هاشمية، وخلق كريم، وهمم وشمم لا ينبغي أن يناله طعن الطاعنين. ولا أدل على فضل الرجل من قياسه مع غيره من العرب الذين اتسلوا إلى السلطان ودخلوا خدمته"^(١).

٢- مصر والخلافة العثمانية

مصر هى بؤرة الخلافة. والدفاع عن الخلافة العثمانية إنما هو دفاع عن استقلال مصر وتقدمها. فمصر من الأراضى المقدسة. ولها فى قلوب المسلمين جميعاً منزلة كبيرة. وقلق المسلمين عليها ركن من أركان الدين. مصر فى المركز والقلب. ومع أن الأفغانى غير مصرى إلا أنه تجلّى فى مصر، وتجلت روح مصر الوطنية فيه. ويعلم الأفغانى عن ذلك فى العروة الوثقى قائلاً: "وعزة الحق أن ما كتبه عن حق مصر وما استنهضت من الهمم وما حنرت به من سوء المصير لو تلى على الأموات لتحركت أرواحهم، ولترفرقت على أجدثهم، ولأحدثت لأعدائهم أحلاماً مزعجة ومرءاء مريعة. كاد لا يخلو سطر من العروة الوثقى الا فيه ذكر مصر، ولا براهين وأدلة على ظلم الاتكليز إلا ويتمثل فى مصر، ولاخوف من شر مستطير يفكك أجزاء السلطنة العثمانية إلا وتراه فى التهلون فى أمر مصر. وذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له فى جسم الأمة الإسلامية والعرب عموماً نغولا ويعروقها اتصالاً... ولا يفوتن أهل الشرق العلم بأن كل مدينة وكل مقاطعة إسلامية شرقية هى بمنزلة مصر وإن لم تسقط تحت الاستعمار بعد. فلشرك

^(١) السلطان عبد الحميد، الأعمال من ٢٤٥-٥٣٩/٢٤٨ خاطرات ١٢١.

منصوب للكل".^(١) فمصر هي نموذج مصغر أو مكبر لكل الدول التي يطمع فيها الاستعمار والتي تتاهض وتقاوم من أجل الاستقلال.

مصر مركز الخلافة ودرة الممالك العثمانية. وصون مصر صون لها. ومصر مفتاح المسألة الشرقية. وتحررها بداية العالم الإسلامي كله. وكل المقاطعات الإسلامية في الحملة العثمانية هي بمنزلة مصر. فمصر هو نموذج الوطن والذئب عنه. وقد كانت مصر قبل الدولة العثمانية مركزاً للخلافة. فقد انقسمت الخلافة قديماً إلى عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر والمغرب، وأموية في الاندلس. وبدأت مصر والدولة العثمانية نهضتهما الحديثة معاً بنقل العلوم الغربية دون معرفة كيفية نشأتها. ونصبت الدول الغربية الحبال للايقاع بهما معاً.

ويرصد الأفغانى تاريخاً لمصر قبل محمد على وأثناء محمد على وبعد محمد على حتى ثورة عرابى واحتلال الإنجليز لمصر، مبيهاً مأساة مصر وعظمتها فى آن واحد. كانت حكومة مصر قبل محمد على تعد من حكومة الاشراف (المماليك) دون معرفة ماحقيقتها. ثم أتاها محمد على يحول مصر إلى دولة حديثة وحكومة نظامية حتى تقدمت على جميع الممالك الشرقية. وهو أمدى على الفطرة يحب الحضارة وبث العلوم وتأسيس العمران. وتفجرت فى مصر بناييع الثورة وفاضت على البلاد. الشرقية حتى صارت قبلة الغربيين. سادها الأمن وأصبحت مثل الممالك الأوروبية العظيمة. ثم تعثرت مصر، وحسدتها الأيام. عثر العاقل، وفرط المالك، وتهور الغبى، تقرب البعيد، وبعد القريب. وانتشرت الدسائس فى دوائر الحكومة. تقطع الوصال، وعمت الفتن. حل القضاء بالبلاد، وطمع فيها الأجانب. واحتلتها إنجلترا بحجة الدفاع عن طريق الهند. وقامت إنجلترا بالقتل والشنق والحرق والتدمير. وأصبحت مالىيتها محط أنظار أوروبا. وبدعى عدم الوفاء بالدين تم احتلال مصر وأوروبا ناقصة الإيراد، وتريد تعويض مخاسرها فى السودان فى

^(١) المسألة الشرقية، الأعمال ٢٣٨ ص. ٢٤٠-٢٤١ أسباب تحلف المسلمين، الأعمال ص ٣٦٢/١٩٥
انتعصب، الأعمال ص ٣٠٨.

احتلاله ثم إخلائه. وألغى الجيش الوطنى وهو الذى حقق أعظم الانتصارات أيام محمد على وإبراهيم. وطرد آلاف الوطنيين من الحكومة، وتشرّد الأطفال والنساء. سادت الأهواء، وملت السجون بالرعية، ولكراييج على الأبدان. أغلقت أبواب العمل، وتنازع الحكام، وعمت الفوضى. وارتفعت الأصوات بالشكوى، وانتشرت الأمراض، وفست الزراعة. اشتد الضنك، وباع الفلاح بيته. وزاد الوبل بالنيل من الحريات الشخصية والأخذ بالشبهات والتهم الباطلة. تحتاج مصر إلى الإصلاح ولكن إخلت البنجاب بدعوى الإصلاح، واستولت عليه أربعين عاماً. فليحذر المصريون. نخل الإنجليز مصر لقمع الثورة العربية والاستيلاء على طريق الهند وإعادة الأمن. وطردوا الآلاف من الموظفين الوطنيين فأصبحوا مشردين. امتلأت السجون بالأحرار. وأغلقت أبواب العمل. شاعت الفوضى، وتوقف العمل، وانتهكت الحريات الشخصية. أراد الأفغانى توجيه بريطانيا إلى إيقاف الخطر الروسى على شمال الهند بدلا من وقوعها فى الشرك المصرى بعد أن ظنت أنها تستطيع القضاء على مصر. وذلك لا يتم إلا بمساعدة العثمانيين وبعض المصريين^(١).

ولحديث عن محمد على هو الاستثناء فى الدولة العثمانية التى أثرت الغزو لا الفتح والقوة لا العلم، والاستعمار لا التمدن، وذلك بفضل محمد على فى مصر. محمد على ذلك الأسمى الكبير، نابغة رجال أمصار وأجيال. فقد طوى تحت جيبته همما تلك الجبال، وكتباً يقدم به على هائل الأعمال، وتحت عمامته دماغاً فعالاً، وعقلاً جوالاً، ويصراً نافذاً، وفكراً ثاقباً، ورأياً صائباً^(٢). فقد بلغ من حدة الذهن وفرط الذكاء، وبعد أن حسن خراج مصر، وعدل ما اختل فيها، وبنى القناطر الخيرية، وشق الترع والرياحات طلب من الباب العالى أن يعيضه بالبصرة عن مصر، يفعل فيها ما فعل فى مصر ثم الموصل للإعمار والبناء، وكما عمّر القدماء دمياط ورشيد والإسكندرية ولتنا النيل. عمر محمد على مصر كما عمّر القدماء

(١) مصر، الأعمال ص ٤٦٦-٤٧١ خاطرات ص ٢٦٢، سياسة إنجلترا فى الشرق الاعمال ص ٤٦٣.

(٢) المسألة الشرقية، الأعمال ص ٢٣٦.

البصرة والموصل. وكان المسافر من بغداد فى عصر الرشيد غربا يمشى بين الأشجار حتى يصل إلى دمشق وحلب، وشمالا يرى الخضرة حتى سيحون وجيحون، وجنوبا حتى دمياط ورشيد والاسكندرية ومصب النيل. وكلها ملك للمسلمين. وكانوا فى نفس الوقت قادرين على الصمود ضد أهل المكر والخديعة.

كان يمكن أن تكون نهضة مصر كخديوية مستقلة نموذجا لنهضة باقى الخديويات التى يقترحها الأفغانى كصيغة للامركزية للعراق ولباقى الولايات العشر. كما أن نهضة ولاية مثل مصر ستبعث باقى الولايات على التنافس. فتنهض ولاية العراق. بل إن ولاية إيران تسرع لتأييد السلطنة والاتحاد معها تدعياً لكليهما ضد مظالم الغرب الموجهة نحو عموم الشرق. وقد يبعث ذلك الهند إلى الاتحاد مع السلطنة حماية لهما من الغزو الاستعمارى، ويعود الشرق للشرقيين بفضل نموذج مصر وعلاقتها بالخلافة العثمانية، الخديوية القوية المستقلة فى الدولة اللامركزية. ولكن السلطان عبد الحميد تردد فى قبول فكرة تقسيم الدولة العثمانية إلى عشر خديويات بدلا من ثلاثين ولاية لأن محمد على باشا وابنه إبراهيم كادا أن يستقلا بمصر فتحاً بالقوة. ولم يرغب فى الاستماع إلى نصيحة الأفغانى باللامركزية ابتداء من الواقع الذى فرض نفسه، واقع مصر، روح الممالك الإسلامية، وباب الحرمين. ففى صون مصر داخل الملك الإسلامى وطرد الانجليز منها صون للممالك الإسلامية، وغلق لكل بلية قد تقع للمسألة الشرقية وبوريتها ومحركها مصر. أوصل محمد على مصر إلى باب السعادة والثراء فى أقل وقت. وما أبعد الشقة بينه وبين الانجليز فى صنع مصر^(١).

وقدم إلى الأستانة الخديوى عباس حلمى مع وفد من المصريين. فدعاه الخليفة إلى حدائق يلدز. وخطب فيهم الأفغانى بأن الخديوى قد أحسن صنعا بزيارة دار الخلافة التى تجمع شتات المسلمين. ثم طلب الخديوى مقابلة جمال الدين فأنزى السلطان. وقابله الأفغانى فى نزهته المعتادة. عبر الخديوى عن إعجابه بجمال الدين

(١) خاطرات ص ٢٦٦.

ومحبته له، ودعاه لزيارة مصر. ولم يتطرق إلى أى موضوع سياسى. ثم أبلغت الجواسيس السلطان أن جمال الدين قد تعهد للخديوى عباس بتأسيس دولة عباسية فى مصر كما فعل الخراسانى مع العباسيين قديماً. ومصر مفتاح الطريق إلى ربوع الدولة الإسلامية. وحذر الأفغانى السلطان من خطورة الجواسيس وشبههم بالكلب العقور الذى يمنع نزول صاحب المنزل لاستقبال الضيف أو صعود الضيف لصاحب المنزل. وقد اتهم عبد الله النديم بالمشاركة فى هذه الخطة لقوله دعابة إنه لو تخلصت مصر من برائن بريطانيا وتسنى لعباس أن تكون له همة محمد على ومضاء إبراهيم وسخاء إسماعيل لأصبح لائقاً للخلافة. ولكن ليس لأمير المؤمنين اليوم ولاية على ممالك الإسلام. ولا يوجد مؤمنون ملتفون حوله. ولا توجد حرية للخليفة للتصرف، وليس لديه القوة للدفاع عنها عن الإذلال واستعباد المسلمين فى بلادهم. ومع ذلك أخذ السلطان على الأفغانى اتصاله بعباس حلمى خديوى مصر من أجل نقل الخلافة إليه. وهو اتهام باطل. فالخلافة فى رأى الأفغانى، كقالة الله فى خلقه، لها صفاتها وشروطها. وعباس حلمى نظراً لظروفه أعجز من السلطان فى القيام بأعباء الخلافة^(١).

والسودان جزء متمم لمصر. فالأفغانى من أوائل الذين وضعوا شعار وحدة وادى النيل. فمصر للمصريين والسودان جزء متمم لها. ويدافع الأفغانى عن السودان ضد الإنجليز كما يدافع عن مصر. والعثمانيون والمصريون يخفون من حدة ثورة المهدي حقناً للدماء ولكنهم متعاطفون معها، مؤيدون لها مثل تأييدهم لثورة عرابى. ويكشف الأفغانى تفصيلاً خداع الإنجليز فى السودان منذ كان اللورد دوفرين بالقاهرة لبيان حالة مصر وكتابة تقرير لحكومته عنها، وتلويح الإنجليز بالنتزل عن السودان حرصاً على عدم النفقات. وأصدرت الأمر إلى جوردون بالتخلي عن السودان لتوهم السودانيين بمنة الاستقلال. فعين المهدي أميراً على

^(١) مقابلة جمال الدين للخديوى عباس حلمى واختلاق الجواسيس فرية. مسألة الدولة العباسية واهتمام السلطان عبد الحميد بذلك وما احتل هذا الأمر الذى أقام وأقعد، وما جرى من مقابلة السيد السلطان وما دار بينهما من الحديث فى هذا الشأن. دعابة السيد عبد الله النديم فى بحث الدولة العباسية وتعرضه فىمن اختلقها فى ذلك الحين، حاضرات ص ١٢٠-١٢١

كردفان، ورد الاعتبار لأمرائها على الولايات للاستيلاء عليها تعويضاً لها عن مقاومة مصر، وإقامة سكة حديد من سواكن إلى بربر لخليص جوردون نظاهراً، والحقيقة لربط إنجلترا بالسودان عن طريق البحر مباشرة في التجارة دون المرور بمصر. ومع ذلك حدث زوال للإنكليز في السودان. وزحف محمد أحمد عليه بجيش، والسلطان ومصر معه. ويحث الأفغانى مصر والمصريين على القيام بواجب الدين والوطن دون انتظار أمر السلطان ضد الإنجليز ودون بيع البلاد بالنقد. والخائن للوطن خائن للدين. ويعطى الأفغانى نموذجاً من الخطاب الوطنى والدعوة إلى الجهاد اعتماداً على قول الأسلاف، والحث على الشجاعة ورفض الجبن. ويستعمل آيتين قرآنيتين «فإنهم يأمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون» ، «يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله» ، «ولا تبغوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» ، «ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» . ويرفض الأفغانى تقويجه على السودان لأن ما لا يملك لا يمنح، وصاحب الحق السلطان حى يرزق. ويخدع الإنجليز السودان كما يخدعون مصر لأن الذى يريد الإصلاح ينشئ الجامعات، وهى معدومة فى مصر والسودان^(١). وقد كان الموضوع الرئيسى للعروة الوثقى مصر وسوريا، وثورة المهدي فى السودان بالرغم من انتهاء الحركة وموت المهدي واحتلال الإنجليز للسودان ومصر فدية لموت جوردون. فارتباط مصر بالسودان الاحتلال والثورة.

وإذا كانت السودان محور مصر الجنوبى فإن سوريا محور مصر الشمالى منذ صلاح الدين ووحدة مصر وسوريا لمواجهة الزحف الصليبي. والتاريخ يكرر نفسه. فمصر هى القلب، والساقان فى السودان، والرأس فى الشام. مصر هى مفتاح الحجاز وباب الأقطار الشامية. لذلك لا يوجد مصرى ينتقد سوريا أو سورى ينتقد مصرى نظراً لرابطة الجنس، العروبة^(٢).

(١) الأعمال ص ٥٠٥ العروة ج ١ ص ١٣٢-١٣٨ سياسة انكلترا فى الشرق ص ٤٦٢ السودان، الأعمال ص ٤٩٨-٤٩٩ زلزال الانكليز فى السودان ص ٥٠١-٥٠٦ عبرة وذكرى، مخاطرات ص ٣٩٨-٣٩٩.

(٢) رجال الدولة وبطانة الملك، الأعمال ص ٣٩٨، النصب، ص ٣٠٧.

لا فرق بين بر الشام وبر مصر كما هو الحال في نهضة العرب الحديثة. وقد كان معظم تلاميذ الأفغانى من بر الشام، أديب اسحق، وسليم النقاش، من المسيحيين. وكان أديب اسحق المسيحى أثيراً عند الأفغانى أكثر من محمد عبده المسلم. وقد حاول الغرب اجبار مصر وسوريا معاً على قبول المسيحية. وهو يدعى أن الإسلام متعصب. ومصر أيضاً بؤرة محورها الغربى العرب، فى المغرب العربى وإن كان الأفغانى لا يشير إليه كثيراً ولا إلى استعمار فرنسا للجزائر منذ ١٨٣٠ وتونس بعد مصر مباشرة، ولكن ينبه على نفور العرب بالطبع من الخضوع للأجنبى. ولمصر أيضاً محورها فى الشرق، فى فارس والهند وأفغانستان. فوحدة الأفغان والفرس نواة وحدة الشرق، وظهير للمسألة المصرية. كما أن احتلال مصر وقناة السويس كان ذريعة لحماية الهند. فانجلترا عدو مشترك لمصر والهند حتى لقد أصبح ٢٢ فبراير ١٩٤٦ عيداً وطنياً عالمياً للطلاب يوم أن ضربت إنجلترا مظاهرات الطلاب فى مصر والهند فى آن واحد. فمصر والهند وريثا الشرق ومحركاه. كما اتضح بعد ذلك فى حركة عدم الانحياز فى هذا العصر بقيادة عبد الناصر ونهرو^(١). فمصر طائر ساقاه فى السودان ورأسه فى الشام، وجناحه الغربى فى المغرب العربى وجناحه الشرقى فى فارس والهند. فإذا طارت نهض الشرق والغرب مع القلب، بدلاً من أن يقوى الجناح الغربى فتطير متجهة غرباً كما يحدث هذه الأيام.

٣- مصر للمصريين

والأفغانى هو الذى وضع شعار "مصر للمصريين" الذى تحول إلى عنوان رسالة سليم النقاش التى تقدم بها فى باريس للحصول على الدكتوراه. والشعار موجه ضد سيطرة الأجانب على مصر ابتداء من الاحتلال الإنجليزى والامتيازات

(١) دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الافغان، الأعمال ص ٣١٨، الأعمال ٥١٦ أعمال الإنجليز فى مصر والهند

ص ٤٣٦-٤٦٤ العروة ج١ ص ٢٠٧.

الأجنبية التى أدت إلى ثورة عرابى. وكان الناس أيلام عرابى قسمين : الأول مع توفيق والثانى مع عرابى. الأول فاشل ، والثانى متردد. ومع الفضل نضيج الأمة، ومع التردد يغيب الحزم. فدخل الإنجليز مصر بلا حرب حقيقىة، بالترغيب والترهيب والدسائس. فابتعد الناس عن عرابى ظانين أن الإنجليز يؤيدون توفيق. تساهل المصريون مع الانجليز وأحسنوا الظن بحكومة إنجلترا التى أوهمت بأنها جاءت دفاعاً عن الشرعية. ولا يوجد من المصريين من يميل إليهم. وذهلوا عن الأسباب التى مكنت الإنجليز من النيل منهم مع أن الإنجليز دخلوا البلاد بمعونتهم. ولوعلم المصريون أنه ليس فى طاقة الإنجليز حشد أكثر من ٢٠,٠٠٠ جندي لمصر والسودان لقاوموهم فى الشرقية وفى منطقة البحيرات. والانجليز فى ارتباك شديد فى المسألة المصرية مع ضعفهم فى القوة العسكرية وتورطهم بسبب اختلاف الدول حول مقاصدهم. هذه هى الاسباب التى أدت إلى وقوع المصريين تحت سيطرة الإنجليز. القسم الأول يريد الحفاظ على الحالة القديمة وطاعة الخديوى، والثانى يميل إلى عرابى ولكنه يهاب القسم الأول. فارتاب فى أمره، ووهنت عزيمته. فدخل الإنجليز مصر من باب الوهم بلا حرب بدعوى تأييد الخديوى وتأديب الثائرين عليه. واقتنع المصريون أن صاحب السيادة الشرعية هو السلطان، ففاز الإنجليز غدراً. ودخل الإنجليز مصر بمعونة المصريين وتأيد الخديوى بفرمان من السلطان. هذا هو الوهم. كما يوحى الوهم بأن الإنجليز قادرون على السيطرة على الأهالى دون مقاومة. وهذا هو الفرق بين الإنجليز ومحمد على نابغة النهر فيما حل بمصر، وهو الفرق بين الهدم والبناء، بين الأجنبى والوطنى، بين الاستعمار والاستقلال، بين العبودية والتحرر^(١).

(١) الوهم، الأعمال ص ٣٦٨-٣٦٩ خطاطرات ص ٢٦٠، انظر أيضاً دراستنا "الدين والثورة فى الثورة العراقية" فى الدين والثورة فى مصر ج ٣ لدين والنضال الرسمى، القاهرة، مديولى ١٩٧٩ ص

وتضرب الإنجليز فى الأراضى المصرية ولا يتحرك أحد من إخوانهم الشرقيين مع أن احتلال مصر ينبه الأذهان. صحيح أن الاحتلال قانون تاريخى، احتلال القوى للضعيف، والموحد للمفكك مثل احتلال إنجلترا لقوة كبيرة ضعفت وتفككت. وصحيح أيضاً أن التحرر من الاحتلال دفاعاً عن الاستقلال قانون تاريخى كذلك. إذا تأنف الأمم من الخضوع للأجنبي المختلف عنها فى الأخلاق والعادات. لذلك نشأت حركة فكرية فى أغلب أقطار الشرق للمطالبة بالخلاص من الأجنبي والدعوة إلى الوحدة. ويضرب الأفغانى المثل لذلك بالحركة العربية التى يسميها "العشواء" بالرغم من أنه هو منظرها والتى اتخذها الانجليز ذريعة لاحتلال مصر، مما يبين أن نقد الأفغانى للثورة العربية ليس لتعاليمها ومبادئها بل لطرق تنفيذها ووسائل تحقيقها على نحو أھوج غير منظم. وهى تشبه الثورة المهدية فى السودان عندما يقف البدو ادنيون أمام البنادق بالسيوف. ومصر عند المسلمين من الأراضى المقدسة مثل الحرمين. لذلك حركت أحزان مصر أشجان المسلمين. وقد اعتمد الانكليز على المداواة والمكر أكثر من الاعتماد على الجيوش. ولكن من الهند إلى مكة إلى مصر مازال الناس غافلين. ومع ذلك فقد جدد احتلال مصر الروابط ووجد الكلمة. كاد الانجليز لمصر مرة بدعوى الدفاع عن الخديوى. والشرعية ضد الخارجين عليه والتأثرين ضده، ومرة لاختضاع رجال الدين وأئمة المساجد وعلماء الأوقاف. وهى نفس الطرق التى اتبعتها إنجلترا فى الهند، الاستيلاء على الأوطان بالحيلة والدهاء وليس بالسلاح حتى ملكوا ثلث العالم. يشككون فى الحكام الوطنيين، ويقلبون عليهم الرعاية للعصيان حتى يخلعوهم أو طي الضعيف الأحمق وإقامة صغير بدلا عنه. وقد يسلبونه كل شيء إلا القلب ولواحقه مثل : نانب، صاحب راجا، خديوى، سلطان. وأشهرهم حيلة اللورد نورثبروك (كرومر) الذى فقد حكم الهند. عذبها وبكى عليها، ووعدھا بالإصلاح مثل زعيم المنافقين عبد الله ابن سلول. ثم خدع المصريين، واستعمل توفيق باشا لإدخال مصر تحت حماية إنجلترا، وبلغته الأوامر. ثم خلع توفيق وطلب تولية عباس ولداً صغيراً. وجعل نوبار باشا

وزيراً يعنيه الإنجليز، وهو غير مسلم ولا عربى. وقام بنفس الشئ فى الهند، خلع أميراً وتنصيب أمير. والحال هو سبات من له الحق وحراك من لا حق له^(١). فبينما تنتظر أوروبا خاصة فرنسا إلى ضياع مصالحها فى مصر، والدولة العثمانية لما لها من مكانة فى قلوب الهنود، وإنجلترا بين أصابع آل عثمان فإن الناس لا تحرك ساكناً ولا تتقدم إلا بالشكوى، وهم فقراء. والإنجليز تعد بالجلء وهم على يقين أن الدولة العثمانية فى طريقها إلى الزوال. وأعلنت السيادة على مصر، وتم الاستيلاء على السودان فداء لرأس جوردون. وقد سمح العثمانيون لإنجلترا بذلك. وسكن الناس انتظاراً لوعود إنجلترا بالجلء. فلما بسطت إنجلترا سيادتها ثار الناس، وأيدوا الثورة المهدية فى السودان والثورة العراقية فى مصر.

وكما لا تكون مصر للمصريين إلا بالاستقلال والتحرر من الإنجليز كذلك لا تكون مصر للمصريين إلا بالحكم الذاتى والتحرر من الاستبداد. وفى الشعب المصرى الخامل والجاهل، ولكن هناك أيضاً العاقل والعالم. وكما ينظر الأمير إلى الشعب ينظر الشعب إليه. النصيحة هى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى، وانتخاب نواب الأمة لسن القوانين. فهذا أثبت للعرش وأدوم للسلطان. وتتكون القوة النيابية من نفس الأمة وليس من قوة أجنبية تكون الأمة تابعة لها أوحماية منها. ويثبت التاريخ أن الملوك لم يذبتوا رغم إرادة الشعوب. وتستطيع الأمة أن تعيش بدون ملك ولكن الملك لا يستطيع أن يعيش بدون أمة. ويكون المجلس النيابى المصرى مثابها للمجالس النيابية الأوروبية. أقل ما فيه من الأحزاب حزبان، حزب الشمال وحزب اليمين، الشمال للمعارضة واليمين للحكومة. والمجلس لا يعيش بقوة واحدة مناهضة للحكومة أو مؤيدة لها. ليس

^(١) أسباب تخلف المملكين، الأعمال ص ٣٦٠ احتلال مصر بينه الأذهان، الأعمال ص ٤٨٣-٤٨٧ من المصائب والدوازل ويبحث فى تعصب الحى والتعصب لأبى وتبعه سير انكلتر فى الحوادث المصرية سنة ١٨٨٤ وموقف الدولة العثمانية والفرنساوية إزاء تلك الحوادث، محاضرات ص ٣٧٣-٣٧٩ كيد الإنجليز لمصر، العروة ص ١٧٥-١٧٧/٢٠٨، المستند البريطانى فى مصر، الأعمال ص ٤٩٣-٤٩٦ سبات من له الحق وحراك من لا حق له، الأعمال ص ٤٨٩-٤٩١.

النائب هو هذا الوجه الذى يمتص دماء الفلاح، الجبان الذى لا يقوى على مناهضة الحكام، الضعيف الذى لا يملك الحجة تجاه الحاكم الظالم بل ذلك الرجل القوى فى الخير والحكمة والدفاع عن الوطن ومناقشة الحساب. ويرفض الأفغانى المجلس النيابى المزور والمعين الذى يزيّف إرادة الأمة ويبرر للحاكم إرادته. ويتوجه بنداء إلى قيصر روسيا بأن تكون الملايين من الرعية أصدقاء للعرش خيراً من أن تكون أعداء له. تتربص به الفرص. كما يتوجه إلى شاه إيران ناصر الدين بأن عظمة التاج والعرش بالحكم الدستورى، وأن الفلاح والعامل والصانع أنفع للأمة من الأمراء والوزراء^(١).

ولكن الأحزاب السياسية فى الشرق دواء وداء فى نفس الوقت. إذ تتكلف الأحزاب لطلب الحرية والاستقلال، وتبدأ والكل أصدقاء. ثم ينتهون والكل أعداء بسبب عدم تكافؤ القوى بين الأمة وأحزابها السياسية أو بلغة العصر بين الدولة والمجتمع المدنى. إذ يقوم الحزب السياسى بعناصر ضعيفة ويأفراد قلائل، يعلنون برنامجاً لتحرير الأمة من الاستعمار والاستعباد فتتألف القلوب حولها، وتجمع الكلمة. ويستحسنها الغريب، ويخافها الدخيل. تفرح الأمة ببرنامج الحزب ووعوده فى الأجل والعاجل فتؤازره وتطيعه. ثم بعد ذلك تظهر فى رؤساء الأحزاب الأثرة والأنانية، وتفضيل حب الذات على مصلحة الأمة. فتتروى الناس عنه وتتكسّر النفوس منه، وتترك الحزب أو تعاديه. لايعنى ذلك أنه لاقائدة من الأحزاب على الإطلاق، فإن الشرق بعد أن وقع فى الاستعباد فى حاجة إلى يقظة، والحزب يقوم بذلك حتى يظهر فى الشرق أفراد كما ظهر فى الغرب أفراد يستشهدون فى سبيل الأوطان. حينئذ ينشأ الحزب لجمع الشتات، والقضاء على الذل، وبيان نعمة الإخاء والتعاون والاتحاد، يعمل على عزة البلاد ونصرة المظلوم. فواضح أن مهمة الحزب تربية ثورية. وهو ماكان الأفغانى يحلم به بتأسيس العروة الوثقى، النواة السرية للحزب، وحولها تقوم الخلايا، ولكنه لم ينج نظراً لعدم استقراره فى وطن.

^(١) مصر والحكم النيابى، الأعمال ص ٤٧٢-٢٩٦/٤٧٥ رأيه فى مصر والمصريين وبيان صورة الحكم

النيابى الذى يجب أن تحكم فيه مصر خصوصاً والشرق عموماً، خاطرات ص ٧٧-٨٠.

وهو ما حاوله حسن البنا بعده وينجح في تأسيس جماعة الإخوان المسلمين. وهو ما نجحت فيه أيضاً الجماعات الإسلامية ولكن دون نظرية ثورية^(١).

ومع ذلك، وبالرغم من تأكيد الأفغانى على أهمية الحكم النيابى والتعدد الحزبى إلا أنه صاغ أيضاً نظريته في "المستبد العادل" كنظام أمثل للشرق. فقد عرفت مصر النظام الفرعونى على ضفاف وادى النيل. وانتصر لها موسى ويوسف. فالمصريون في حاجة إلى عزم وحكمة وقوة، وذلك لا يتم بالقهر بل بالكلمة وتوحيد الأهواء وتوجيهها نحو الغاية. وتلك مهمة الرجل القوى العادل. القوة المطلقة استبداد، والعدل بلا قوة تراخ. يحتاج العدل إلى قوة قضدية وهو ما يستطيعه المستبد العادل. لا تحكم مصر إلا بأهلها واشتراكهم في الحكم والدستور الصحيح دفاعاً عن الحرية والاستقلال. فالحرية لا يهبها الملك، والاستقلال لا يعطيه المستبد. إنما يؤخذان بالكفاح. ولا يسلم الشكل الدستوري من رجل قوى. لذلك لا يحكم الشرق إلا قوة عادلة تخضع لها الأمة. وهي تحقق مصالحه. وهي قوة وطنية لأن الأمير الصالح القريب أولى من البعيد الغريب. أما الحكم الجمهورى فلا يصلح للشرق اليوم ولا لأمله^(٢).

ومصر أحب البلاد إلى الأفغانى، ترك لهم فيها محمد عبده، طودا من العلم الراسخ، وعمرهما من الحكمة والشمم وعلو الهمم. ومع ذلك مازال المصريون في جمود وقيود. ويتساءل الأفغانى كيف لم يستطع الشيخ تحقيق مهمته وله تلاميذ مثل سعد زغلول؟ كيف لم تتألف منهم اليوم عصبة حق تقف للإنجليز، تحمى الهرمين وتصورن الحرمين؟ يريد الأفغانى الاستمرار في تلاميذه ليس فقط في البداية في الثورة العربية ولكن أيضاً باستمرارها في ثورة ١٩١٩م التي قادها سعد زغلول.

^(١) رأيه في الأحزاب السياسية في الشرق، خاطرات ص ٧٢-٧٤، انظر أيضاً تركيزنا على ذلك في "التراث والتحديد"، موقفاً من التراث القديم، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٧-٥١.

^(٢) رأيه في مصر والمصريين وصورة الحكم أن تحكم فيه مصر خصوصاً والشرق عموماً المعروف عنه قوله "يحتاج الشرق إلى مستبد عادل" وهو من قبيل الأضداد إذ كيف يحتج العبد والاستبداد؟ وخير صفات الحاكم القوة والعدل وليس الضعيف العادل أو القوى الظالم. خاطرات ص ٧٨ مصر والمصريون والشرق، الأعمال ص ٤٧٧-٤٧٩.

واستمرت اراث الأفغانى فى الحزب الوطنى المصرى الذى كتب برنامجة محمد عبده معبراً عن أفكار الأفغانى. كان الأفغانى يسمى محمد عبده الشيخ الصديق، وعبد الله النديم الصديق. كان عبد الله النديم كثير التردد فى آخر ايامه على جمال الدين حتى غار منه محمد عبده. ذهب الشيخ محمد عبده إلى لندن لمناقشة المسؤولين. فناقش اللورد هرتكتون وزير الدفاع دفاعاً عن حق المصريين فى الاستقلال لأن حب الأوطان مغرور فى الطبيعة البشرية التى تنفر من الأجنبى، وأن مصر شعب تعلم منذ محمد عبده بعد أن رأى اللورد أن ذلك من خصائص الأمم المتعلمة المهذبة، وأن الشعوب المستعمرة مثلها مثل الحيوانات السائمة. فالمصريون إما أن يختاروا الاستقلال دفاعاً عن شرف الوطن أو الدين أو يكونوا كالحوانات. لقد عرف الأفغانى محمد عبده فى الضراء والنديم فى السراء. وقد كان النديم نفسه كالأفغانى فى النفى والسجن والحكم عليه بإهدار الدم^(١).

كما أعتبر الأفغانى رياض باشا رمز الوطنية، ونعم الوطنى الغيور. خدم بلاده. موافقه كالهيرمين، صائب الرأى، ثاقب الفكر. أقوم أمير، وأشد حرصاً على الاستقامة، وأبصر أهل البلاد بعواقب الأمور. نقد من يتجنس بالجنسية الإنجليزية ويصبح كالأجنبى. موقفه الوطنى جعله يرفض الحماية فلفظ "بركتورا" غير مفهوم. فأما ترك إنجلترا البلاد وإما احتلالها ولا وسط بين الاثنين. وشريف فى وطنيته مثل رياض. لذلك تأسست مجلة الرياض المصرية على اسمه والتى قال فيها الأفغانى إنه يعيش "زمن تحرير الأرقاء وإسارة الأحرار". ويغادر الأفغانى إلى لندن وباريس ويطلب بأمواله وكتبه من رياض باشا، ويبين ما وقع له فى الهند. ويطلب من عبد الله فكرى التدخل لصالحه. أما نوبار باشا فعلى العكس رمز الخيانة. ليس مصرياً ولا عربياً ولا مسلماً. باع مصر بثمان بخس. طالب بإبعاد الوطنيين من مصر مثل الزبير ورياض وشريف وكل شريف وربما أيضاً منع العروة الوثقى، وطالب بإغلاق الأزهر. عطل جريدة وطنية كالأهرام شهراً وزج بأصحابها فى السجون. عمل على نكابة مصر. وتبوأ منصب رئيس النظار وليس بينه وبين

^(١) ترفى سعاد. وغلغل فى ١٩٢٧ ورثاه المخرومى فى العاطرات ص ١٢٨-٢٢٩. هؤلاء رجال الإنكليز

وهذه افكارهم، لعمرة جـ ٢١٣-١١٧.

المصريين أى صلة. فلو باع مصر بأبخس الأثمان فيؤ الرابع. ولا يخسر ببيعه ملة أو دين أو صلة أو جنس. ومن الدخلاء فى مصر ما هو أشنع من نوبار وآلة للاستعباد. والخونة لا يتبدلون إلا فى الأسماء. لذلك وجبت مواجهة نوبار وإحباط مساعيه ومساعى أوليائه الإنجليز فى الكيد لمصر وتطبيق ما يسمى بإصلاحات اللورد دوفرين التى عارضها رياض. ومثل نوبار الضابط عثمان باشا. ففى رسالة إلى عبد الله فكرى يصرح الأفغانى أنه لم يضمن للخديوى ولا للمصريين شراً ولا أراد ضرراً، ولكن الضابط عثمان باشا نيشه ضغينة منه على إبراهيم اللقانى وإغراء من أعدائه، أحزاب عبد الحلیم باشا. كان الأفغانى يقف فى صف الوطنيين المصريين مثل رياض وشريف ضد الأجانب المتغربين مثل نوبار وعثمان وغيرهم من الأرمن والشراكسة تحقيقاً لشعاره "مصر للمصريين"^(١).

^(١) رياض باشا، خاطرات ص ٣٦٥ - ٣٧١ / ٢٢٧ - ٢٣١ فى التربية والتعليم، الأعمال ص ٢٧٨ العروة ص ٢ ص ١٤٢-١٤٧ نوبار رمز الخيانة، الأعمال ص ٥٣٨-٥٣٩ رسالة من جمال الدين إلى عبد الله فكرى، الأعمال ص ٤٨١.

الأمة فى التاريخ

١ - وحدة الأمة

إذا كانت مصر والشرق تعبران عن أحد جوانب الفلسفة السياسية عند الأفغانى فإن الأمة فى التاريخ تعبر عن فلسفته فى التاريخ ، تحويل فلسفة السياسة إلى دراما التاريخ.

والأمة واحدة، ترتبط فيما بينها برابطة الدين لا الجنس، بعصبة الاخوة وليس بعصبة العرق. ويستعيد الأفغانى العصبية عند ابن خلدون بمعنى الترابط الاجتماعى بالإضافة إلى الإخوة الدينية. والتعصب نهمة لصقها الأفرنجى بالإسلام والمقلدون لهم وإتهام كل من يحافظ على شريعته بالتعصب Fanatisme مطالبين بالقضاء على التعصب الدينى. والتعصب من العصبية نسبة إلى العصبية والقوم. والعصبية بهذا المعنى أساس الترابط بين الشعوب واتحاد الكلمة، روح كلى يربط بين الأفراد، يحميه من الأجنبى ويرفع الرؤوس. وهى سنة الله فى خلقه. إذا ضعفت العصبية فشلوا وغفل بعضهم عن بعض وتقطعت الأواصر فيدخل الأجانب. والتعصب له حد الاعتدال والتفريط. اعتداله كمال، وتفريطه نقص. الكمال وحدة ترابط، والنقص الدفء عن النفس عن حق أو باطل وهو الممقوت على لسان الشرع فى حديث "ليس منا من دعا إلى عصبية". التعصب الإيجابى نعمة على الجنس والنسب والاجتماع فى منبت واحد والترابط بين النوع. هو الذى يربط المصرى بالتركى والعربى والفارسى والهندي والمغربى. الأصل عون والعرق جساس^(١). والتعصب المردول هو الذى قاد الغرب إلى اندفاعه نحو بلاد المشرق لمحض الفتك والإبادة لا للفتح أو الدعوة إلى الدين كما هو الحال فى

(١) التعصب ، الأعمال من ٣٠٢-٣١٠. محاضرات من ٣٥٤-٣٦٥/ ٣٨٩.

الحروب الصليبية وكما فعل الأسبان فى طرد المسلمين من الأندلس وحرق
المسيحيين اليهود فى القدس.

وإذا كانت رابطة العصبية قد تتحول إلى تعصب عرقى فإن رابطة الأخوة
الدينية قد تتحول أيضاً إلى تعصب دينى. ولا فرق بين التعصب الجنسى والتعصب
الدينى فى أن كليهما ذميم وإن كان الثانى أظهر من الأول. والعصبية قد تكون من
الدين أو النسب. وهما رابطتان عند كل البشر. وصدرت عنهما آثار يفتخر بها
الإنسان. وأوصلا الأقوام إلى المجد. ويأمر القرآن برابطة الدين ﴿اتبعوا ما أنزل
إلحكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ وللتمييز بين رابطة الدين ورابطة
التعصب. الدين أول معلم ومرشد لاكتساب المعارف والعلم والتطلى بالأخلاق
الكريمة والفتح والدعوة للدين كما كان الحال فى عصر الفتوحات الأولى، بناء على
تعاليم الإسلام وحديث الرسول "ان من رضى بدمتنا قله ما لنا وعليه ما علينا"،
وأية ﴿يأياها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين
والأقربين﴾. وقد وصل رؤساء من الأديان الأخرى إلى مناصب عالية فى الدولة
الإسلامية مالم يبلغه الغرب والروم. وماروا على نحو عادل على خلاف اليونان
والرومان الذين كانوا يطالبون الناس بالتخلى عن دينهم والاقتناع بدين الغزاة كما
فعلوا فى مصر وسوريا وفى البلاد الأوروبية نفسها.

ولما أراد الغرب السيطرة على المسلمين أوحى لهم بأن رابطة الدين
تعصب، وهو المتعصب دينياً وجنسياً. وحاول إبعاد الأمة عن الدين وكما فعل
الإنجليز فى الهند واعتمادهم على الدهريين فى إخراج المسلمين عن دينهم. وأنشأوا
مدرسة فى عليكره وجريدة لتحقيق هذا الغرض حتى تضعف العقائد فيتسلط
الإنجليز "تس من يبيع ملته بلقمة وذمته برذائل العيش". كان أسلوب الأوروبيين
للنيل من الشرقيين لإيقاع البلاد العثمانية والمصرية بالتعاون مع المدعين بالعلم
والمذنية الحديثة ذم التعصب الدينى واعتباره ضد العلم والمذنية، لافرق بين تعصب
معتدل وتعصب مرذول. والغربيون أشد تعصباً. ينشدون بالحرية مثل جلدستون،

وهو بطرس الراهب. ليست الرابطة الدينية تعصاً بل أحكم الروابط بين التركي والعربي والفارسي والهندي والمصري والمغربي. وهي أساس المنافع الوطنية من أرباب الديانات المختلفة. فالمصلحة واحدة للجميع. ليست عصبية الدين وسيلة للعدوان وانتياك حقوق الآخرين بل هي وسيلة للدفاع عن النفس وتقوية أواصر الأخوة بين المسلمين. ولا تكفى العصبية في الداخل بل هي في الخارج أيضاً من أجل التنافس بين الأمم في القوة والسلطان واكتساب العلوم الناقصة والفضائل الخفية والكمالات الإنسانية "أجعلوا عصبكم سبيلاً لتوحيد كلمتكم واجتماع شملكم، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص إلى ذروة الكمال"، ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان﴾.

ويحول الأفغانى رابطة الجنس وعصبية الدين إلى قانون عام لقيام الأمم وانحطاطها. إذ لا تتكون الدول إلا بقوتين : الجنس للاتحاد ولمغالبة الآخرين، والدين الذى يجمع الكلمة ويوحد الوجهة. ويعطى الأفغانى نماذج من التاريخ، قيام العرب وسقوط العثمانيين. بدأ العرب فى التاريخ بقوة العروبة والتوحيد بين القبائل. وجاء الإسلام فضم إلى وحدة الجنس عصبية الدين، فانتشر المسلمون فى الأرض فاتحين. ودانت لهم القياصرة والأكاسرة من أسبانيا غرباً إلى خراسان شرقاً فى أقل من ثمانين عاماً. واستمر الأمر كذلك عند الأمويين والعباسيين، ووصل إلى الذروة فى عصر المأمون والرشيد. ثم حدث التقهقر، ليس لقلة العدد بل لاهمال أسباب التقدم، حكمة الدين والعمل بها، جمع الأهواء وتوحيد الكلمة. فضى الجهل فى الخلفاء، وبعثوا عن العلم بحقيقة الدين. وهن الملك ولم تبق إلا عصبية الجنس والقبائل. ثم فقدوا عصبية الجنس فلم يبق شىء، ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾. نظراً لوحدة الجنس لم يدخل الغريب فى بداية الدولة، وفى نهايتها دخل الغريب، فقوى، واستولى على الدولة. والأمثلة على ذلك كثيرة. وما حدث للعرب تكرر للعثمانيين. استعملوا الغريب فى لحظة الانهيار، عكس الأوروبيين الذين لا يوجد لديهم مستشار هندي أو مصري. فى الدولة العثمانية مستشار الخارجية أرتين

باشا الارمنى وسفيرها لدى إنجلترا موزوروس باشا الرومى. وحاكم جزيرة كريت قسطاكى باشا. وشغلت مناصب الدولة بيورغاكى وقسطاكي وآعزب وأوخانس. ولكل منهم أمة يحكمها العثمانيون، وتريد التخلص منهم. فكان ولاء هؤلاء الرجال لأمهم وليس للدولة العثمانية. واضح أن الأفغانى يصف الشعوبية قديماً وهى الارتباط برابطة الجنس وليس برابطة الدين كأحد عناصر الانحلال فى الحكم العربى أولاً، وتعيين الأجانب الذى لا يرتبطون بالأمة بوحدة الجنس ولا الدين كأحد أسباب انهيار الدولة العثمانية حديثاً. فى التاريخ القديم، دين بالجنس وفى الحالة الثانية لا جنس ولادين. مع أن الشريعة الإسلامية تبيح توظيف غير المسلمين فى كل وظائف الدولة المدنية حتى وزارة التنفيذ. وقد كان من سمات العثمانيين هذا الانفتاح على أمهم والاعتماد على خبراتهم. إنما القضية كانت فى الأمم ونزعاتهم الاستقلالية وولانهم لأقوامهم وليس للدولة العثمانية^(١). ويضع الأفغانى قانوناً أنه فى عزة الدولة تم توظيف الغريب باسم وحدة الدين، وفى ضعفها ثم استبعاده باسم وحدة الجنس. مع أنه فى الشريعة وحدة الدين كافية لتجاوز وحدة الجنس. فالأمة الإسلامية مكونة من أقوام عدة ساوى بينها الإسلام من حيث المبدأ وتركها تتنافس وتتسابق نحو الخير، ولا تفرق الأفراد فى كل منها إلا بالعمل الصالح. وهو نوع من تحويل التاريخ إلى مثال كما هو الحال فى الحركة السلفية المعاصرة.

وباستقراء أحوال الأفراد والشعوب توجد نغمة للجنس وتعصب له، ولكنه ليس من الثوابت فى الطبيعة البشرية بل من عوارضها. فالإنسان له منافع يحصل عليها بالتربية. وفى حالة العدوان يحتذى الناس بالنسب حتى كوتوا أقواماً وأجناساً. وتوزعوا إلى الهندى والإنجليزى والروسى والتركمانى. فلو زالت الضرورة التى أدت إلى هذا النوع من العصبية لاختفت عصبية الجنس. وتساوى الناس أمام الله

^(١) غصّة الجنس وعصبية الدين، لأعمال ص ٣١٢-٣١٤ رؤية مختصرة فى الدولة الإسلامية ومحاكمته لما أتود من الخطأ والصواب، وأسباب ما سراه فى الاشياخ والاتباع من التثقف والانحطاط، خاطرت ص ٢٣٧-٢٤٠.

العلی الكبير بدلاً من خضوعهم للداكم القاهر. لذلك أعرض المسلمون عن الجنسيات في وقت قوتهم ولجأوا إليها في وقت ضعفهم. الدين الإسلامي أقوى رابطة نذوب فيها روابط الاجناس وكما قال الرسول "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية"، وكما ذكر القرآن ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾. وقد حكمت المسلمين أجناس عدة لافرق بينهم ماداموا يلتزمون بالشرع، لافرق بين عربي وعجمي وحبشي وتركی وهندى وأفغانى. لذلك يتأسف المسلمون دون غيرهم على انهيار وحدة الأمة إلى عصبية الجنس. فواضح أن الأفغانى يرى أن عصبية الجنس مكتسبة وليست طبيعية في البشر. سببها التجمع بين قوم واحد درءاً للعدوان وليس للعدوان^(١).

أما الوحدة الإسلامية فإنها تقوم على الإخوة الدينية، ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾. قوة المسلمين في دينهم وإيمانهم، وينعكس على وحدة الأمة. وتطالب الشريعة بالوحدة والارتباط، وتظهر العقيدة، التوحيد، في حياة الجماعة. الإخوة الإسلامية نسب وقرابة، أخوة في الله ونصر للدين وليست للعدوان. والملة جسم عظيم قوى البنية. يصاب بأمراض مثل الانحلال وضعف الروابط مما أدى إلى انقسام الخلافة إلى دويلات في الداخل، والغارة على العالم الإسلامي في الخارج، من الغرب والشرق على حد سواء ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾. الوحدة هي الأساس والتجزئة طارئة. والنهضة هي الأصل والسقوط طارئ. والتفاوت هو الدائم والتساو مؤقت. والفضائل هي القاعدة والذائل استثناء، والعلم هو الجوهري والجهل عرضي. والنصر هو الثابت والهزيمة متغيرة.

ويستقرىء الأفغانى حوادث التاريخ، ويقرأ سنن الكون، ويتخذ العبرة التي لخصها القرآن في محكم الآيات مثل ﴿وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ للتأكيد على الوحدة الإسلامية كقانون للتاريخ. الوحدة سبب

^(١) الجنسية والديانة الإسلامية، الأعمال ص ٣٤٨-٣٥١ التعصب الجنسي والتعصب الديني، خاطرات

ص ٣٨٢-٣٨٦ العروة ج١ ص ١١٣-١٢١.

النهضة والتفكك سبب السقوط. ويتذكر وحدة الأمة الماضية من المغرب الأقصى غرباً إلى الصين شرقاً، ومن قازان شمالاً إلى سرنديب جنوباً، أراضي وثورات وعمران، وظهور حكماء الشرق، الرازي والفارابي وابن سينا، وحكماء الغرب ابن ماجة وابن طفيل وابن رشد. وتفوقوا في العلوم العقلية والشرعية. وكان الخليفة العباسي موضع رهبة من كل الملوك في الشرق والغرب. وكذلك كان باقي حكام المسلمين مثل محمود الغزنوي، وملكشاه السلجوقي، وصلاح الدين الأيوبي، (تيمورلنك) ومحمد الفاتح، والسلطان سليم، وسليمان القانوني. كانت أساطيل المسلمين في البحر الأبيض والمحيط الهندي، تحمي الديار الموروثة عن الآباء. والقرآن يعطي العقائد الصحيحة، ويطرده الأوهام، ويحث على الكمال الإنساني. ويتحقق الوعد والاستقلال وورثة الأرض. وقد تم ذلك بفضل وحدة الأمة والائخاء، والافتخار بالتمسك بأصول الدين ورابطة الأخوة والتواصل بين التركي والهندي والأفغاني والحجازي.

ثم انهيار البنجان، وتفككت الأمة، واستعمرتها القوى الأجنبية وتأخرت في المنافع والصنائع. فلا جنسية للمسلمين إلا في دينهم. تفرق الأمراء فتسلط عليهم الأعداء. ساد الهوى، واكتفوا بمظاهر الإمارة، ووالوا الأجنبي فضاع الأندلس، وانتهت السلطة التيمورية في الهند، وظهر الحرص على الدنيا، وضاعت وحدة الكلمة. ولو اتبع المسلمون عقائدهم ورعاية العلماء لتوحدت الكلمة. ويقترح الأفغاني طرفاً ثالثاً : الأول إثارة الأذهان وتنبيه الغافلين لمعرفة ما يكون به الدفاع، والثاني اتفاق الآراء على القيام بذلك وتوحيد الكلمة أي القرار الجماعي، والثالث الارتباط القلبي بين الإخوة لبناء الأقطار. وقد توحد الروس وكانوا متأخرين عن أوروبا بهذه الطرق الثلاث حتى ارتقت في القرن العسكري. ولكن الأمراء المترفين تقاعسوا، وركنوا إلى الدنيا، يحرصون على الألقاب والمظاهر في المواسم والأعياد، والانحناءات كرد التحيات والتوقيعات على الأوراق الرسمية بأسماء لامسميات لها، والنياشين على الصدور. فلا سبيل للخروج من هذا التفكك والانهيار

إلا بالوحدة ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. من الصعب توحيد الأمراء فى شخص واحد بل توحيدهم تحت سلطان القرآن ووجهة الدين. لا يكفى الحزن بل العمل لتجاوز اليأس. والضعف ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون﴾، والابتعاد عن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل لهم اقعدوا مع القاعددين أو من الذين ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالمف ، وطع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾. القرآن حى لا يموت ولم ينسخ بوحي آخر ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾. وللعلماء العاملين اليد الطولى فى هذا العمل الشريف^(١).

وبالفعل، دبت الحياة فى الممالك الشرقية فهبت من رقبتها، فتوحد الفرس مع الأفغان بالاتفاق على أصل واحد، ورابطة واحدة، الدين الإسلامى ونشر ذلك الاتفاق على إخوانهم فى الهند. ولا اختلاف بينهم فى المذهب يدعو إلى الفرقة. والجزء لا يضحى بالكل، والفرع لا يقضى على الأصل. الوحدة الدينية إذن أساس الوحدة السياسية والحضارية لمقاومة العادين والطامعين. وقد تم استيلاء الإنجليز على بلاد الهند لخلافهم مع الأفغان. وكل مسلم فى الهند، فى بنجاب، شاخص ببصره إلى هذه الوحدة بين الفرس والأفغان. فالاتحاد أفضل وسيلة لدرء العدوان. واتفاق سلطنة الشام مع إمارة الأفغان، قوة إسلامية جديدة فى الشرق، نواة الاتحاد بلاد الشرق. وفى وسطها الخلافة العظمى لاستعادة عز الأمة وسيرة الإسلام الأولى، فتحشاه أوروبا.

ويعبر الأفغانى عن أهمية الوحدة الدينية بأقواله المأثورة مثل : شر دواء الشرقيين اختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف. فقد اتفقوا على ألا يتفقوا، عدم التشاكال من أعقد المشاكل أى إدراك العالم بعين الاختلاف وليس بعين التشابه، لا يتم عمل والتآلف مفقود، بالضبط والتضييق تلتحم الأجزاء المبعثرة، وهذا الضبط هو الترابط الدينى. الشرق، الشرق، داؤه انقسام أهليه، وتشتت آرائهم،

^(١) الوحدة الإسلامية، الأعمال ص ٣٤١-٣٤٦ بين الأجداد والأحفاد، الأعمال ص ٢٠٤-٢٠٦.

واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف، اتفاهيم على عدم الاتفاق، واختلافهم على الاتفاق. لقد تفرقت كلمة الشرقيين عموماً، والمسلمين خصوصاً. وقد كان اتهام الغرب الشرقيين بالتعصب من أجل تفكيكهم وابتلاعهم وفرض المسيحية عليهم باسم الحرية^(١).

ويفضل الأفغانى دعوته لاتحاد الفرس مع الأفغان فى آسيا مثل دعوته لوحدة وادى النيل فى أفريقيا، الأولى نواة لوحدة المشرق الإسلامى والثانية دولة - قاعدة لوحدة المغرب الإسلامى. ولما كانت مصر بين آسيا وأفريقيا فإن نواة الوحدة الإسلامية فى المشرق والمغرب هى مصر. ويصدر الأفغانى ودعوته بحديث "إذا أراد الله بقوم خيراً جمع كلمتهم"، والتعبير عن سروره بخدمة الجرائد الفارسية لأوطانها واعتدالها ونقلها بعض أبواب العروة الوثقى إلى الفارسية تنبيهاً للمسلمين، وإنارة للعقول من أجل تعميم الفائدة. واللغة الفارسية فى الشرق كاللغة الفرنسية فى الغرب تعبر عن إبداع الفرائج السليمة خاصة فيما يتعلق بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية واحياء الرابطة المليية بين المسلمين خاصة بين الإيرانيين والأفغانيين. وهما فرعان لشجرة واحدة وشعبتان لأصل واحد، هو الأصل الفارسمى القديم. ومن الطبيعى أن تكون المبادرة من الإيرانيين. فالعلماء من فارس: البخارى، ومسلم، والنيسابورى، والنسائى، والترمذى، وابن ماجه، وأبو داود، والبخارى، والبلخى، والكلينى، والرازى الطبيب، والرازى المفسر، والغزالى، والاسفراينى، والبيضاوى، والطوسى، والأبهرى، والايجى، وابن سينا، والسيرودى، وكثير من المحدثين من العلماء والمفسرين والمتكلمين والفلاسفة والصوفية. وكانوا أول من خدم اللسان العربى وضبط أصوله مثل سيبويه، وأبو على الفارسى، والرضى، والجرجانى، والجوهري، والفيروزبادى، والزمخشري، والكسالى، والاصفهانى، والهمدانى من علماء القرآن، والبلاغة، والطبرى،

(١) حضرت ص ٢٦٨-٢٧١ ص ٣٩٨/٣٩٣ وحدة الأديان وانقسامات تحارها، لأعمال ص ٣٩٦/٣١٨
سن الله فى الأعم، لأعمل ٣٩٩.

والاصطخري، والقزويني من المؤرخين والجغرافيين، والشبلي، والبساطامي،
والهروي، استاذ ابن عربي من الصوفية، والبيزدي، والآمدی، والميرغداني،
والسرخسي، والتفتازاني، والشريف، والابويردي من الفقهاء، والقطب، والصدر
الشيرازي، وميرباقر، وميرفندركس من الحكماء. لذلك قال الرسول "لو كان العلم
فى الثريا لناله رجال من فارس". فالفرس مهيتون للمبادرة للوحدة الدينية كما
أبدعوا فى العالم، واسترجاع فتوة الاسلام الأولى، والوحدة مع الأفغان والتحاليف
معهم على مقاومة المعتدين. وقد تم استيلاء الإنجليز على الممالك الهندية بسبب
الخلاف بين الفرس والأفغان، وكل مسلم فى الهند ينظر إليهم. وحدة الفرس
والأفغان هو السد المنيع الذى يحمى الهند من الشمال ضد الغزو الأجنبى. وأمير
الأفغان، والأفغان من أشد الناس عداوة للإنجليز. فلو اتحد الأمير مع الشاه لوجدت
قوة إسلامية فى المشرق نواة لتوحيده، وكانت رصيذاً للمسألة المصرية. مهمة
الفرس بيان أسس هذا الاتحاد وأهميته وضرورته. وقد بدأ الروس الهجوم على
الهند وأوروبا مشغولة بمقاصدها. فاتحاد إيران وأفغانستان تدعيم لمقاومة الهند
لغزو الروسى خاصة وأن الهند بعيدة عن روسيا، وجبالها وعرة، ولاسبيل إلى
الوصول إلى الهند إلا عبر فارس وأفغانستان. وليس من المعقول أن تستعمر روسيا
الهند عن طريق إيران وأفغانستان ومشاركتها فى الغنيمة. ورابطة الدين الإسلامى
أقوى الروابط بين الفرس والأفغان والهنود، وترك الخلافة المذهبية الفرعى إلى
المصالح العامة والدفاع عن الأوطان. وقد اختلف الألمان فى الدين المسيحى كما
يختلف الإيرانيون مع الأفغان فى الاسلام ولم يكن لهذا الاختلاف الفرعى أساس فى
الوحدة السياسية. توحد الألمان بعد أن ضعفوا، ولم يكن لهم دور فى السياسة
الأوروبية. فراعوا الوحدة الوطنية فى المصالح العامة. واللسان الفارسى هو لسان
الطائفتين، وبالتالي تكون مهمة الجرائد الفارسية العمل لهذه الدعوة^(١).

^(١) دعوة الفرس للاتحاد مع الأفغان، الأعمال ص ٣٢٦-٣٢٠.

واضح أن الأفغانى يؤسس الدعوة للوحدة على الرصيد التاريخ الحضارى والثقافة المشتركة بين الشعوب الإسلامية. كما يعتمد على التجارب الأوروبية المعاصرة مثل الوحدة الألمانية من أجل تدعيم الوحدة الإسلامية.

ويستبعد الأفغانى كون الفرس من الشيعة والأفغان من السنة أن يكون ذلك مانعاً من الوحدة بينهما كما لم تكن البروتستانتية والكاثوليكية ما نعتين من وحدة الشعب الألمانى. فقد ظهرت أحزاب وشيع منها من ضلّت مثل المؤلّهة التى تقول بالوئية على، والمفضلة والغلاة فى محبة آل البيت طريقاً للقول المأثور "يهلك فينا أهل البيت، محب غال، ومبغض غال". المفضلة من الشيعة يقادون جعفر الصادق، من كبار فقهاء آل البيت، يغالون فى تفضيل على، ولكنهم لا يخرجون على الأمة. إنما هى فروع أوجبت الخصام فالافتتال لجهل الأمة وسفه الملوك الطامعين فى توسيع الممالك. ملوك السنة هولوا وعظموا أمر الشيعة لاستهواء العامة بأوهام ضد شيعة آل البيت ليتسنى لهم قتالهم، فيقتل المسلمون بعضهم بعضاً بحجة الشيعة والسنة، والكل موحد بالله، مؤمن بالكتاب والسنة. أما مسألة تفضيل على والانتصار له يوم قتال معاوية، والخروج عليه فلو كانت فى هذا الزمن مفيدة وإحقاق الحق فإنها لم تعد كذلك اليوم ولا ينشأ منها إلا الضرر وتفكيك عرى وحدة الأمة. فهل لو أجمع أهل السنة اليوم، ووافقوا المفضلة، وأقروا بأولوية على بالخلافة قبل أبى بكر فهل يحسن ذلك حال السنة والشيعة؟ ولو وافقت الشيعة أهل السنة على أولوية أبى بكر وأحقه بالخلافة فهل ينهض أهل السنة مما وقعوا فيه من مذلة وهوان؟ لا يرضى على عن الشيعة إذا قاتلوا أهل السنة لمجرد تفضيله على أبى بكر. ولا يرضى أبو بكر أن تدافع أهل السنة عنه، وتقاتل الشيعة لأفضليته التى تخالف روح القرآن، وأن المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً. أن قصة التفضيل لو استحققت البحث لكفى أن يقال لحلينا إن أقصر الخلفاء الراشدين عمر تولى الخلافة قبل أطولهم عمراً. فلو تولى الخلافة على لمات أبو بكر وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة الاسلام^(١). يقدم الأفغانى هنا حجة الأمر الواقع على

(١) أمة واحدة لامة ولا شيعة، الأعمال ص ٣٢٤-٣٢٥ نفور الأفغانى من قول سنى وشيعى، وأن لا موجب لهذه التفرقة التى أحدثتها مظالم الملوك و جهل الأمة، خاطرات ص ١٦٨/١١-١٧٠.

حجة شرعية الفكر، ومقياس المنفعة وأولويته على الضرر، والزمن الحاضر وأوليته على الماضي، وضرورة الوحدة على الانقسام.

والدين واحد بالرغم من تعدده، والاديان متفقة فى الهدف والقصد والغاية. هناك ثلاث ديانات كبرى: اليهودية النصرانية والاسلام، وكتبها السماوية: التوراة والانجيل والقرآن. القصد منها واحد، ارشاد الخلق إلى الحق، وتوجيههم إلى الطريق المستقيم فى العبادات والمعاملات، وبيان مشيئة الله فى خلقه وصون مصالح العباد. وهو قصد واحد، ومشية واحدة. والكتب السماوية كلها تهدف إلى غاية واحدة. عبادة الله واحدة، والمعاد واحد، أنانية الإنسان وحبه الذاتى ورغبته فى البقاء بعد الموت، وكأن الأفغانى يؤسس العقائد فى التجربة الإنسانية. لا يوجد فى الأديان الثلاثة ما يخالف نفع مجموع البشر. الكل يعمل للخير المطلق، ودفع الشر، وجلب المنافع، ودفع المضار. الأديان الثلاثة، الموسوية والعيسوية والمحمدية متفقة فى المبدأ والغاية. وكل منها يكمل الآخر فى الخير المطلق. وإذا قدم العيد ونشأ الطغيان أوسادت الكهانة ظهر نبي لاكمال الناقص. فوحدة الأديان طريق البشرية إلى السلام. القصد واحد وهو التحرر، كمال العقل الإنسانى واستقلال الإرادة البشرية. فإذا ماضعت الإنسانية عبر التاريخ وضعت فى الخرافة والجهل أوردت بالطغيان يظهر نبي يذكر بالقصد والغاية. فالوحي مربى الإنسانية^(١).

والخلاف فيها بين رجلين : الأول يؤمن بالوحي ويثبت الأنبياء، والآخر يجحد بالوحي وينكر الانبياء. الأول يدرك وحدة الأديان، والثانى يقول إن الكون ليس فيه جديد ويأتى العلماء فيصوغونه. توحيد الله عند قدماء المصريين قبل موسى، والتثليث من الوثنيين، قال به فيثاغورث قبل المسيح. وموسى وعيسى ومحمد اعتمدوا على أقوال الحكماء القدماء وضموها إلى كتبهم. فهى كتب بشرية وليست إلهية. ولو كان بهذه الكتب بعض النفع فضررها أعظم. وقد سببت الشقاء والبغضاء. ولو كان الدين حقيقة لما وقع الاختلاف فيه. ويريد الأفغانى على الجاحد

^(١) انظر دراستنا وترجمتنا للنسخ : تربية الجنس البشرى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧.

بأن الاتفاق بين الأديان حقيقة، والاختلاف من صنع رؤساء تلك الأديان الذين يتاجرون بالدين ويشرون بآياته ثمنًا قليلاً. وما أنفع رجال الدين إذا صلحوا وما أضرهم إذا فسدوا. الأديان الثلاثة واحدة، يكمل بعضها بعضاً، إلا أن كل طائفة اعتبرت نفسها حائوتاً أو متجراً. فظهر الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية كما قال الشاعر :

قد يفتح المرأ حاتوتاً لمتجره .: . وقد فتحت لك الحاتوت في الدين
صيرت دينك شاهيناً تصيد به .: . وليس يفلح أصحاب الشواهين

فإذا قلوب رجل الاختلاف قطع رزقيهم، واتهموه بالكفر والزنتقة والاحاد والجود والمروق على الدين. فأكبر خطأ من كرامة الدين لمجرد عمل يأتيه فرد من رجال هذا الدين. والإيمان واليقين ليس معناه عباداة رؤساء الدين. لقد تحولت الأديان إلى متاجر وحوانيت. وينقد الأفغانى بالمناسبة الشيخ الميرغنى الذى صاحب فرقة إنجليزية ضد ثورة القبائل السودانية، والشرع يحذر منه. وقد حكم العلماء بمروقه، وهو مثل نقد الكندى لرجال الدين الذين يدافعون عن مناصبهم المزورة باسم الدين وهم عتماء الدين لأن من جهل الحق عاداه فى أول رسالته إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى.

وتنشأ الشبهات حول الأديان بمقارنة المثال بالواقع، ما ينبغى أن يكون بما هو كائن . فقد سأل أحد نواب الهند: إذا كان الاسلام هو الدين الحق فلماذا تقهقر المسلمون؟ ويرد الأفغانى على ذلك بحجة جدلية بأن الدين الحق هو الظاهر وليس الاسلام. وإذا كان المسلمون غير ذلك فهذا لا ينفى الاسلام لأن حجة الواقع لا تطعن فى الفكر. والدين الحق هو الدين الواحد وليس مراحل المتتالية، اليهودية والنصرانية والاسلام. الدين الحق هو الدين الخالص. كما يستعمل الأفغانى حجة خيالية، إذا وضعت الكرة الأرضية بين يديه وتم قياسها ببعض الأجرام كانت صغيرة، والإنسان أصغر. وإذا عاش الإنسان فى كوكب آخر فإنه قد يمتلك حجم

الكرة الأرضية، ولما نشأ الاختلاف. وتقوم الحجة على عظم الكون والأرض، والإنسان لا يشغل إلا مساحة ضئيلة فيه، ومع ذلك يختلف الناس عليها. فما بالهم لو تكاثروا وعاشوا في الكون الأرحب والأوسع؟ وما المانع أن يعيش أهل كل قرية في أمن وسلام؟^(١). ويستشهد الأفغانى بالتوراة والإنجيل والقرآن مادام الدين واحداً. وهو أقرب إلى موقف الصوفية والفلاسفة وإخوان الصفا منه إلى المتكلمين والفقهاء إلا أنه يسميها الديانات الموسوية والعيسوية والمحمدية. وهو خطأ لأن أسماء الديانات لا تشتق من أسماء مؤسسيها مثل اليودية والمسيحية والزرادشتية والمانوية بل من جوهرها. فالاسلام من أديانهم، والنصراني من نصر.

والوحدة تؤدي إلى السيادة. ويصدر الأفغانى مقاله عن "الوحدة والسيادة" بحديث "المؤمن للمؤمن كالبنين يشد بعضه بعضاً". فهناك أمران خطيران تدفع اليهما الضرورة أحياناً والدين أحياناً أخرى، وهو الميل إلى وحدة تجمع وسيادة لا توضع. فكل أمة تتيض وتضمحل كالصحة والمرض، والحياة والموت. التغلب في الأمم كالغذاء في البدن. والوفاق تواصل وتقارب احساساً من كل فرد بمنافع الوحدة، النظر في أمور الآخرين. ثم تنشأ الرغبة في السيادة كنتيجة طبيعية للوحدة. هذان الأمران، الوفاق والغلب ركنان في الدين وفرضان شرعيان طبقاً للحديثين الشهيدين "المؤمن للمؤمن كالبنين يشد بعضه بعضاً"، "لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً". والاعتصام بحبل الدين ضروري، وكذلك الصلح بين المتخاصمين كما نص القرآن ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتلوا فأصلحوا بينهما﴾ فإن بغت أحدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴿، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾. وكما نص الحديث "يد الله مع الجماعة"، "لودعيت إلى حلف الفضول لفعلت". فالاحساس بالجماعة والتضامن معها وتمثل قيمها قبل الوحي وبعده، وله أساس في الطبيعة البشرية،

^(١) وحدة الأديان وانقسامات تجارها، الأعمال ص ٢٩٠-٢٩٦ السلطانان الزمنية والروحية ص ٢٩٣/٣٢٢/٣٢٤.

مثل عدم أخذ فضل من حقه، ورد حق المظلوم إليه. كما يدعو القرآن إلى بسط السيادة ولكن افنتن المسلمون ﴿أحب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾، ﴿إن تصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾. الميل إلى الوحدة، والتطلع إلى السيادة طبيعيان في البشر، أكداه الدين، وعبر عنه القرآن، وصاغه الحديث^(١).

ثم ينتقل الأفغانى من المثال إلى الواقع، من الوحدة إلى التنوع. فالبشر يعيشون فى أوطان وفى قوميات وفى إنسانية واحدة. الإنسان نوع واحد وليس له غير هذه الكرة ووطناً. فوحدة الذرع تقتضى وحدة المكان. ومع ذلك لا تتحدد الهوية بالجغرافيا والمكان ولا بالعرق والدم بل بالفكر والتاريخ، بالتوحيد والثقافة المشتركة، الإخوة الإسلامية والتاريخ المشترك. العروبة هى اللغة، والإسلام هو الفكر، والعالم الواحد هو الواقع الحى. فالعصر عصر الأوطان وتخطى الأوطان فى ان واحد. ويفصل الأفغانى الصلة بين القومية والإنسانية معتمداً على التشبيه طبقاً لعادة القدماء خاصة الفارابى. فكما أن للإنسان "حواس خمس" فللأقاليم حواس خمس بها تميزت الشعوب والقبائل التى خلقها الله من نفس واحدة. وتقسم المعمورة إلى أوطان. والخواص الأربع تستمد طبيعة الأقاليم منها. والخامسة تطراً فتؤثر وهى: الأول الدين أى العقائد وهو الأول فى الترتيب، والثانى اللسان، أى اللغة، والثالث الأخلاق أى القيم، والرابع العوائد أى العادات والأعراف، والخامس الأقاليم الذى يؤثر فى المجموع. وبهذه العناصر الخمسة تحصل ميزات الأقوام، وتحصل المساواة بينهم. فإذا ما أصابها الغرور ساءت الطبيعة، ونشأ الغلب والقهْر بالتذرع بالدين. توجد القوميات بالعناصر الخمسة كما توجد الإنسانية أيضاً. وبالرغم من تقسيمات الغرب واستقلال عناصره بميزانهم القومية تساوا نسبياً بالفضيلة وأههما العلم بالواجبات، لهم وعليهم. انتفى منهم التفرد بالسلطة وسوق الأمة على هوى السلطان. وينتفى هذا الحكم المطلق فى التاريخ تدريجياً حسب مقتضيات الفطرة

(١) الوحدة والسيادة، الأعمام ص ٣٥٣-٣٥٧.

كما حدث في الغرب اليوم، تحكمه لُشُورى. وصارت كل أمة فى مأمن من أن تغزوها الدولة المجاورة. فإذا ما فشى العلم فى الأمة فأول ما تقوم به مناهضة هذا الشكل من الحكم حتى تتخلص منه. هذه سنة الله فى الكون ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾^(١). ومع ذلك ارتبطت نشأة القوميات فى الغرب بالاستعمار بينما ارتبطت فى الشرق بالحرر. ولم تكن القومية الغربية كلها خيرة. اذ نشبت فيه حربان عالميتان طاحنتان فى القرن العشرين بعد وفاة الأفغانى. وقامت الحروب باسم القومية بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا، واستعمرت فلسطين باسم القومية اليهودية. ووقعت مذابح المسلمين فى البوسنة والهرسك باسم القومية العربية. وذبح ملايين من الأفارقة فى مذابح متبادلة بين القبائل فى رواندا. فالأفغانى أحياناً يحول التاريخ إلى مثال لا يصدق فى الواقع، وأحياناً أخرى يستقرئ حوادث التاريخ لإثبات المثال فى صيغة قانون للتاريخ.

وبحثاً عن الأوطان والقوميات والإنسانية عرج الأفغانى على الماسونية. انضم إلى المحفل البريطانى، ثم غادره إلى المحفل الفرنسى ثم غادر الماسونية كلها مبيناً ميزاتِها وعيوبها. إذ تمتاز الماسونية، وهذا ما أغرى الأفغانى بها، أنها هدم للقديم، الظلم والجور والعتو، وبناء للجديد، الحرية والاخاء والمساواة. غرضها نفع الإنسان. تهدف إلى دك الظلم وتشييد العدل. كما تعمل على بلورة همه العمل، وعزة النفس والشمم، واحتقار الحياة فى سبيل مقاومة الظلم، واعتبار كل قادر وظالم من الحكام من الخوارج. والماسونية أشرف وأرفع من أن تعمل على إيجاد سلطة لرئيس تخدم له بها غاية شخصية أو منفعة مادية أو معنوية. أراد الأفغانى أن يكون عاملاً ماسونياً نزيهاً متجنباً الرذائل حرصاً على شرف الشخصية وحتى لا يعاب على الماسونية بأشخاصها. وصحة البدن وذلل السؤال لا يجتمعان. الماسونية تسعف الأخ إذا سقط فى العلل أو اعتزاد شلل. وتقدم على من سواه فى البشرية. تربي أبناءه إذا مات فقيراً، وتحسن تربيته. الماسونية هى أن يصبح الإنسان إنساناً، وألا يكون الإحسان له إساءة.

^(١) الإنسانية والقومية والديموقراطية، الأعمال ص ٤٢٧ - ٤٢٩ خاطرات ص ٨١ - ٨٣.

ومع ذلك، وبعد أن عرفتُها مصر بلد العجائب، وبعد دخول الأفغانى فيها والخروج عليها، وتجربتها ومعاشيتها اكتشف عيبتها مثل الجبن والخوف والنفاق والزلفى. كما لا يوجد وصف دقيق لها إذ يقول "أما نحن معشر الماسون فيؤلمنى أننى للآن ما عرفت لنفسى بصفتى ماسونياً ولا لمطلق الماسونية تعريفاً يجعل لها صورة فى الذهن أووصفاً ينطبق على من يخرط فى العشيرة"^(١). كما تقوم الماسونية على الأثرة والأنانية وحب الرياسة، والأفغانى لا يحب الرياسة بل يتوجه إلى الجماهير. كما تسود الجماعة الأهواء والانفعالات البشرية دون مراعاة لحق مطلق أو مبدأ ثابت. ويبدو أنها تهدف إلى إخضاع الشرق وتهديده ووعيده، وأنها نحلة غريبة تقع تحت معاداة الأفغانى لاستعمار الغرب للشرق. الماسونية لم تزل فى المهد وقد تَخْتَلِق فى المهد إذا لم يفقه مغزاها أحد. الماسونية اليوم مجرد "كيس أعمال وقبول أخ"، نوع من أساطير الأولين، تذل عقائد الناس، وتضمهم إلى رئيس ومرؤوس، تابع ومتبوع، غرب يأمر وشرق يرضخ، غرب يجمع المال وشرق يدفع الجزية. لن تعيش الماسونية فى الشرق لأنها لا تعبر عن مصالحه ولا تبغى تحرره، وهى إحدى مظاهر الهيمنة للغرب.

٢- التقدم والتخلف

ويحاول الأفغانى أن يرصد بعض القوانين العامة لنهضة الشعوب وسقوطها تنطبق على جميع الأمم عبر التاريخ وليس فقط على الأمة الإسلامية، وهى قوانين التقدم والتخلف على أساس أن النهضة هى القاعدة والسقوط هو الاستثناء، أن التقدم هو الأصل والتخلف هو الفرع، مفسراً الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لاستنباط هذه القوانين أو واصفاً حوادث التاريخ مستقرناً لها، جمعاً للتزليل مع التأويل. ربما تنقص الصياغة النظرية ولكن الهم واضح، والنية معلنة.

^(١) الماسونية، الأعمال ص ٥٢١-٥٢٢.

كانت للمسلمين شدة في الدين وقوة في الإيمان وثبات في اليقين. وكانت العقيدة من أوثق الأسباب لارتباطهم. وكان الإيمان يؤدي إلى السعادة في الدارين. وكان العلماء مرشدين للناس، موجهين العامة. والمسلمون تحكمهم الشريعة، مطالبون بالحفاظ على مبادئهم من البلدان. ثم غفل المسلمون عن بعضهم البعض. ولم يتألموا لما حل ببعضهم البعض. كان أهل بلوختان يرون حركات الإنجليز في أفغانستان ولا يتحركون. والأفغانيون يرون تدخل الإنجليز في إيران ولا يتكلمون. ويضرب الإنجليز في الأراضي المصرية، تقتل وتفتك ولا ينجد المسلمون. فتفكك الرابطة الدينية بسبب الانهيار والاستعمار، وقوتها سبب النهضة والتحرر.

وتمسك المسلمون بالعقائد له أسبابه. إذ تبعت الأفكار والعقائد على الأعمال تثبتها. والإنسان بفكره وعقائده، والأخوة ونسب القرابة صورة من العقل، وهما من الروابط الإنسانية. والآن لم يبق للمسلمين إلا الدين والعمل، وانقطع التعارف بينهم، وهجر العلماء بعضهم بعضاً، ولا سفارة للعثمانيين في مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين. ولا توجد صلات بين العثمانيين والأفغان. كثرت المذاهب والتشعب والخلاف في بداية القرن الثالث للهجرة. وانقسمت الخلافة إلى عباسية في بغداد، وفاطمية في مصر والمغرب، وأموية في أطراف الأندلس. ثم ظهر جنكيزخان وأولاده وتيمورلنك وأحفاده. ووجب العلماء الآن إحياء الرابطة الدينية والترابط بينهم^(١). واضح أن الأفغان هنا ينوع على نفس القانون. فالنهضة بالدين والعمل، والسقوط بالدين دون العمل. كما أن التقدم بالترابط والتخلف بالتفكك. ويكون القانون هو: ترك ما كان سبباً للصعود يؤدي إلى الهبوط. والسقوط..

(١) أسباب تخلف المسلمين، الأعمال ص ٣٥٩-٣٦٣ خطرات ص ٣٨٩-٣٩٠/٢٩٢-٢٩٨. النظرية العامة في الإسلام والمسلمين، وأسباب ما لم يهيم من الانحطاط مع توفر ما في الدين من النهوض وأسباب الرقي على عكس من نهض من الأمم وليس في دينهم ما يحملهم على ما هم عليه من أخذ العدة وأسباب النهضة المشهودة فيهم وفلسفته في ذلك، خطرات ص ١٣.

والجهاد أيضاً قانون تاريخي. الجهاد سبيل النهوض، والنكوص يؤدي إلى الإنهيار. ويعتمد الأفغانى هنا على استنباط هذا القانون من الآيات القرآنية مثل ﴿آلم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. وقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكذابين﴾. الجهاد امتحان واختبار للنفس. وجهاد للعدو ضد الخوائف المثاقلين إلى الأرض. الجهاد سبيل النهوض والنكوص، والقعود الطريق إلى السقوط. ويذكر أيضاً ﴿ولا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والله عليم بالمتقين. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾. فالإيمان بالله يؤدي إلى الجهاد أى إلى العمل مثل القانون السابق. فإن تخلت الأمة عن الجهاد فإنها لا تترك الأرض بل تتركها أمة غيرها ﴿وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب آليم﴾. والتولى هو خيانة البلاد، والجهاد هو الدفاع عن الأوطان. ملعون من يخون البلاد لمرض في قلبه. ملعون من يبيع أهل ملته بحطام يلتذ به. ملعون من يمكن الأجانب من دياره، محروم من سرف الملة الخفيفة، من يعظم الصغير ويصغر العظيم، ويمهد الطريق لخفض كلمته وإعلاء كلمة الأغراب. ملعون من يختلج في صدره أن يلحق عاراً بأمة ليتيم ناقصاً من لذته. هنا يتوجه الأفغانى بالخطاب السياسى إلى الأمة، ويوحد بين النكوص والخيانة. إن المولعين بحب الحياة يقضونها في الذل من خوف الذل، ويعيشون من خوف العبودية في العبودية، ويجرعون مرارات سكرات الموت في كل لحظة خوفاً من الموت. فلا الذين يسوقهم إلى مرضاة الله، ولا الحمية الوطنية تدفعهم إلى ما به فخار بنى الإنسان^(١). ويصوغ الأفغانى بعض الأقوال المأثورة لبيان أهمية الجهاد، وإثارة الموت الكريم على حياة الذل. وأحق الناس من يطلب موت الناس ليحيا، وأعظمهم من يحتميت ليحيا ولو واحد من الناس. وطالب الموت في سبيل حياة الوطن إما أن يموت بطلاً شهيداً وإما أن يعيش سيئاً عزيزاً. وأمة ثبتت في جهادها لأخذ الحق

(١) العروة ج ٢ ص ١١٠-١١٧/١١٣-١٤٢-١٤٥ خاطرات ص ١٧٢.

ساعة خير لها من الحياة فى الذل إلى قيام الساعة. وخير لون إرادة
الاستقلال دماء المجاهدين والأبطال^(١).

والإصلاح الدينى أيضاً قانون للنهوض وأحد وسائل الانتقال من التخلف إلى
التقدم، ومن السقوط إلى النهضة. ولا يمكن التخلص من الاتحطاط والتأخر إلا
بتأسيس النهوض والتمدن على قواعد الدين وليس عن طريق تقليد الغرب الذى
يؤدى إلى الازدهار بالأجانب والاستكانة لهم والرضا بسلطانهم. فيتحول الإسلام من
تحرر وإبداع إلى خمول واستغفار لحكم الأجنبى. والسبيل إلى ذلك حركة دينية
تقلع ما رسخ فى عقول العوام وبعض الخواص من فهم خاطئ، للعقائد والشرائع،
ونشر تعاليم القرآن الصحيحة بين الجمهور وشرحها بحيث تؤدى إلى السعادة فى
الدارين. ومن هنا تأتى ضرورة تهذيب العلوم وتنقيح المكتبات، ووضع مصنفات
سهلة. وكان هذا طريق إصلاح الغرب، وانتقاله من الهمجية إلى المدنية. وهى
الحركة الدينية التى قام بها لوثر بعد أن رأى خضوع أوروبا لرجال الدين ولتقاليد
خارجة عن العقل والدين. فأصلح الأخلاق، وقوم الاعوجاج، وطهر العقل، ونبه
إلى الحرية الطبيعية ضد الاستعباد والطغيان. ثم نشأت حركة عداوة ثم منافسة بين
البروتستانتية والكاثوليكية على القوة والعزة والغلبة والارتقاء فى المدنية للتفوق
على الآخر. ومن هذه المنافسة تولدت المدنية الحديثة التى ينبهر الناس بها. مع أن
لدى المسلمين فرقتين كبيرتين، سنة وشيعة، ولم ينشأ تحد بينهما نحو المدنية. تبدو
الشيعة أحياناً كالكاثوليكية نظراً لأهمية رجال الدين والتراث والتاريخ، والسنة
كالبروتستانتية نظراً للعقل والفردية والحرية. وأحياناً تبدو الشيعة كالبروتستانتية
نظراً لما فيها من معارضة واعتراض، والسنة كالكاثوليكية نظراً لما فيها من
خضوع. ومع ذلك يرى الأفغانى نفسه كمارتن لوثر، وحركة مثل البروتستانتية.
وسجن الظالمين للمصلح رياضة، ونفيهم له سياحة، وقتلهم له شهادة، وهى أسمى
المراتب^(٢).

(١) خاطرات ٣٨٨-٣٩٢.

(٢) الإصلاح الدينى، الأعمال ص ٣٢٧-٣٢٨، الأنا ص ٤٠٧.

والحروب أقبح ما اخترعه الإنسان فى الأرض. وهى وحدها أحق الأعمال بالكتمان لفظاعتها. بينما العلم أفضل ما اخترعه الإنسان الذى أدى إلى التقدم والعمران عند الإنجليز والفرنسيين والألمان والأمريكيين. ولكن فى مقابل ذلك ترجح كفة ويلات الحروب على العلم عند ما يتحول العلم والمدنية والرفق، إلى جهل ووحشية وهمجية، ويتحول الإنسان إلى حيوان بل أخط منه لعدم استفادته من حقيقة العلم. الحروب أكبر دليل على ذلك فلم تقف الحيوانات بعضها أمام بعض كما يقف الإنسان أمام أخيه الإنسان، والدول أمام بعضها البعض بالقتل والدمار. وقد نبه القرآن على ذلك بقوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فاعترضت الملائكة بأن الإنسان يسفك الدماء ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾. والملائكة يريدون فهم السر دون عصيان الله ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. لذلك أخبرهم الله ﴿إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وفضل آدم بالعلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم انبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وجاء فى القرآن تعظيم العلم الصحيح . ﴿هَلْ يَتَوَدَّى الَّذِينَ يَكْمُرُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾. العلم الصحيح يؤدى إلى السلام والمدنية والعمران وليس إلى الحروب والدمار، مرة باسم الوطن والوطن بقعة من الأرض. ولو أنصف الناس لوسعتهم الأرض وهم لها تاركون وفى جوفها داخلون. فالأولى أن يعيش الإنسان مع أخيه الإنسان فوقها . ولا يحتاج لتوقف الحروب إلا توقف الأمة عن الاستجابة لها وتحكيم العقل والعدل. السبيل إذن إلى ابطال الحروب الارتقاء فى العلم وتحويل عساكر بريطانيا إلى نيوتن ودارون وعساكر فرنسا إلى باستير. فهل يقف الجنود صفوفاً للحروب والتدمير أم يقف العلماء صفوفاً للبناء والتعمير؟ ^(١). ويبدو الأفغانى هنا مثل فولتير ناقداً للحرب

^(١) الحروب من أقبح ما عمله ويعمله الإنسان فى الأرض. وهى وحدها أحق الأعمال بالكتمان لفظاعتها، خاطرات ص ٦٧ انكار جمال الدين ما فراه من المدنية ومغالطته باستبداله لفظه الفناء فى التنارع عوضاً عن النقاء ، وأن العلم الصحيح إذا وصل إليه العالم فأعظم أثر له إنما يكون بمنع الحروب التى هى من أكبر الأدلة وأسطرها على توحش الإنسان وبراهينه وافاضته فى ذلك وقوله فى دعوة الإسلام وكيفية انتشاره ، خاطرات ص ١١ / ١٣٨ - ١٤٤ الحرب والسلام، الأعمال ص ٤٣١-٤٣٥.

بالرغم من نقده له باعتباره دهنياً. كما يضع تقابلاً بين الحرب والعلم مع أن العلم أحد وسائل الحروب والدوافع عليه. فالعلم والحروب في يد السياسيين، ولا يوجد علم مجرد ليس في يد أحد مهما كثرت الدعوات على العلم في سبيل السلام، والتمييز بين العلم وتطبيقاته أو بين العلم والسياسة. فهذه نظرة مثالية أخلاقية لم تمنع من وقوع الحروب. وإدراكاً منه لفضاعة الحروب في القتل والدمار فإنه يفضل استعمال تعبير تتنازع الفناء على تتنازع البقاء لأن البقاء صفة لله، ولأن قانون التنازع يبقى الأقوى ولكنه يفنى الأضعف. الحرب إذن استثناء في التاريخ والسلام هو القاعدة.

ومع ذلك يفرق الأفغانى بين الحروب العادلة والحرب غير العادلة على ما هو معروف في الفكر الدينى والسياسى منذ العصر الوسيط فى اصطلاح Just War. الحرب غير العادلة هى حرب العدوان والحرب العادلة هى حرب الدفاع لردع العدوان. الأول مثل الحروب الغربية لتوسيع البلاد استعماراً واستعباداً. والجهاد من النوع الثانى، الحرب العادلة لردع العدوان وإرجاع الخلق للحق. لقد جاء الإسلام لتصحيح الأوضاع فى شبه الجزيرة العربية كما جاءت المسيحية لتصحيح الأوضاع فى اليهودية، وجاءت اليهودية لانتشال اليهود من سلطة فرعون. جاء الإسلام تصديقاً للديانات السابقة لتحرير البشر ﴿قُلْ اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعاً وَلَا ضَرَاراً﴾ ، ﴿هَلْ يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ ، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ . ومن ثم فاحتمالات الحرب بين الأديان قليلة نظراً لاعتراف الإسلام بالديانات الثلاث فى حين أن احتمالات حروب الأديان فى اليهودية والمسيحية أكبر لعدم اعتراف اليهودية بالمسيحية والإسلام وعدم اعتراف المسيحية بالإسلام. فالإسلام مرفوض مرتين، من اليهودية والمسيحية، وهما مقبولان منه. وقد يفسر ذلك أحياناً تكاتف وتضامن اليهودية الغربية (الصهيونية) والمسيحية الغربية فى العداوة ضد الإسلام منذ الحروب الصليبية حتى احتلال فلسطين ومذابح البوسنة والهرمك وحرب الشيشان. وإذا كانت آية السيف قد نسخت

ثلث القرآن من أجل رفع القهور عن الناس والإيمان بالله وحده فإن القتال قد يقع اضطراراً كما لاقى الرسول من أذى الكفار فاضطر للقتال، وكتب على الناس وهو كره لهم، وقد خير الإسلام الناس بين الإسلام أو الجزية من أجل صون النفوس. أما القتال فهو من أجل تحرير الأرض من الشرك والطغيان والعدوان على الناس معنوياً ومادياً. لذلك خيم العدل المطلق على فتوحات الإسلام بمبادئه وليس بالقهر والسيف كما يدعى الغرب. وعم الإسلام جزيرة العرب، ولم تقم إلا غزوات محدودة انقاء لطفيان قريش حتى عام الفتح. وانتشر في اليمين بدون قتال. ولم تتجاوز جيوش أبي بكر وعمر أربعين ألف مقاتل. ودخل الإسلام الشام وفلسطين وحلب والعراق ومصر. وفارس حتى الصين دون أن تكون الحرب في كل الحالات وسيلة لنشره. أما الآيات التي تقرأ في القرآن التي تحث على الاستعداد للقتال مثل ﴿وَأَعَادُوا لَهُمْ مَا اسْتَظَعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾. فلا يعني سفك الدماء بل مجرد التخويف والردع كما يقال في الأسلحة الذووية حالياً وكما نص القرآن ﴿تَرْهَبُونَ بِهَا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدَاوَكُم﴾. وكما قال مولتكه "أبطال الحرب لإبطال الحرب". ولكن عم الجهل، وكثرت التفسيرات الباء والصناد حتى جهل المسلمون الحقائق العلمية مثل كروية الأرض ودور اننها حول الشمس ودون أخذ المخترعات الحديثة كالبرق والسكك الحديدية منه حتى لا يكذبه الناس. إنما أشار إلى ما هو حادث، وما يمكن حدوثه في المستقبل مع مراعاة العقول والتقريب إلى الأذهان. إذن العنف ليس هو الأصل في التاريخ بل التسامح. والحرب ليست أداة لتحرير التاريخ إلا دفاعاً. قوانين التاريخ هي الفضائل والبرذائل، للنهضة والسقوط^(١).

٣- قوانين التاريخ

وتبلغ ذروة فكر الأفغانى في فلسفته للتاريخ وكيف أنه ميدان للاعتبار ومرآة نكشف صدق النص، وأن الآية القرآنية حسيمة استقرار طويل، فالنص والواقع

(١) الحرب العادلة والحرب غير العادلة، الأعمال ص ٤٣٧-٤٤١.

شئ واحد داخل التجربة الإنسانية الفردية والاجتماعية ومقاييس صدقها. وهذا هو معنى الوعد الإلهي وورثة الأرض ونصر المؤمنين وإظهار الدين. وقوانين التاريخ مثل قوانين الطبيعة حتمية ضرورية لأن العقل أى الروح هو محرك التاريخ وهى الإرادة الإلهية فى التاريخ ومساره. وهى سنن الكون، وسنن الله فى الأمم. والتاريخ دورات طبقاً للتصور الحيوى، بين الماضى والحاضر، بين النهضة والسقوط ثم النهضة من جديد بفضل الإصلاح والرقى والتقدم ووسائله. وللتاريخ فعالياته، العقل والدين والعلم والجهاد. وهو ميدان السياسة والصراع السياسى بين الاستعمار والتحرر، وبين الغرب والشرق.

فالتاريخ مرآة للأفراد والشعوب، يقرؤون فيها تاريخ البشرية وخبراتها السابقة، ويستفيدون منه العظات والعبرات. ومن تولى زمام أمور الجمهور لاغنى له عن مرآة وكتاب وتاريخ صحيح. فكما أن المرأة ترى شخصه على علاقته هكذا يفعل التاريخ أيضاً، ينقل أعماله فى حياته وحياته فى قوانين التاريخ. وقد نبه القرآن على ذلك فى آيات العبرة مثل ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾، ﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾. فالتاريخ للعظة والاعتبار والتذكير والذكرى ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾، ﴿إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾.

قانون التاريخ إذن هو تجربة نفسية واجتماعية قيل أن تتحول إلى قانون. فالقانون ما هو إلا تراكم الخبرات الفردية والاجتماعية عبر التاريخ. يتحول من خلالها النوع الفردى الاجتماعى إلى وعى تاريخى. ومقاييس الصدق لهذا القانون متعددة. فمنها العقل والبرهان والقياس والتأمل والتفكير والنظر والتدبر. لذلك طالب القرآن بالبرهان كميّاس للصدق. ومنها أيضاً الإحساس الفطرى والوجدان والشعور والبداهة الطبيعية. وهو ما سماه القرآن الصبغة، ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾، والفطرة، ﴿فطرة الله التى فطر الناس عليها﴾. ومنها التعليم الشرعى واكتساب العلوم والمعارف. لذلك فضل الله العلماء على غيرهم، وجعل العلماء ورثة الأنبياء. ومنها

أخيراً الإلهام الإلهي الذي بهبه الله خاصته، اليقين الداخلي الموضوعي، الحدس الرباني، وهو يقين الأنبياء^(١).

وبهذا المعنى يستشهد الأفغانى بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية باعتبارها صياغات إلهية لقوانين التاريخ بناءً على رصد طويل من تجارب البشر. فالنص صورة للواقع، والواقع مادة النص، ويتفاعل الصورة والمادة تنشأ حركة التاريخ. الوحي يتحقق في التاريخ، والتاريخ ميدان لتحقيق الوحي. وبالتالي يمكن معرفة قوانين التاريخ استنباطاً من النص واعتماداً على العقل والبداهة والفطرة. ويمكن معرفته استقراءً من حوادث التاريخ. الطريق الأول سماه القدماء التنزيل، والثاني التأويل. وتطابق الطريقتين تصديق للوحي. ويمكن صياغة قوانين التاريخ بالمنقول والمعقول حول العدل في التاريخ ووراثته الأرض للمؤمنين، وتحقيق الوعد الإلهي، والنصر للمؤمنين، وإظهار الحق على الباطل، وتحقيق العزة للمؤمنين، وعدم تغيير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وذلك مثل ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾. هذا قانون تاريخي يمكن للعقل استنباطه بعد رؤية حوادث التاريخ. فالعقل يستدل على سيطرة الإنجليز على ممالك الهند بالقوة والحيلة وكذلك روسيا. كما يستدل على وحدة النضال ضد الاستعمار، الثورة المهدية، والثورة العراقية، ونضال الهند ومقاومة الاستعمار وأيضاً مثل ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم﴾. ويستطيع العقل أن يستدل على أن التفرق ضعف، وتستطيع التجربة أن تثبت أن الوحدة قوة، ومن هنا لزمّت وحدة الأفغان والفرس والهند ومصر والسودان ووريا. وأيضاً ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، فالتغير من الداخل إلى الخارج وليس من الخارج إلى الداخل، من الفرد إلى الجماعة وليس من الجماعة إلى الفرد طبقاً للنظرة المثالية للعالم^(٢).

(١) خاطرات ص ٢٩٢ العروة ج٢ ص ١٦٠-١٦٧/ ١٤-١٧ العروة ج١ ص ١٩٠-٢٠١.

(٢) العروة ص ٢ ص ١٦٨-١٧٥ الأعمال ص ٥٠٦/ ١٨٨-١٩٦.

ويمكن الاستدلال على قانون التاريخ بالعقل الصريح مثل "لايجتنى الشهد من الحنظل"، فالنتائج من نوع المقدمات، "الأعمى من يظن الناس بدون أبصار"، فالانسل يقيس الآخرين بمقياس نفسه، "من ثابر وكابر على تجربة الضار أولى أن يتخذ عبرة"، فالعبرة من الضرر أقوى من العبرة من النفع، "القبة الجوفاء لا ترجع الصدى" تعبر عن عدم التطابق بين الداخل والخارج وبالتالي الكذب والنفاق والازدواجية والمداهنة والتزلف. فلا فرق بين مستويات القانون، فى الطبيعة وفى النفس وفى التاريخ.

والله لا يتدخل فى التاريخ مباشرة ولكن علمه وإرادته وصفاته هى قوانين التاريخ. فالعدل ليس صفة لله فقط أو اسماً من اسمائه الحسنى بل هو قانون للتاريخ. وكذلك صفات الحكمة والسلام والعزة كلها قوانين للتاريخ. فالتاريخ ليس مجرد مادة صماء بل يسرى فيه الروح والعقل. الروح والعقل فى التاريخ، تهبط فى بخارى وتحرك الشعوب. والقوانين الطبيعية والشرائع السياسية والاعتقادات الدينية والصراعات السياسية وانتصار الأقوياء على الضعفاء كل ذلك من قوانين التاريخ. الصفات والأسماء الإلهية التى هى جماع الفضائل قوانين للتاريخ ومقومات نهضته. وهو ما يسمى فى الإلهيات العناية الإلهية^(١).

قوانين التاريخ هى سنن الله فى الكون **سنة الله** فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ولكنه لا يتحقق من نفسه بل من خلال إرادات البشر. لا يتحرك التاريخ إلا بتقابل قانونين، القانون الموضوعى للتاريخ والقانون الذاتى لإرادات البشر، نخبة وجماهير، قلة وكثرة. ضرورة التاريخ وفطرة البشر. الموضوعية والذاتية شرطان لحركة التاريخ. فقد نشأت الأمة الإسلامية بفضلها، جماعة مؤمنة، جيل قرأتى فريد كما يقول سيد قطب. لذلك كانت فعاليات التاريخ بالإضافة إلى القانون الطبيعى الموضوعى العقل والدين والجهاد وما تتضمنه من قيم وفضائل أخلاقية وسياسية مثل الوحدة والعلم والإخلاص^(٢).

(١) الأعمال ص ٥٠٦.

(٢) العروة ج ١ ص ٦ - ٩ - ٦١ - ٦٤ الأعمال ص ٣٣٩.

والصراع السياسى أتون التاريخ وميدان تحقيقاته. والسياسة هى ميدان المصالح المتصارعة. لذلك ارتبطت السياسة بالتاريخ. فالنظام السياسى الصالح شرط البقاء فى التاريخ للأمة. وهو النظام الثورى الذى يقوم على اسناد الأمر إلى أهله، والاستئراكى الذى لا يترك المال دولة بين الأغنياء. والثورة قانون اجتماعى عندما يصل المجتمع إلى حالة اليأس مثل الحالة التى وصل إليها المجتمع المصرى والتى لم يعد من الممكن تحملها حتى انفجرت الثورة العربية. كما أن أحوال الشرق كله أدت إلى استعمارهم من الغرب ثم ظهور روح التحرر فى الشرق للنهضة والثورة ضد الاجحاف بالشرقيين. فالاحساس بالظلم يولد الثورة. والاستعداد للنضال قانون طبيعى فطرى يؤكده القرآن فى ندائه «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة». وإن سيادة أمة على أخرى وإذلالها مخالف للطباع والعوائد، والمقاومة لهذا التسلط والذل أمر طبيعى. السيادة الأولى تريد الافناء والمقاومة، والثانية تريد البقاء. الوعد الإلهى هو قانون التاريخ. ولما كان الوعى لا يخلف فالقانون الإلهى ضرورى. نشأت الأمة من لاشيء ونالت كل شىء ثم فقدت كل شىء. وهو قانون للتاريخ، لنهضة الأمم ودهوقها. والأمة الإسلامية مترامية الأطراف حوالى مائتين وثمانين مليوناً وهى الآن بليون نسمة من الأطلنطى إلى الصين، ثروات وأراضى ولكنها منهوبة ومسلوبة ومجزأة ولا قوة لها. وقيامه الأمة بالفضائل والتمسك بالحق. وإنهيارها بالردائل والابتعاد عنه. يغتصب الأجانب الديار، ويستذلون الأهل، ويسفكون دماء الأبرياء من الإخوان، ولا يتحرك أحد. عدو وفير ومذلة وهوان. فهى أمة أصحاب الملك المسلوب والمال المنهوب.

والأمة فى التاريخ، والتاريخ هو الزمان، حركته نحو الماضى ونحو المستقبل. الحركة نحو الماضى تنشئ الحركة السلفية وتقليد الأسلاف، والحركة نحو المستقبل تنشئ الحركة التقدمية والرغبة فى التجديد. فالمسلم الآن يعجب بماضيه، ويغفل عن حاضره ومستقبله فى حين أن الغربى يهتم بحاضره

وبمستقبله أكثر مما يعكف على ماضيه^(١). ويقارن الأفغانى بين السلف والخلف فى الخطبة ويجد أن خطبة السلف خير من خطبة الخلف مما يقوى الموقف السلفى. ففى مقاله عن "سنن الله فى الأمم" بالرغم من أن العنوان يوحى بقوانين التاريخ إلا أن المضمون فى حسن البلاغة والخطاب والإيجاز فى البيان للخلفاء الراشدين، مثل خطبة أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة عن العقد بين الحاكم والمحكوم، وموعدته لأسامة بن زيد أمير الجيوش عن تحريم التدمير والقتل للزرع والنساء والأطفال والشيوخ فى الحرب، ووصية عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى فى كيفية القضاء وضرورة الاعتماد على القياس، الاشباه بالاشباه والنظائر بالنظائر، ووصيته إلى أمير الجيوش سعد بن مالك بن وهب إلى العراق، ووصيته لعتبة بن مروان إلى البصرة وللمغيرة بن شعبة ثم لعزله، وقوله لعمر بن العاص عن خلق الناس أحرار. ويقارن الأفغانى بين الماضى والحاضر، خطبة القدماء وخطبة جامع البصرة مكتوبة دون قواعد ودون مضمون^(٢). ولما كانت اللغة عنواناً للفكر وكاشفة لمضمونه فإن اختيار الأفغانى لبنية الخطاب القديم المركز الدال وبنية الخطاب الجديد المسهب الذى لا يحيل إلى شئ له دلالاته على أدبيات اللسان ونهضة الأقوام. وكيفية الكلام تكشف عن كيفية الفكر ومدى الالتزام بالواقع أو الخروج عنه. وقلة الكلام قد تعنى التوجه نحو الفعل. وكثرة الكلام قد تعنى العجز عن الفعل. والتركيز فى الكلام قد يعنى صدق الفكر، والاسهاب فيه قد يعنى النفاق والكذب والإلهام. لذلك نهض القدماء وسقط المحدثون.

وإذا كان حاضر الأمة ليس فقط موزعاً بين شد نحو الماضى وانجذاب نحو المستقبل، فإن تاريخ الأمة أيضاً موزع بين حركتى النهضة والسقوط. ويحاول الأفغانى معرفة الأسباب التى حولها تلميذه شكيب أرسلان إلى سؤاله الشهير: لماذا

(١) فى أن المسلم سواء العربى والأعجمى إنما يعجب بماضيه وهو فى أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف أنه يجب أن يكون مع ما هو عليه من دواعى ومستلزمات التقهقر مثل سلفه الساهر اليقظ والصالح المصلح والحاكم العادل، خاطرات ص ١٢ سنن الله فى الأمم، الأعمال ص ٣٣٢-٣٣٩.

(٢) استغرابه ميل الشرقيين فى هذا العصر إلى حب التطويل فى النقال والمطاطلة بالأفعال على عكس ما كان عليه السلف، والأمثلة على ذلك، خاطرات ص ٢٧٢-٢٨٤.

تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ لقد نهضت الأمة بفضل الإسلام ثم انهارت بعد أن تركته. وهى الآن تعود إلى النهضة من جديد بفضل حركة الإصلاح. فهناك ثلاث مراحل: النهضة فى القرون السبعة الأولى، والسقوط فى القرون السبعة الثانية ثم الإصلاح بداية من القرون السبعة الثالثة طبقاً للتصور الحيوى للتاريخ ودورانه بين الحياة والموت. لذلك يشبه الأمة بالبدن كما فعل الفارابى وإخوان الصفا من قبل فى حالتى الصحة والمرض والعودة إلى الصحة من جديد . فالإصلاح يمثل فترة ثالثة للأمة فى التاريخ يريد اللحاق بفترة نهضتها الأولى وتجاوز فترة سقوطها الثانية. وهو سعى نحو الكمال الإنسانى. ويضع الأفغانى تقابلاً بين مرحلتى النهضة والسقوط. على النحو الآتى مبيناً أسبابهما : الوحدة فى مقابل افتراق الكلمة، المستقبل فى مقابل الغفلة من العاقبة، الجهاد بدلاً من الركون إلى الراحة، الإحساس بالرسالة بدلاً من الافتتان بنعيم الدنيا، التحرر بدلاً من الاستعمار والخضوع للأجانبى. ولانتقال إلى النهضة الأولى عن طريق الإصلاح، هناك عدة وسائل: إلهام النخبة، والسعى نحو الكمال من الجميع، والرجوع إلى أصول الدين. فلا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها كما هو الحال فى الحركة السلفية، والجمع بين الحضارة والملك كما كان المسلمون فى سيرتهم الأولى دون الاكتفاء بالحضارة ويكون الملك للأجانبى يستنزف ثروات البلاد كما هو حادث فى تجربتى تركيا ومصر. فلا بد من سلطان قاهر يقود الناس إلى الثورة أو يأخذهم بالتدريج. هذا بالإضافة إلى الأدوات العلمية مثل الجرائد الوطنية والمدارس الحديثة دون تقليد للغرب بلا فهم والتشدد بالفاظ غريبة، وتقديم علم بالوطن، ونسيان الأصول الدينية. وبالتالى فإن ترك ما كان سبباً للصعود يؤدى إلى الهبوط والسقوط^(١). وهكذا تنتهى ملحمة التاريخ عند الأفغانى تشدها الخطابة أحياناً نحو السلفية فى الماضى ويرجعها العقل أحياناً أخرى نحو الإصلاح فى المستقبل.

(١) رأيه فى الدولة الإسلامية ومحاكمته لما أتوه من الخطأ والصواب وأسباب ما نراه فى الاشياخ والاتباع، من التفتقر والانحطاط، خاطرات ص ١٢، الأعمال ص ٥٣٩.

الأفغانى بعد مائة عام

هناك أشياء باقية فى الأفغانى بالرغم من مرور مائة عام أهمها :

١- الشجاعة على نقد القدماء، ورفض التقليد والدعوة إلى الاجتهاد. فتراث، القديم ليس مقدساً بل هو من ابداع أجيال ماضية. هم رجال ونحن رجال، نتعلم منهم ولا نفتدى بهم. والعيب فىنا إذا لم نجد ونبدع وليس فيهم إذا كان اجتهدهم قد تجاوزه الزمان. ويتميز إبداع الأفغانى بأنه حر طليق يتجاوز القياس الفهمى القديم، تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لتشابه بينهما فى العلة على نحو آلى ثابت، إلى التحام مع الواقع وإدراك قوانينه ومرحلته التاريخية بذاء على روح الاسلام وقوته فى التاريخ. وهى الروح التى بدت فى أول "رسالة التوحيد" لمحمد عبده لإثبات أن علم الكلام تاريخى خالص خضع للظروف السياسية فى عصره وليس علماً مقدساً. وقد كان عيب الأجيال اللاحقة عندما خلطت بينه وبين العقيدة. ومازالت مدرسة التجديد عند طه حسين وأمين الخولى وخلف الله محمد خلف الله وسيد قطب ونصر حامد أبو زيد ومحمود إسماعيل وسيد القمنى تعاني من تضيق الخناق على التجديد باسم التقليد.

٢- تحويل القرآن إلى تجارب فردية واجتماعية وقوانين للتاريخ بحيث يمحو الفرق بين الوحى والواقع. قال القرآن خلاصة تجربة البشر كما يروىها فى قصص الانبياء وكما يصورها فى بعض القوانين مثل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقَرَمُ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وبالتالي ساهم الأفغانى فى بلورة فلسفة فى التاريخ مازالت ناقصة فى تراثنا الفلسفى القديم. وحاول التعرف على سنن الله فى الكون ووضع الآية فى التاريخ وتحقيب دوراتها. وقد جعل الأفغانى هذه القوانين فى العقل والتاريخ، فى الذات والموضوع، فى النفس وفى الآفاق

﴿وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾، ﴿سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾. واستعمل الأفغانى الآيات استعمالا حراً بحيث تعبّر أدبياً وفكرياً عن أحوال العصر. إن عظمة الوحي فى أنه يعبر عن خلاصة تجارب البشر، وإعجاز آياته أنها صياغات ثابتة لقوانين التاريخ. فالوحي واقع يتحرك، وتاريخ يسير، والواقع وحي يتحقق، ويتراكم فى التاريخ. إن الوحي علم الله والتاريخ إرادته، وبالتالي أمكن للأفغانى تجاوز تقابل القدماء بين أولوية الإرادة على العلم (الغزالي) وأولوية العلم على الإرادة (ابن رشد)، بين ما ينبغى أن يكون وما هو كائن. كما أمكن للأفغانى تجاوز التقابل الشائع بين التاريخ الإلهى والتاريخ البشرى، بين مدينة الله ومدينة الأرض كما يقول أوغسطين إلى تاريخ واحد يكون فيه التاريخ التقاء الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية، تحقيق مدينة الله فى الأرض نهضة أو انحصارها عنها سقوطاً.

٣- الدفاع عن أصالة الأمة ودورها فى العلم والحضارة من أجل مساءة الدنيا على نبذ التقليد، ودعوها إلى التعرف على أسباب إبداع القدماء وحتى يقضى على الإحساس بالدونية تجاه الآخرين، وتأكيد عزة النفس والكرامة، والقضاء على ثنائية المبدع والناقل التى ميزت علاقتنا بالغرب الحديث. هو يبدع ونحن ننقل حتى تحول الغرب قى وعينا إلى معلّم أبدى وجعلنا أنفسنا تلميذاً أدياً، مع أنها دوارت بين الشعوب والحضارات. كنا معلمين فأصبحنا تلاميذ، وكان الغرب تلميذاً فأصبح معلماً، ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾. ومن لاتاريخ له لا مستقبل له، ومن لا ماضى له لاحاضر له. وهو أكبر رد عملى على تهمة تخلف المسلمين بسبب دينهم. فهذا الدين أصبح القدماء رواداً للعلم تأكيداً على وحدة الوحي والعقل والطبيعة، وقدرة الوحي على التوجه بالعقل نحو العلوم الرياضية والطبيعية.

٤- إدراكه الخطر الأول على الأمة، الاستعمار فى الخارج والقهى فى الداخل، وتجميعه قوى الشرق كلها باعتبارها قلب العالم الإسلامى فى مواجهة قوى الغرب، حتى يقابل التحرر بالاستعمار، والثورة بالهيمنة دفاعاً عن الأوطان والأقاليم مع بؤر متعددة للوحدة ابتداء من مصر، جنوباً مع السودان، وشرقاً مع

إيران والهند، وشمالاً مع الشام وتركيا، وغرباً مع المغرب العربي أو ابتداء من وحدة آسيوية، وحدة الفرس مع الأفغان. لافرق بين الإسلام والوطن، بين الدفاع عن الإسلام والدفاع عن الأوطان قبل أن تظهر القومية بينها لايقاع تناقض مفتعل بين الإسلام والقومية أوبين القومية والوطنية. فالإسلام فى العصر ثورة، وليس مجرد شعائر أو طقوس أو عقائد أو شرائع. وقد كان المسلمون القدماء ثواراً على أوضاعهم الطبقيّة والقبليّة، الإسلام يهدف إلى تغيير الأمر الواقع وليس تثبيتته. هو جزء من الحراك الاجتماعى وليس الثبات الاجتماعى. هو رفض لأوضاع الاحتلال والقهر والفقر والتجزئة والتبعية والتفريد، واللامبالاة. وإذا كان فى الخلق الكونى ليس فى الامكان ابداع مما كان فيه فى الإبداع الإنسانى هناك باستمرار فى الامكان ابداع مما كان. الإسلام كما قال سيد قطب فيما بعد حركة إبداعية فى الفن والحياة. ولا إبداع بلا تغيير ورفض ومقاومة واعتراض وغضب. وكان الأفغانى يضع كوجيتو جديداً ليس "أنا أفكر فأنا إذن موجود" بل "أنا أثور فأنا إذن موجود".

٥- البداية بالواقع المباشر وإعادة بناء التراث القديم طبقاً لمتطلباته، وأخذ موقف من الغرب طبقاً لحاجاته. والواقع فى حاجة إلى تنوير وبقظة وحركة. لم يكن الأفغانى نصيّاً، يبدأ من النص إلى الواقع بل كان واقعياً يبدأ من الواقع إلى النص. لم يقرأ الواقع والنص مرآة فوق عينيه سواء كان نصاً من القدماء أو نصاً من الغرب الحديث بل رأى الواقع مباشرة وحوله إلى نص جديد. ومن ثم يبدأ الأفغانى باعتباره أصولياً ليس من القرآن فالسنة فالاجماع فالقياس كما هو الحال فى الترتيب التقليدى القديم لمصادر الشرع الأربعة بل يبدأ من الاجتهاد فالاجماع فالسنة فالقرآن حتى يشجع المسلمين على الاجتهاد. والواقع هو أساس النص ومصدره كما هو معزوف فى أسباب النزول. الواقع يسأل والوحى يجيب. والواقع يتغير والشرع يتغير معه طبقاً للقدرة كما هو معروف فى الناسخ والمنسوخ. والواقع فى النهاية لفظ قرآنى يصف صدق الوعيد ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾. وهو أحد أسماء يوم القيامة فى "الواقعة".

٦- تفجير الثورة العرابية بفضل تلاميذه، أحمد عرابي وعبد الله النديم، واشترك محمد عبده فيها أولاً ثم ارتداده عنها، والدعوة إلى إنشاء المدارس الوطنية والجمعيات الأهلية ومؤسسات المجتمع المدني بلغة العصر التي تقاوم التغريب والتعليم الرسمي الخالي من هموم العلم والوطن ولا يقوم إلا على التقليد والتقليد من ناحية أو الإعجاب بالغرب من ناحية أخرى. وقد تفجرت ثورة ١٩١٩ بفضل تلميذه سعد زغلول. فالثورة الوطنية جزء من الثورة الإسلامية، وهي الثورة التي توحد فيها المسلمون والاقباط. فالدين واحد، يبعث على الخير والصلاح. وهي الثورة التي جمعت بين وعي النخبة وحركة الجماهير في مواجهة الإنجليز والتي انتهت بالحصول على الاستقلال. كما ارتبطت ثورة ١٩٥٢ به عن طريق بعض الضباط الأحرار من الإخوان المسلمين تلاميذ حسن البنا، تلميذ رشيد رضا، تلميذ محمد عبده، تلميذ الأفغانى. وقد أشاد "الميثاق الوطنى" فى ١٩٦٣ بجذور النضال الوطنى لدى رواد الحركة الإصلاحية وفى مقدمتهم الأفغانى رائدها الأول. ومازال الإسلام السياسى يحمل لواء المقاومة ضد الاحتلال فى جنوب لبنان وفلسطين، وضد القهر فى الداخل. واستطاع الانتصار فى أفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك وجنوب أفريقيا، ومازال يمثل تحدياً كبيراً للغرب والولايات المتحدة بالإسلام "الأبيض" والإسلام "الأسود".

٧- الدعوة إلى الطموح والأمل وطلب المجد ونيل الأعالى وعدم الاكتفاء بالسفوح، وعدم الرضى إلا بقمم الجبال ضد روح اليأس والاحباط والتشاؤم التي سيطرت على الناس. وهذا هو معنى أداء الرسالة التي اشفقت منها السموات والأرض والجبال وحملها الإنسان. لذلك ركز الأفغانى على ارتباط العمل بالنظر، وأن النظر بلا عمل طبل أجوف. وقد انتشرت روح اليأس والاحباط فى هذا الجيل بعد أن بدأ التفريط فى الاستقلال الوطنى وفى القضية الاجتماعية وفى قضايا الوحدة والهوية، وبعد أن تقلص المشروع القومى إلى مصالح قطرية، وتغيرت الثوابت التاريخية فى المنطقة، مناهضة الاستعمار والصهيونية إلى تحالف

معهما. لقد تغيرت مثل هذا الجيل عدة مرات، من الليبرالية إلى الاشتراكية والقومية إلى الرأسمالية والقطرية، وكل بديل جديد يهدم البديل القديم حتى تجطمت المثل كلها ولم يعد هناك إيمان بشيء ولا حتى بالقضية. فوجد الناس في الدين ملاذا ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾^(١).

٨- التمييز بين الدين ورجال الدين من أجل تخليص الدين من السلطة الزائفة التي تحدث باسمه وتسيطر عليه وتحكر تفسيره، وتتسلط على رقاب المؤمنين. فآفة الدين رجاله. لذلك ثارت البروتستانتية ضد الكنيسة. والأفغانى يوحد بينه وبين مارتن لوتر فى الهدف والقصد والغاية. فهو لوثر الشرق. وبالتالي استطاع الأفغانى أن يعبر عن روح الإسلام والعلاقة المباشرة بين الإنسان والله، ويبرز تجربة الإسلام فى التاريخ التى كانت رد فعل على تأليه الأحرار والرهبان واتخاذهم أرباباً من دون الله، وتسلط رجال الدين فى الكنيسة والمعبد على رقاب الناس، يحلون ويحرمون طبقاً لأهوائهم أو إرادات الحكام. فقدوا مصداقيتهم أمام الناس^(٢). يصدرون الفتاوى المتناقضة طبقاً لرغبات الحكام. فإذا ما أراد مقاومة الصهيونية جاء الإسلام متفقاً مع اللاتة الثلاثة، لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضات. وإذا أراد الحاكم الصلح خرجت فتوى مؤيدة لذلك اعتماداً على صلح الحديبية ﴿وان جنحوا للسلم فاجنح لها﴾^(٣).

ومع ذلك ، فالأفغانى بعد مائة عام فى حاجة إلى تطوير على النحو الآتى :

١- تقوية الجانب النظرى فيه حتى يصبح أكثر مطابقة وسندا للجانب العملى. ربما كان "الرد على الدهريين" صحيحاً فى ظروف عصره إذ ارتبطت المادية بأحمد خان المرتبط بالانجليز والذى روج هذا المذهب بدعوى تأسيس العلوم الطبيعية.

^(١) انظر "رسالة إلى الأجيال القادمة" فى هموم الفكر والوطن ج٢ دار بناء القاهرة ١٩٩٨ ص ٥٧٥-٥٧٢

^(٢) وقد امتلأت الأمثال العامة سخرية بهم مثل "هاتوا من المزابيل حظوا على المنابر"، "ما كل من لف العمامة يزنيها"، "ضلالى وعامل إمام والله حرام".

^(٣) وقد سحرت الأمثال العامة من ذلك أيضاً مثل "قالوا للقاضى ياسيدنا الجبطة شخ عليها كلب قال :

"تهمد سبع ونبنى سبع". قالوا دى اللى بينا وبينك، قال : أقل الماء يطهرها".

كما عبر عن روح القرن التاسع عشر وثورة المتدينين ضد المذهب الذى رمز إليه دارون. وكلن مقياس النقد إنكار الألوهية والخلق والمعاد والشرائع الثابتة وبالتالي خطورة نتائجه مثل الاتحاد والإباحية والعدمية. ولا يعتبر فولتير وروسو من الدهريين العدميين مع الاشتراكيين. والطهطاوى يعتبرهما مع مونتسكيو من كبار العقليين، ويعتبر مونتسكيو ابن خلدون العرب، وابن خلدون مونتسكيو فرنسا، وأنه يقيم فهمه للشرائع على قاعدة الحسن والقبح العقليين. والمذهب الطبيعى موجود فى كل حضارة، عند أصحاب الطبائع من المعتزلة القدماء. ربما ما يحتاجه المسلمون اليوم هو الرد على المثاليين والرجعيين والأصوليين والمحافظين والسلفيين الذين جعلوا الإسلام مجرد عقائد وشعائر، مظاهر ورسوم دون الالتفات إلى الجوهر والمضمون. ربما ما نحتاجه اليوم هو "دفاعاً عن الدهريين" حتى يلتفت الناس إلى الطبيعة ويتوجه العقل نحوها فيبدع علوماً رياضية وطبيعية كما أبدع القدماء. وعلى هذا النحو يمكن أن يكون الأساس النظرى مطابقاً للمشروع العلمى. فبالطبيعة تكون القوة وعليها يتأسس العلم. كما أن الاكتفاء بإعادة تأويل عقيدة القضاء والقدر تدفع إلى الشجاعة والاقدام والمجازفة بالمخاطر وارتكاب الصعاب والأهوال لا يكفى فى تجاوزها إلى خلق الأفعال وإثبات حرية الإرادة، والتحول من الاشعرية إلى الاعتزال. كما أن محاولة إعادة بناء العقيدة على ثلاث منها، أن الإنسان أشرف ما فى الكون، أن الأمة أشرف الأمم، وأن الدنيا ممر إلى عالم آخر ربما لا تكفى أيضاً لأنها تسقط الألوهية كلية ولا تحيلها إلى فاعلية فى الأرض والخبز والحرية والأمة والتاريخ. كما أن اعتبار الأمة أشرف الأمم بلا شرط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد يوقع فى العنصرية. أما اعتبار الدنيا ممراً إلى الآخرة فلا يحدد اتجاه الغائية ويتركها إلى ما بعد الموت دون إبراز أهميتها فى الدنيا. لم يستطع الأفغانى إعادة بناء نسق العقائد كله لاستعماله كأساس نظرى للثورة. أبقى على تصورات العقائد القديمة، واندفع نحو الخطابة السياسية. فلم تتغير العقائد ولم تغن الخطابة السليسية عن تأسيس الإسلام كعقيدة ثورية قادرة على أن تكون أساساً نظرياً للمشروع الثورى.

٢- بالرغم من تأكيد الأفغانى على العلم وأهميته إلا أن الدين له الأولوية القصوى. فهو سبب الصلاح والفلاح، وتركه سبب الانهيار والهلاك. وأوروبا تقدمت بالعلم

والقوة وأن تركت الدين يأساً من إصلاح رجاله. الدين هو كل شيء تقريباً فى فكر الأفغانى، مرشد للحياة، ومشرع للقوانين ومكتشف للعلوم، ومنظم للطبيعة، وكان الدين غاية فى ذاته وليس مجرد وسيلة لغاية أخرى هى سعادة الفرد وكمال المجتمع. بل يبدو الأفغانى أحياناً معلماً من شأن الدين على حساب العلم فى رده على رينان. وقد يصل فهم الدين إلى حد التصوف بالرغم من نقده التصوف على أساس أنه مصدر التواكل والكسل. فقد بدأ الأفغانى صوفياً مثل محمد عبده. ويرى أن التصوف موجود فى كل دين، وقد يكون هو أساس وحدة الأديان وأن اختلفت الصور والألفاظ، موجود فى التوراة متخفياً، وفى الإنجيل بعد أن أول المسيح الناموس تأويلاً روحياً. التصوف مذهب الحكماء والعقلاء ترويضاً لنفوسهم. بعكس كالمرآة نور الشمس. وهو ما اتهم بسببه بالقول بالحلول مع أنه انعكاس صورة تجلت لشفافية المرآة. وهو ما يسمى بالسطحات عند ابن عربى والخواص والجنيد والحلاج والجيلى وابن حشيش والمهروردي والبكري. ظاهرها تناقض فيما يتعلق بالحلول الموضوعى، أو الذاتى، وأكن المعنى واحد^(١).

٣- لا يكفى المدخل الأخلاقى لبناء الفرد والمجتمع ولا إقامة النظم القانونية والسياسية. صحيح أن الأخلاق هى الأساس ولكن الاكتفاء بالفكر الأخلاقى كنظرية إجتماعية وسياسية فى حاجة إلى تطوير، والتحول من الفكر الأخلاقى إلى البنية الإجتماعية والأيدىولوجية السياسية. لا يكفى أن يقال إن محرك التاريخ ثلاث فضائل : الحياء، والصدق، والأمانة. فلماذا هذه دون غيرها؟ وأين العوامل المادية فى تحريك التاريخ؟ ولا يمكن تفسير الظواهر بعامل واحد أخلاقى أوفردى دون باقى العوامل. ليست قائمة الفضائل مفتاحاً سحرياً يحل كل مشاكل المجتمع وهى الرذائل، فالمشاكل الإجتماعية أكثر تعقيداً وتحتاج إلى حلول أكثر

^(١) التصوف ، الأعمال ص ٢٩٨-٣٠٠ رده على من أخذ عليه قوله أن أصول الأديان واحدة وإنها من المنقاضات وبحث صوفى، حاضرات ص ٢٠٥-٢٠٨.

تداخلا وتبايناً. لا يكفي تصور الاستعمار على أنه انحلال يمكن مقاومته بالأخلاق، وأن المادية رذيلة يمكن مقاومتها بالفضيلة، وأنها تجعل الإنسان حيواناً، وأن الاشتراكية، اشتراك في الأموال والابضاع وإباحية. فهي تصورات شائعة شعبية كانت رائجة في الصحف الدينية المحافظة. ولا تكفى كتحليل علمي وتاريخي دقيق للاستعمار كحركة تاريخية وللمذاهب السياسية كأيديولوجيات علمية.

٣- عبر الأفغانى عن التيارات الفكرية التى كانت موجودة فى القرن التاسع عشر فى الغرب خاصة المادية والداروينية والاستشراق فكان ضحيته، ولم يستطع تجاوزه. فالمادية والداروينية الحاد وإنحلال. والاستشراق نموذج رينان الذى ينكر على العرب وعلى الساميين كلهم أصالتهم العلمية طبقاً للنظرية العنصرية. فالمكفر ابن عصره. ولكنه أطلق الأحكام على المذاهب والتيارات دون أن يقيدھا بظروف عصرھا. وربما كانت الدعوة إلى العلم (الوضعية) والقوة (نيتشه) والتطور (دارون) أخص ما يميز روح القرن التاسع عشر. وتكون مهمة الأجيال التالية فى الإصلاح نقل الأفغانى من الجو الفكرى فى القرن الماضى إلى الجو الفكرى فى هذا القرن بكل ما فيه من تحولات، من الاستعمار البريطانى القديم إلى الاستعمار الأمريكى الجديد، ونشأة الصهيونية وإقامة دولتها فى فلسطين، وانهيار النظم الشرقية، وبزوغ أفريقيا وحركة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا.

٥- بالرغم من نقد الأفغانى الغرب الاستعمارى المهيمن والمسيطر على الشرق إلا أن الغرب لديه كما هو الحال لدى رواد عصر النهضة بتياراته الثلاثة: الإصلاح الدينى عند الأفغانى، والليبرالية عن الطهطاوى، والعلمية العلمانية عند شبلى شميل، هو نمط التحديث ونموذج التقدم والقدوة فى الرقى والعمران، وكان لسان حاله يقول : قدأونى بالتى كانت هى الداء. وقد أدى ذلك إلى الانهيار بالغرب بعد مائة عام إلى مزيد من التعريب حتى نشأ رد الفعل السلفى عليه وشق الصف الوطنى بين العلمانية والسلفية إلى حد الاقتتال فى الجزائر وتهديد وحدة الدولة

فى تركيا والتّخوين والتّكفير المتبادلين فى مصر وتونس والعراق وسوريا وشبه الجزيرة العربية. فهل يمكن لجيل جديد أن يحول الموقف من الغرب من نطاق المواقف الانفعالية، الانبهار بالغرب أو رفض الغرب إلى أن يصبح الغرب موضوعاً للعلم بدلاً من أن يكون فقط مصدراً للعلم؟ ألا يمكن أن يتعود العرب المحدثون^١ دراسة الغرب، نشأة وتطوراً، تكويناً وبنية كما درس القدماء اليونان والصين، وأن يؤسسوا علم الاستغراب فى مقابل الاستشراق، وأن يصبح الوعي العربى ذاتاً، والغرب موضوعاً، بدلاً من أن يكون الغرب ذاتاً والعرب هم الموضوع؟ ألا يمكن التعامل مع الغرب من موقف النّدية المعرفية كمقدمة للنّدية السياسية والاقتصادية والعسكرية؟^(١)

٦- مازالت أداة التّغيير الأثيرة عند الأفغانى هى السلطة السياسية طبقاً للقول المأثور عن عثمان "إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن". لذلك يتوجه الأفغانى إلى الحكم، السلطان عبد الحميد، خديوى مصر، شاه إيران، ملك أفغانستان. فقد عمل من خلال السلطان عبد الحميد ومبايعته ثم خلع البيعة، وأمير أفغانستان عبد الرحمن خان، وشاه إيران للتوحيد بين إيران وأفغانستان، وعباس حلمى خديوى مصر. كما يعمل من خلال النخبة المثقفة والصفوة العالمية من الأزهر والقواد والأمراء أهل العلم والقوة بالرغم من دعوته إلى الجماهير وتثويره للشعوب وتدائه على المسلمين الذباب الذين يصم طنينه أذان بريطانيا أو الجراد الذى يغرق الجزيرة البريطانية بثقله وكثرة عدده. كما لم يحل قضية ازدواجية السلطة السياسية والسلطة الدينية، وهل وظيفة الثانية إرشاد الأولى دون توقع الصدام بينهما ورغبة كل منهما فى السيطرة على الأخرى، مما أدى إلى الفصل بينهما فى العلمانية الغربية الحديثة، دون لتوحيد بينهما كما تبغى الحركة السلفية المعاصرة. صحيح أنه من كبار الداعين للديموقراطية والشورى

(١) هذا ما حاولناه فى "مقدمة فى علم الاستغراب"، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١. المؤسسة الحامية

للدراسات، بيروت ١٩٩٤.

والدستور إيجاباً مما أدى إلى تعثرها. ولم يستطع القضاء سلباً على الجذور التاريخية والثقافية التي تمنع من الحرية والديموقراطية في وجداننا المعاصر^(١).

٧- مازال يغلب على فكر الأفغانى تقنين ما ينبغى أن يكون أكثر من تحليل ما هو كائن، وأسلوب الماينبغيات والواجبات مما يجعل من الصعب التمييز بين العلم والأخلاق، بين الواقع والمثال، بين الممكن^١ والواجب، بين الوصف والمعيار، بين الفرع والأصل. وهى طبيعة الفكر التقليدى الذى يتصور الوعى على أنه نمط مثالى مستقل عن الواقع والتاريخ وليس حركة فاعلة فيه. من السهل صياغة خطاب أخلاقى يعبر عن أشواق الناس وتمنياتهم. ومن الصعب تحليل الواقع الموضوعى ومعرفة مكوناته وفعالياته ومساره. لذلك ندر أن يكون من بين المصلحين علماء اجتماع وليس علماء دين. فعالم الاجتماع هو الذى يبدأ من الواقع الاجتماعى، ويضع له تخطيطاً من أجل التغيير الاجتماعى. الإصلاح الدينى بمعنى ما ينبغى أن يكون مفيداً فى مرحلة البقطة ولكن يصبح مجرد خطابة فى مرحلة التغيير الاجتماعى. وبحور فى مرحلة الثورة ولكن يعجز عن أن يتحول إلى مرحلة الدولة التى تتطلب التحول من الإصلاح الدينى إلى العلم السياسى. إن الوعى ليس فقط مثلاً بل واقعاً. ولا يصف فقط ما ينبغى أن يكون بل أيضاً ما هو كائن^(٢).

٨- يغلب أسلوب الخطابة والحماسة والنداءات والأوامر. كما حضرت التشبيهاً والصور البلاغية والأساطير والرموز، وتشبيهات الصحة والمرض والداء والدواء والجسم الحى. كما امتلأ بالشعر للاستشهاد به، فالشعر فى الوجدان العربى مازال يقوم بدور القرآن والحديث والأمثال. كما غلبت العبارات القصيرة

(١) انظر دراستنا "الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديموقراطية فى وجداننا المعاصر فى "الدين والثورة فى

مصر" ج٢: الدين والتحرر الثقافى ص ٩٩-١١٨.

(٢) انظر دراستنا "الوعى والواقع" دراسة فى أسباب النزول"، فى "معمود الفكر والوطن" ج١: التراث والحاضر

والحدث، قباء، القاهرة ١٩٩٨ ص ١٧-٥٦.

والموازنة المركزة التي يسهل حفظها ونقلها شفاها، وهي من جوامع الكلم. ولا فرق في ذلك بين القرآن النص والقرآن الحر. فالإنسان خلق جهولا، خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا^(١). وهي كلها أساليب بلاغية في الخطاب الاصلاحى يتفق مع المضمون الفكرى والهدف الشعبى. وربما يحتاج الأمر بعد مائة عام إلى التحول من القول الخطابى والقول الجدلى إلى القول البرهانى بمصطلحات ابن رشد من أجل مزيد من الاحكام للخطاب الاصلاحى حتى يتحول إلى خطاب علمى كما هو الحال فى العلوم الانسانية. فالاصلاح والتحديث والتغير الاجتماعى أصبحت الآن من الموضوعات الرئيسية فى علم الاجتماع بكافة فروعه خاصة علم الاجتماع السياسى، علم اجتماع الثقافة، علم اجتماع المعرفة.

إن الشعوب الآن تعى مصالحها. وانتهت مرحلة اليقظة. ولكنها تبحث الآن عن وسائل التحقيق وطرق العمل، ومناهج للتفكير، ولأنواع جديدة من الخطاب السياسى والثقافى. فهل يستطيع الأفغانى بعد مائة عام أن يبعث من جديد فى أحفاده، وتُعاد صياغته بحيث تعود إلى حركة الاصلاح حيويته الأولى من أجل تجاوز الاستقطاب الحالى بين الخطابين السلافى والعلمانى، وحشد الجماهير بثقافة جديدة، وتقوية الدولة برؤية جديدة لدورها فى الداخل والخارج، واكمال المشروع الاصلاحى التحررى الوطنى المتحد مع المشروع التحررى القومى من أجل النهوض بالاصلاح بعد كبوته وإقالة حركة التحرر الوطنى بعد عثرته، وإدخال هذا الجيل كله من جديد داخل حركة التاريخ.

(١) الرد على الدهريين، الأعمال ص ١٤٠.

المحتويات

الصفحة

٧	الإهداء.....
٩	المقدمة.....
١١	الفصل الأول : الموضوع والمنهج.....
١١	١- دلالة الأفغانى.....
٢١	٢- السيرة والشخصية.....
٣٣	٣- قراءة الأعمال.....
٤٧	الفصل الثانى: الرد على الدهريين (التوحيد).....
٤٧	١- النقد النظرى.....
٥٨	٢- النقد العملى.....
٦٩	٣- البديل الدينى الأخلاقى.....
٧٧	الفصل الثالث : الحرية والعقل (العدل).....
٧٧	١- القضاء والقدر.....
٨١	٢- العقل والتكليف.....
٨٧	٣- العلم والعمل.....
٩٧	الفصل الرابع : الأخلاق الفردية والاجتماعية.....
٩٧	١- الفضائل الفردية.....
١٠٢	٢- فلسفة التربية.....
١٠٩	٣- الفضائل الاجتماعية.....
١٢٣	الفصل الخامس : الأنا والآخر.....
١٢٣	١- الأصالة والتقليد.....
١٢٨	٢- الإسلام والنصرانية.....
١٣٢	٣- الشرق والغرب.....
١٤٥	الفصل السادس : مصر والشرق.....
١٤٦	١- الممالة الشرقية.....
١٥٥	٢- مصر والحلافة العثمانية.....

١٦١	٣- مصر للمصريين
١٦٩	الفصل السابع: الأمة في التاريخ.....
١٦٩	١- وحدة الأمة
١٨٤	٢- التخلف والتقدم.....
١٦٠	٣- قوانين التاريخ.....
١٩٧	الخاتمة : الأفغانى بعد مائة عام
٢٠٩	فهرس الموضوعات

لنفس المؤلف

أولاً - تحقيق وتقديم وتعليق :

١- أبو الحسين البصرى : المعتمد فى أصول الفقه، جزءان. المعهد
الفرنسى، دمشق ١٩٦٣-١٩٦٥.

٢- الحكومة الاسلامية للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٧٩.

٣- جهاد النفس أو الجهاد الاكبر للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٨٠.

ثانياً - إعداد وإشراف ونشر :

١- اليسار الإسلامى، كتابات فى انبيضة الاسلاميه، العدد الأول، المركز
العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨١.

ثالثاً - ترجمة وتقديم وتعليق :

١- نماذج من الفاسفة المسيحية (المعلم لاوغسطين، الإيمان باحثاً عن
العقل لأنسيلم، الوجود والماهية لتوما الاكوينى)، الطبعة الاولى، دار
الكتب الجامعية، الاسكندرية ١٩٦٨، الطبعة الثانية، الانجلو المصرية،
القاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٢- اسبينوزا : رسالة فى اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة
للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثانية، الانجلو المصرية، القاهرة
١٩٨١، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١، الطبعة الرابعة،
دار الطليعة، بيروت ١٩٩٤.

٣- لسنج : تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

٤- جان بول سارتر. تعالى الانا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

رابعاً - مؤلفات بالعربية :

١- قضايا معاصرة، الجزء الأول، فى فكرنا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦، الطبعة الثانية. دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٧، الطبعة الرابعة، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٩١.

٢- قضايا معاصرة، الجزء الثانى، فى الفكر الغربى المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٨، الطبعة الرابعة، المؤسسة الجامعية للدراسات بيروت ١٩٩١.

٣- التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، الطبعة الأولى، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، الانجلو المصرية القاهرة ١٩٨٧، الطبعة الرابعة، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٩٢.

٤- دراسات اسلامية، الطبعة الأولى، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

٥- من العقيدة إلى الثورة، محاولة لاعادة بناء علم أصول الدين، (خمسة مجلدات) الطبعة الأولى، مدبولي، القاهرة ١٩٨٨، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٨.

٦- دراسات فلسفية، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨. الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٩٦.

٧- مقدمة في علم الاستغراب، الطبعة الأولى، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١، الطبعة الثانية، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٩٤.

٨- حوار المشرق والمغرب (بالاشتراك مع الجابري) دار توبقال، الدار البيضاء. ١٩٩١ مدبولي، القاهرة ١٩٩١.

٩- هموم الفكر والوطن (جزءان) ١- التراث والعصر والحداثة، ٢- الفكر العربي المعاصر، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.

خامساً - مؤلفات بالفرنسية والانجليزية:

- 1- Les Méthodes d'Exégèse essai sur la science des fondements de la Compréhension, ilm usul al-Fiqh, Le Caire, 1965.
- 2- L'exégèse de la phénoménologie, l'état actuel de la méthode phénoménologique et son application au phénomène religieux (Paris, 1965). Le Caire, 1980.
- 3- La Phénoménologie de l'Exégèse, essai d'une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966), Le Caire, 1988.

- 4- Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianity and Islam, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1977.
- 5- Islam in the Modern World, 2 vols, vol, I Religion Ideology and Development, Vol, II Tradition, Revolution and Culture, Anglo - Egypt Bookshop, Cairo 1995.